بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخُ الاجلّ الاوحد ابو محمد القاسمُ بنُ علي بنِ محمدِ بن عثمانَ الحريريُّ البصريُّ برّد اللهُ مَضجعَه .

اللهُمَّ انّا نحمَدُك على ما علّمتَ من البيان ، والهمت من التِبيان ، كما نحمدُك على ما اسبغتَ من العَطآء ، واسبلتَ من الغِطآء ، ونعوذُ بك من شِرَّة اللسَن ، وفضول الهذر ، كما نعوذ بك من معرَّة اللَكَن ، وفضوح الحَصَر ، ونستكفي بك الاِفتِتانَ باِطراء المادح ، واغضآء المسامح ، كما نستكفي بك الانتصاب لازراء القادح ، وهتْك الفاضح ، ونستغفرك من سَوْق الشهوات ، الى سُوق الشُبُهات ، كما نستغفرك من نقل الخُطوات ، الى خِطَط الخطِيّات ، ونستوهب منك توفيقًا قايدًا الى الرُشد ، وقلبًا متقلبًا مع الحق ، ولسانا متحلّيا بالصِدق ، ونطقًا مؤيّدًا بالحُجة ، واصابةً ذايدةً عن الزيْغ ، وعزيمةً قاهرةً هوي النفس ، وبصيرةً تُدرك بها عِرفانَ القدْرِ ، وان تُسعدنا بالهِداية الى الدِراية ، وتعضُدَنا بالاعانة على الإبانة ، وتعصِمَنا من الغوابة في الرواية ، وتصرفَنا عن السفاهة في الفُكاهة ، حتى نأمن حصايد الالسِنة ، ونُكفى غوايلَ الزخْرفة ، فلا نرِدَ موْردَ ماثمةٍ ، ولانقِفَ موْقفَ مُنْدمة ، ولا نُرهَق بتَبِعةٍ ، ولا مَعْتبة ، ولا نلجا الى مَعْذِرةٍ عن بادرة ، اللّهُمَّ فحقّق لنا هذه المُنية ، وانِلنا هذه البُغية ، ولا تُضحِنا عن ظلّك السابغ ، ولا تجعلنا مُضغةً للماضغ ، فقد مددنا اليك يد المسيْلة ، وبخعنا بالاستكانة لك والمسكنة ، واستنزلنا كرَمك الجمّ ، ومنّك الذي عمّ ، بضراعة الطلبِ وبِضاعة الامل ، ثم بتوسّل بمحمّدٍ سيّد البشر ، والشفيع المشفّع في المحشر ، الذي

ختمتَ

Digitized by Google

ختمتَ به النبيين ، واعليتَ درجته في العِليّين ، ووصفته في كتابك المُبين ، فقلتَ وانت اصدق القائلين ، وما ارسلناك الّا رحمةً للعالمين

اللّهُمَّ فصلِّ عليه وعلى آله الهادين ، واصحابه الذين شادوا الدين ، واجعلنا لهَديه وهديهم مُتَّبعين ، وانفعنا بمحبّته ومحبّتهم اجمعين انّك على كل شيء قدير ، وبالاجابة جدير *

وبعد فانّه جرى ببعض اندية الادب ، الذي ركدتْ في هذا العصر ريحه ، وخبت مصابيحه ، ذكرُ المقامات التي ابتدعها بديعُ الزمان وعلّامة همدان ، وعزا الى ابي الفتح الاسكندري نشأتَها ، والى عيسى بن هِشام روايتها ، وكِلاهما مجهولٌ لايُعرف ، ونكِرةٌ لا تتعرَّف ، فاشار مَن اِشارتُه حُكمٌ ، وطاعتُه غُنْم ، الى ان انشيء مقاماتٍ اتلو فيها تِلوَ البديع ، وان لم يُدرك الضالعُ ، شأوَ الضليع ، فذاكرته بما قيل في من الّف بين كلمتين ، ونظم بيتا او بيتين ، واستقلّتْ من هذا المقام الذي فيه يُحار الفهْمُ ، ويفرُط الوهْم ، ويُسبَر غوْرُ العقل ، وتتبيّن قيمةُ المرء ، ويُضطرّ صاحبُه الى ان يكون كحاطِبِ ليلٍ او جالبِ رَجْلٍ وخيْلٍ ، وقَلَّما سلِم له مكثارٌ ، او اُقيلَ له عثارٌ ، فلما لم يُسعِف بالاقالة ، ولا اعفى عن المقالة ، لبّيتُ دعوتَه تلبيةَ المُطيع ، وبذلتُ في مطاوعته جُهدَ المستطيع ، وانشأتُ على ما أعانيه من قريحةٍ جامدة ، وفطنةٍ خامدة ، وروِيّةٍ ناضبة ، وهمومٍ ناصبة ، خمسين مقامةً تحتوي على جِدّ القول وهزلِه ، ورقيق اللفظِ وجزْلِه ، وغُرَر البيان ودُرَره ، ومُلَح الادب ونوادره ، الى ما وشّحتُها به من الايات ، ومحاسن الكنايات ، ورصّعتُه فيها من الامثال العربية ، واللطايف الادبية ، والاحاجي النحوية ، والفتاوي اللغوية

Digitized by Google

اللغوية ، والرسايل المبتكرة ، والخطب المحبَّرة ، والمواعظ المُبكية ، والاضاحيك المُلهية ، ممَّا امليتُ جميعَه على لسان ابى زيد السروجى ، واسندتُ روايتَه الى الحارث بن همّام البصري ، وما قصدتُ با لإحضار فيه ، الا تنشيطَ قاريه ، وتكثيرَ سوادِ طالبيه ، ولم اودعْه من الاشعار الاجنبية الاّ بيتين فذّين اسّست عليهما بنيةَ المقامة الحلوانية ، واخرَين تُوّمين ضمنتهما خواتمَ المقامة الدرجية ، وما عدا ذلك فخاطري ابو عُذرِه ، ومقتضبُ حُلوه ومُرّه ، هذا مع اعترافى بان البديع سبّاقُ غاياتٍ ، وصاحبُ اياتٍ ، وان المتصدّي بعدة لانشاء مقامة ، ولو اوتى بلاغةَ قُدامةٍ ، لا يغترف الا من فُضالته ، ولا يَسري ذلك المَسري الاّ بدلالته ، ولله القايل *

فلو قبلَ مَبكاها بكيتُ صبابةً بسُعْدىَ شفيتُ النفسَ قبل التندّم
ولكن بكتْ قبلى فهيّج لى البُكا بكاها فقُلتُ الفضْلُ للمتقدّم

وارجو ان لا اكون فى هذا الهذر الذي اوردتُه ، والمورد الذي توردْتُه ، كالباحث عن حتْفه بظلفه ، والجلاع مارنَ انفِه بكفّه ، فالحق بالاخسرين اعمالاً ، الذين ضلّ سعْيُهم فى الحيوة الدينا ، وهم يحسبون انهم يُحسنون صُنْعا ، على انى وان اغمض لى الغطنُ المتغابى ، ونضح عنى المحبّ المحابى ، لا اكادُ اخلُص من غُمرٍ جاهلٍ ، او دي غِمرٍ متجاهلٍ ، يَضع منّى لهذا الوضْع ، ويندّد انه من مَناهى الشّرع ، ومَن نقَد الاشيا بعين المعقول ، وامعنَ النظرَ فى مَبانى الاصولِ ، نظَم هذه المقامات ، فى سِلك الافادات ، وسلكها مَسلكَ الموضوعات ، عن العجماوات والجمادات ، ولم يُسمع بهن نبا سمعُه عن تلك الحكايات ، او اثّم رُواتَها

فى

فـي وقـــتٍ من الاوقـات ، ثم اذا كـانت الاعـمالُ بـالنِيّات ، وبهـــا انعقـادُ العـقود الديـنيّات ، فايُّ حـرج على مَن انـشـاء مُلحًا للـتنبـيه ، لا للتـمويه ، ونحـىَ بها مَنحىَ التهـذيبِ ، لا الاكـاذيبِ ، وهل هوفي ذلك الَّا بمنزلة مَن انتدب لتعليمٍ ، او هدي الى صراطٍ مستقيمٍ *

على انني راضٍ بـان احـمِل الهـوي واخلُـص منـــه لا علـيَّ ولا لـيـــا وباللّه اعتضِدُ فيها اعتمِدُ ، واعتصِمُ مما يصِمُ ، واسترشِدُ الى ما يُرشِـــد فـما المَفزعُ الَّا الـــيه ، ولا الاسـتـعـانة الا به ، ولا التوفـيـق الَّا منه ، ولا المُويِّلُ الَّا هو ، عليه توكّلتُ ، واليهِ انيبُ *

المقـامـة الاولى الصنعا ئيّة

حدّث الحـارثُ بنُ هـمّامٍ قال ، لما اقتـعـدتُ غـاربَ الاغـتـرابِ ، وانـأتْنـي المَـتربـةُ عن الاتـراب ، طـوّحتْ بي طـوابحُ الـزمن ، الى صَـنعآء اليـمن ، فـدخلتُها خاويَ الـوفـاضِ ، بـادي الانفـاض لا املـكُ بُلغةً ، ولا اجـــد في جرابي مُضغَةً ، فطفِقتُ اجوب طُرقـاتـها مـثلَ الهايم ، واجول في حوْماتها جـــولانَ الحـايـم ، وارّود في مسـارح لمحـاتي ، ومسـايـح غدواتي وروحـاتي ، كريمًا اخلِق له ديـباجتي ، وابوح اليـه بحـاجتي ، او اديـبًا تفرّج رُؤيَتُـه غُمّتي ، وتُـروي رِوَايـتُه غُلّتي ، حتـى ادّتْني خاتـمةُ المَطاف ، وهـدتْني فاتحةُ الالطاف ، الى نادٍ رحيب ، محتوعلى زحامٍ ونحيب ، فولجتُ غابةَ الجمع ، لاسبُرَ مَجْلبةَ الدمْع ، فرايتُ في بُهْرة الحلْقة ، شَخْصًا شَخْتَ الحِلْقة

Digitized by Google

الخلقة ، عليه اهبة السياحة وله زنة النياحة ، وهو يطبع الاسجاع بجواهر لفظه ، ويقرع الاسماع بزواجر وعظه ، وقد احاطت به اخلاط الزمر ، احاطة الهالة بالقمر ، والاكمام بالثمر ، فدلفت اليه لاقتبس من فوايده ، والتقط بعض فرايده ، فسمعته يقول حين خب في مجاله ، وهدرت شقاشق ارتجاله ، ايها السادر في غلوايه ، السادل ثوب خيلا يه ، الجامح في جهالاته ، الجانح الى خزعبلاته ، الم تستمر على غيك ، وتستمري مرعى بغيك ، وحتام تتناهى في زهوك ، ولا تنتهى عن لهوك ، تبارز بمعصيتك ، مالك ناصيتك وتجتري بقبح سيرتك ، على عالم سريرتك وتتواري عن قريبك وانت بمرأي رقيبك ، وتستخفى عن مملوكك ، وما تخفى خافيةٌ على مليكك ، اتظنّ ان ستنفعك حالك ، اذا آن ارتحالك ، او ينقذك مالك ، حين توبقك اعمالك ، او يغنى عنك ندمك ، اذا زلّت قدمك ، او يعطف عليك معشرك يوم يضمك محشرك ، هلّا انتهجت محجّة اهتدايك ، وعجّلت معالجة دايك ، وفللت شباة اعتدايك ، وقدعت نفسك فهى اكبر اعدايك ، اما الحمام يعادك فما اعدادك ، وبالمشيب انذارك فما اعذارك ، وفي اللحد مقيلك فما قيلك ، والى الله مصيرك فمن نصيرك ، طالما ايقظك الدهر فتنا عست ، وجدبك الوعظ فتقاعست ، وحصحص لك الحق فماريت ، واذكرك الموت فتناسيت ، وامكنك ان تؤاسى فما آسيت ، تؤثر فلسًا توعيه ، على ذكر تعيه ، وتختار قصرا تعليه ، على برّ توليه ، وترغب عن هادٍ تستهديه ، الى زاد تستهديه ، يواقيت الصلاة ، اعلق بقلبك من مواقيت الصلاة ، ومغالات الصدقات ، آثر عندك من موالاة الصدقات ، وصحاف الالوان ، اشهى اليك من صحايف

صحايف الاديان ، ودُعابةُ الاقران ، آنَسُ لك من تلاوة القُران ، تأمر بالعُرف وتنتهك حماه ، وتَحمى عن النكر ولا تتحاماه وتُزحزح عن الظُلم ثم تغشاه ، وتخشَى الناسَ والله احقّ ان تخشاه ، ثم انشد *

تبًا لطالب دنيا ... ثنى اليها العصابهَ
ما يستفيق غرامًا ... بها وفرطَ صَبابه
ولو دري لكفاه ... ما يروم صُبابه

تمالك لبّك عجاجتَه ، وغيّضَ مَجاجَتَه ، واعتضد شكوتَه ، وتابّط هراوتَه ، فلما رنت الجماعةُ الى تحفّزه ، ورات تأهّبَه لمزايلة مركزه ، ادخل كل منهم يدَه في جيْبه ، فاغم له سجْلًا من سيْبه ، وقال له اصْرف هذا في نفقتك ، او فرّقه على رفقتك ، فقبله منهم مُغضيا ، وانثنى عنهم مُثنيا ، وجعل يودّع من يشيّعه ، ليخفى عليهم مَهْيَعُه ، ويسرّب من يتبَعه ، كي يجهَل مَرْبَعُه ، قال الحارث بن همّام فاتّبعتُه موارِيا عنه عياني ، وقفوتُ اثَره من حيث لا يراني ، حتى انتهى الى مغارة ، فانساب فيها على غرارة ، فامهلتُه ريثما خلع نعليه ، وغسل رجليه ، ثم هجمتُ عليه ، فوجدته محاذيًا لتلهيذ ، على خبز سميذ ، وجدْيٍ حنيذٍ ، وقُبالتهما خابيةُ نبيذٍ ، فقلت له ياهذا ايكون ذاك خبرك ، وهذا مَخبرك ، فزفر زفرة القيظ ، وكاد يتميز من الغيظ ، ولم يزل يَحملق الىّ ، حتى خفت ان يسطو عليّ ، فلما ان خَبت نارُه وتواري أُوارُه ، انشد *

لبستُ الخميصةَ ابغي الخبيصه ... وانشبتُ شصّي في كل شيصه
وصيّرتُ وغْطى احبولةً ... اربغُ القنيصَ بهِ والقنيصه

والجاي

Digitized by Google

والجأني الدهرُ حتى ولجتُ بلطف احتيالي على الليث عيصه
على انني لم اهب صرفه ولا بضتُ له منه فريصه
ولا شرعتُ بي على مَوْرِدٍ يدنّس عِرْضي نفسٌ حريصه
ولو انصفَ الدهرُ في حُكْمه لما ملَّك الحكمَ اهلَ النقيصه

ثم قال لي امْضِ فكُل ، وان شيتَ فقم وقُل ، فالتفت الى تلميذه وقلتُ له ، عزمتُ عليك بمن تستدفع به الاذي ، لتُخبرَنّي من ذا ، فقال هذا ابو زيد السروجيُّ ، سراجُ الغرباء ، وتاجُ الادباء ، فانصرفتُ من حيث اتيتُ ، وقضيتُ العجَبَ مما رأيت *

المقامة الثانية الحلوانية

حكى الحارث بن همام قال ، كلِفتُ مذ ميطت عني التمايم ، ونيطت بي العمايمُ ، بان اغشى معانَ الادب ، وانضي اليه ركابَ الطلب لاعلق منه بما يكون لي زينةً بين الانام ، ومُزنةً عند الاوام ، وكنتُ لفرط اللهَج باقتباسه ، والطمع في تقمّص لباسه ، ابلحثُ كلَّ من جلّ وقلّ ، واستسقي الوبْلَ والطلَّ ، واتعلّل بعسى ولعلَّ ، فلما حللتُ حُلوان ، وقد بلوتُ الاخوانَ ، وسبرت الاوزانَ ، وخبرتُ ما شان وزان ، الفيت بها ابا زيد السروجي ، يتقلب في قواليب الانتساب ، ويخبط في اساليب الاكتساب ، فيدّعي تارةً انه من آل ساسان ، ويعتزي مرةً الى اقيال غسان ، ويبرز طورًا في شعار الشعراء ، ويلبس حينًا كبْرَ الكبراء

Digitized by Google

الكبراء ، بيْدَ انه مع تلوّن حاله ، وتبيّن مُحاله ، يتحلّى برُواء ورواية ، ومُداراة ودراية ، وبلاغةٍ رايعة ، وبَديهة مطاوعة ، واداب بارعة ، وقدم لاعلام العلوم فارعة ، فكان لمحاسن آلاته ، يُلبَس على علّاته ، ولسَعة روايته ، يُصبا الى رُوبَته ، ولخلابة عارضته ، يُرغَب عن مُعارضته ، ولعذوبة ايراده ، يُستعَف بمراده ، فتعلقت باهدابه ، لخصايص آدابه ، ونافست في مُصافاته لنفايس صفاته *

فكنتُ بهِ اجلو همومي واجتلي زمانيَ طلقَ الوجهِ ملتمعَ الضيا

اري قُربَه قُربي ومَغناه غُنْيةَ ورويتَه رَيّا ومَحياه لي حَيا

ولبثنا على ذلك بُرهةً ، يُنبشي لي كلَّ يوم نزهةً ، ويدرا عن قلبي شُبهة ، الى ان جدحت له يدُ الاملاق ، كاسَ الفراق ، واغراه عدمُ العُراق بتطليق العراق ، ولفظته معاوزُ الارفاق ، الى مفاوز الافاق ، ونظمه في سلك الرفاق ، خفوقُ رايةِ الاخفاق ، فشحذ للرحلة غرارَ عزمته ، وظعن يقتاد القلبَ بازمّته *

فما راقني من لاقني بعد بعده ولا شاقني من ساقني لوصاله

ولا لاح لي مذ ندّ نِدٌّ لفضله ولا ذو خلال جاز مثلَ خلاله

واستسرّ عني حيناً لا اعرفُ له عرينا ، ولا اجد عنه مُبينا ، فلما ابتُ من غُربتي ، الى منبت شُعبتي ، حضرتُ دارَ كُتبها التي هي منتدي المتادّبين ، وملتقى القاطنين منهم والمتغرّبين ، فدخل دو لحيةٍ كثّة ، وهيْئة رثّة ، فسلّم على الجلّاس ، وجلس في اُخريات الناس ، ثم اخذ يُبدي ما في وطابه ، ويُعجب الحاضرين بفصل خطابه فقال لمن يليه ، ما الكتابُ الذي تنظر فيه ، فقال ديوانُ ابي عُبادة ، المشهود له بالاجادة ، فقال هل عثرتَ له فيها لمحتَه على بديع استهلحتَه ، فقال نعمْ قولُه *

كاها

كانها يبسِم عن لولؤٍ منضّد او بَرَدٍ او اقاح

فانّه ابدعَ في التشبيه ، الموقع فيه ، فقال له يا للعجب ، ولضيْعة الادب ، لقد استسهلت يا هذا ذا ورم ، ونفخت في غير ضرم ، ايْنَ انت عن البيت النّذر ، الجامع مشبّهات الثغر ، وانشد *

نفسي الفداء لثغر راق مَبسِمُهُ وزانه شَنَبٌ ناهيك من شنبِ

يفترّ عن لولؤٍ رطبٍ وعن برد وعن اقاح وعن طلع وعن حَبَب

فاستجاده من حضر واستحلاه ، واستعاده منه واستهلاه ، وسُئل عن هذا البيتُ ، وهل حيٌّ قايلُه ام ميْتٌ ، فقال ايْم اللهِ للحقُّ احقُّ ان يُتبَع ، وللصِدقُ حقيق بان يستمع ، انه يا قومِ لَنجيٌّكم مُنذ اليوم ، قال فكاءنَّ الجماعة ارتابت بعزْوته ، وابْت تصديق دعْوته ، فتوجّس ما هجس في افكارهم ، وفطن لما بطن من استنكارهم ، وحاذر ان يفرُط اليه ذمٌّ ، فقراء انّ بعضَ الظنّ اثمٌ ، ثم قال يا رُواة القريض ، واساة القبول المريض ، انّ خُلاصةَ الجوهر تُظهَر بالسبْك ، ويدُ الحقّ تصدَع رداء الشكّ ، وقد قيل فيها غبر من الزمان ، عند الامتحان يُكرمَ الرجلُ اويُهان ، وها انا قد عَرَّضت خبيَّتي للاختبار ، وعَرَضت حَقيبتي على الاعتبار ، فابتدر احدُ من حضر وقال ، اعرف بيتًا لم يُنسَج على منوالِه ، ولا سمحتْ قريحةٌ بمثاله ، فان اثرتَ اختلابَ القلوبِ ، فانظم على هذا الاسلوب ، وانشد

فامطرتْ لولؤًا من نرجس وسقتْ وردًا وعضّت على العُنّاب بالبردِ

ولم يكن الّا كلمح البصر او اقربُ ، حتى انشد فاغربَ *

سأ لتُها حينَ زارت نضْوَ برقعِها القاني وايداعَ سمعي اطيبَ الخبر

فزحزجتْ

فزحزحتْ شفقًا غشى سنا قمر وسا قطت لولؤًا من خاتمٍ عطر

فحار الحاضرون لبداهته ، واعترفوا بنزاهته ، فلما أنس استيناسهم بكلامه ، وانصبابهم الى شعْب ، اكرامه ، اطرق كطرفة العين ، ثم قال دونكم بيتين اخرين ، وانشد *

واقبلتْ يومَ جدّ البينُ في حللٍ سودٍ تغض بنانَ النادم الحصر

فلاح ليلٌ على صُبح اقلّهما غصنٌ وضرست البلّورَ بالدُّرر

فحينئذٍ استسنى القومُ قيمتَه ، واستغزروا ديمتَه ، واجملوا عشرتَه وجمّلوا قِشرتَه ، قال المخبر بهذه الحكاية ، فلما رايتُ تلهُّبَ جذوتِه ، وتالقَ جلْوتِه ، امعنتُ النظرَ في توسّمه ، وسرحتُ الطرف في ميسَمه ، فاذا هو شيخُنا السروجي ، وقد اقمر ليلُه الدجوجي ، فهنّات نفسي بموردِه ، وابتدرت استلامَ يدِه ، وقلت له ما الذي احال صفتَك ، حتى جهلتُ معرفتَك ، واي شيء شيّب لحيَتك ، حتى انكرتُ حِليتَك ، فانشا يقول ،

وقعُ الشوايب شيّب والدهرُ بالناس قلّب

ان دان يومًا لشخصٍ ففي غدٍ يتغلّب

فلا تثِق بوميضٍ من برقه فهو خُلّب

واصْبر اذا هو اضرّي بك الخطوبَ والنّب

فما على التبر عارٌ في النار حين يُقلّب

ثم نهض مفارقًا موضعَه ، ومستصحبًا القلوب معه *

Digitized by Google

المقامة الثالثة الدينارية

اخبر الحارث بن همام قال ، نظمني واخدانا لي نادٍ لم يخب فيه مُنادٍ ، ولا كبا قدحُ زنادٍ ، ولا ذكت نارُ عنادٍ ، فبينا نحن نتجاذب اطراف الاناشيد ، ونتوارد طُرَفَ الاسانيد ، اذ وقق بنا شخصٌ عليه سَمْلٌ ، وفي مشيه قزل ، وقال يا اخايَر الدخاير ، وبشاير العشاير ، عِموا صباحًا ، وانعِموا اصطباحًا ، وانظروا الى من كان ذا ندّي ونَدَيّ ، وجدةٍ وجدَيّ ، وعَقار وقُرَيّ ، ومقارٍ وقريّ ، فما زال بهِ قُطوبُ الخطوب ، وحروبُ الكروب ، وشررُ شرّ الحَسود ، وانتيابُ النُوَب السود ، حتى صَفِرت الراحةُ ، وقرعت الساحةُ ، وغار المَنبَعُ ، ونبا المَرْبع ، واقوي المجمع ، واقضّ المضجع ، واستحالت الحال ، واعول العيال ، وخلت المرابط ، ورجِم الغابطُ ، واودَي الناطق والصامت ، ورثى لنا الحاسد والشامت ، وألنا للدهر الموقع ، والفقر المدقِع ، الى ان احتذينا الوَجى ، واغتذينا الشجى ، واستبطنّا الجوي ، وطوينا الاحشآ على الطوي ، واكتحلنا السهاد ، واستوطنّا الوهاد ، واستوطانا القتاد ، وتناسينا الاقتاد ، واستطبْنا الحيْنَ المجتاح ، واستنبطانا اليومَ المتاح ، فهل من حُرّ آسٍ ، او سمْح مواسٍ ، فوالذي استخرجني من قَيْلَةَ ، لقد امسيتُ اخا عَيْلةٍ ، لا املك بيتَ ليلةٍ ، قال الحارث بن همام فأوبتُ لمفاقره ، ولويت الى استنباط فِقَره ، فابرزت له دينارًا ، وقلت له اختبارًا ، ان مدحتَه نظمًا فهو لك حتما ، فانبرى يُنشد في الحال ، من غير انتحال *

الرمْ

اكرم بـه اصفرَ راقتْ صُفـرتُه جوّابَ افاق ترامـتْ سَفرتهُ
ماتورةً سُمعـتُه وشهـرتُه قد اُودعتْ سِرَّ الغنَى اسـرّتهِ
وقارنت نجمَ المساعي خَطرتُه وحُبّبـت الى الانام غُرّتُـه
كانّها من القلـوب نقرتُه به يصولُ مَن حوتْه صُـرّتُـه
وان تفانت او توانت عثْـرته يا حَبّذا نُصـارُه وَنصـرتُه
وحبذا مَغْناته ونصْـرتـه كم امرٍ بهِ استـتبّت امْرتُه
ومُترفٍ لولاه دامـت حسرتُه وجيشِ همٍّ هزمتْـه كرّتـه
وبـدرِ تمٍّ انزلته بـدرتُـه ومستشيطٍ تتلظّى جَمْرتـه
اسـرَّ نجواه فلانتْ شـرَّته وكم اسيرٍ اسلمتـه اُسـرتُه
انقذه حتى صفتْ مَسـرَّته وحقِ مولَى ابدعتـه فطـرتـه
لولا التقى لقلتُ جلّت قُدرتُه *

ثم بسط يدَه ، بعد ما انشده ، وقال انـجـز حُرًّ ما وعد ، وسحّ خـالٌ اد رعد ، فنبذتُ الدينـارَ اليه ، وقلـت خُذه غير ماسوف عليه ، فوضعـه في فيه ، وقال بارك اللّهُـمَّ فيه ، ثم شمّـر للانثنا بعد توفية الـثنـا ، فنشأتْ لي من فُكاهته نشـوَةُ غرامٍ ، سَهّلـت عليّ ايتنافَ اغترامٍ ، فجرّدت دينارًا اخر وقلت ، هل لك في ان تذمّه ، ثم تضُـمّه ، فانشد مـرتجلًا ، وشدا عجلًا *

تبّاله مـن خـادعٍ مُهـاذقِ اصغرَ دي وجهين كالمنـافقِ
يبدو بوصفين لعين الرامـقِ زينةِ معشوقٍ ولونِ عـاشـقِ
وحبُّه عند ذوي الحقـايـقِ يدعه الى ارتكاب سُخْط الخالق
لولاه لم تُقطَع يمينُ سـارقِ ولا بدت مظلمةٌ من فاسـقِ

ولا

ولا اشهازّ باخلٌ من طـــارق ولا شكا المهطولُ مطلَ العايق
ولا استُعيذ من حَسود راشـق ولا عصا المخلوقُ امرَ الخـالق
وشرُّ ما فيـه من الخـلايـقِ ان ليس يُغني عنك في المضـايق
الا اذا فـرّ فـرار الآبـــق واهـا لمن يقذفه من حالـقِ
ومن اذا ناجاه نجوي الوامق قال له قولَ المُحِقّ الصـادق

لا رايَ في وصلك لي ففارق

قال الراوي ، فقلـتُ ما اغرز وبْلـكَ ، فقال والشرط املك ، فنفحتُـه بالـدينار الثاني ، وقلت له عوّدها با لمثاني ، فالقـاه في فمـه ، وقرنـه بتوأمه ، وانكفاء يحمَدُ مَغداه ، ويمدح النادي ونداه ، قال الحارث بن همـام ، فناجاني قلبي بانه ابو زيـد ، وانّ تعارُجه لكيدٍ ، فاستعـدتُه وقلـت له ، قد عُرفتَ بوشيك ، فاستقِـم في مشيـك ، فقال اذ كنـتَ ابنَ همـام ، فحُيّيـتَ باكرام ، وحَييتَ بين كِرام ، فقلـت انا الحارث فكيف حالـك والحوادث ، فقـال انقلّبُ في الحاليـن بوس ورخا ، وانقلب مع الريحيـن زعزع ورخا ، فقلت له كيف ادّعيت القزَل ، وما مثلُك مَن هزَل ، فاستـسر بِشرُه الذي كـان تـجلّـى ، ثم انـشـد حـيـن ولّـى

تـعـارجتُ لا رغبةً في العرج ولـكـن لاقرع بـابَ الفرج
وَالقِي حبْلـي على غاربي واسلُك مسلـكَ من قد مرج
فإن لامني القومُ قلت اعدروا فليس عـلى اعرج من حَـرَج

Digitized by Google

المقامة الرابعة الدمياطية

اخبر الحارث بن همامٍ قال ، ظعنتُ الى دمياط ، عامَ هياطٍ ومياط ، وانا يومئذ مرموقُ الرَخا ، موموقُ الاخا ، اسحَبُ مطارفَ الثراءِ ، واجتلي معارفَ السّرّاء ، فرافقتُ صحبًا قد شقّوا عصا الشِقاقِ وارتضعوا افاويق الوفاق ، حتى لاحوا كاسنان المُشط في الاستواء ، وكالنفس الواحدة في التيأم الاهواء ، وكنّا مع ذلك نسير النجاءَ ، ولا نرحل الّا كلّ هوجاء ، واذا نزلنا مَنزلا ، او وردنا مَنهلا ، اختلسنا اللُبْثَ ، ولم نطِل المكسَ ، فعنّ لنا اعمالُ الرّكاب ، في ليلةٍ فتيّةِ الشبابِ ، غُدافية الاهاب ، فاسْرينا الى ان نضا الليلُ شبابَه وسلتَ الصُبح خضابَه ، فحين مللْنا السُريَ ، ومِلنا الى الكَريَ صادفنا ارضًا مُخضَلّة الرُبا ، معتلّة الصُبا ، فتخيرناها مُناخًا للعيس ، ومَحطًا للتعريس ، فلما حلّها الخليطُ ، وهداء بها الاطيطُ والغطيط ، سمعتُ صيتًا من الرجال ، يقول لسميره في الرحال ، كيف حُكمُ سيرتِك ، مع جيلك وجيرتك ، فقال ارعى الجارَ ولو جار ، وابْذل الوصالَ لمن صال ، واحتمِلُ الخليطَ ، ولو ابدى التخليطَ ، واودّ الحميم ، ولو جرّعني الحميم ، وافضّل الشفيق على الشقيق ، وافي للعشير ، وان لم يكافي بالعشير ، واستقلّ الجزيل للنزيل ، واغمرُ الرميلَ بالجميل ، واُنزل سميري ، منزلةَ اميري ، واُحلّ انيسي ، محلَّ رئيسي ، واُودع معارفي ، عوارفي ، واُولي مَرافقي ، مُرافقي ، واُلين مقالي ، للقالي ، واُديم تسْالي ، عن السالي ، وارضَى من الوفاء بالفاء ، واقنع

واقنع من الجزآء ، باقلّ الاجزآء ، ولا اتظلم حينَ اُظلَم ، ولا انقم ولو لدغني الارقمُ ، فقال له صاحبه ، ويلك يا بُنَيَّ انّما يُضَنُّ بالضنين ، ويُنافَس في الثمين لكن انا لا اتي غيرَ المواتي ، ولا اسمُ العاتي بمُراعاتي ، ولا اصافي ، مَن يابى انصافي ، ولا أُواخي من يُلغي الأواخي ، ولا أُمالي من يخيّبُ اُمالي ، ولا أُبالي بهن صرم حبالي ، ولا اُداري من جهل مقداري ، ولا اعطي زمامي ، من يُخفر ذمامي ، ولا ابذل ودادي لاضدادي ، ولا ادع ايعادي للعادي ، ولا اغرس الايادي ، في ارض الاعادي ، ولااسمح بُمواساتي ، لمن يفرح بمَساءاتي ، ولا ارى التفاتي ، الى من يشمت بوفاتي ، ولا اخُصّ بحبائي ، الّا احبّائي ، ولا استطبّ لدائي ، غير اودّائي ولا اُملّك خُلّتي ، من لا يسُدّ خَلّتي ، ولا اُصفي نيّتي لمن يتهمّني منيّتي ، ولا اُخلص دُعائي لمن لايُفعِم وعائي ، ولا افرغ ثنائي ، على من يفرّغ انائي ، ومن حكم بان ابْذَل وتبخّل ، وألين وتخشّن واذوب وتجمّد ، واذكو وتخمد ، لا والله ، بل نتوازن في المقال ، وزن المثقال ، ونتحاذي في الفعال ، حذْوَ النعال ، حتى نامَنَ التغابنَ ، ونكفى التضاغنَ ، والّا فلم اَعُدّك وتُعدّني ، واقلّك وتستقلّني ، واجترح لك وتجرّحني ، واسرح اليك وتُسرّحني ، وكيف يُجتلب انصافُ بضيم ، وانّى تُشرق شمسٌ مع غيم ، ومتى اصحبَ وُدّ بعسف ، واي حُرّ رضي بخُطّة خسفٍ

ولله ابوك اذ يقول ❊

جزيتُ من اعلق بي وُدّه ... جزآء من يبني على اُسّهِ
وكلتُ لي لخِلّ كما كال لي ... على وفاء الكيلِ او بخسهِ
ولم اخسّره وشرُّ الوري ... مَن يومُه اخسرُ من امسهِ

وكلُّ

وكلٌّ من يطلب عندي جنىً ... فما له الّا جنى غرسهِ
لا ابتغي الغبنَ ولا انثني ... بصفقة المغبونِ في حسّهِ
ولستُ بالموجِب حقًا لمن ... لا يوجب الحقَّ على نفسهِ
وربَّ مذّاقِ الهوى خالني ... اصدقُه الودَّ على لبسه
وما دري من جهله انني ... اقضي غريمي الدّينَ من جنسهِ
فاهجرْ من استغباك هَجْرَ القِلَى ... وهَبْه كالمعهود في رمسهِ
والبَسْ لمن في وصْله لُبْسةً ... لباسَ من يرغب عن لُبسهِ
ولا تُرجِّ الودَّ ممن يري ... انّك محتاجٌ الى فلسهِ

قال الحارث بن همام ، فلما وعيتُ ما دار بينهما ، تُقت الى ان اعرف عينَهما ، فلما لاح ابنُ ذكآء ، والحق الحرَّ الضِيآء ، غدوت قبل استقلال الركابِ ، ولا اغتدآء الغُرابِ ، وجعلت استقري صوبَ الصوتِ الليلّ ، واتوسّم الوجوهَ بالنظر الجلي ، الى ان لمحت ابا زيدٍ وابنَه يتحادثان ، وعليهما بُردانِ رثّان ، فعلمت انهما نجيّا ليلتي ، وصاحبا روايتي ، فقصدتهما قصدَ كلفٍ بدمائتهما ، راثٍ لرثاثتهما ، وابحتُهما التحوّلَ الى رحلي ، والتحكّم في كُثري وقُلّي ، وطفقت اُسيّر بين السيّارة فضلَهما ، واهُزّ الاعوادَ المثمرة لهما ، حتى غُمرا بالنُحلان واتّخذا من الخُلّان ، وكُنّا بمُعرَّسٍ نتبيّن منه بُنيانَ القُري ، ونتنوّر نيرانَ القِري ، فلما راي ابو زيد امتلاء كيسه ، وانجلاء بؤسه ، قال لي انّ بدني قد أتسخ ، ودرني قد رسخ ، افتاذنُ لي في قصد قريةٍ لاستحمّ ، واقضي هذا المهمَّ ، فقلت اذا شيت فالسُرعةَ السُرعةَ ، والرَجْعةَ الرجعةَ ، فقال ستجد مَطلَعي عليك ، اسرعَ من ارتداد طرْفك اليك ، ثم استنّ استنانَ

استنانَ الجوادِ في المِضمار ، وقال لابنه بدارِ بدارِ ، وفلم نخَلْ انه غرّ ، وطلب المَفرّ ، فلبثنا نرقُبه رقبةَ اهلّةِ الاعياد ، ونستطلعه بالطلايع والرُّوّاد ، الى ان هرم النهارُ ، وكاد جُرفُ اليومِ ينهار ، فلما طال امدُ الانتظار ، ولاحت الشمسُ في الاطمار ، قلت لاصحابي قد تناهينا في المُهْلة ، وتهادينا في الرحْلة ، الى ان اضعْنا الزمان ، وبان ان الرجل مانَ ، فتأهّبوا للظّعن ، ولا تلووا على خضرآءِ الدِّمَن ، ونهضت لاحلج راحلتي ، واتحمّل لرحلتي ، فوجدتُ ابا زيد قد كتب ، على القتب *

يا من غدا لي ساعدًا ومسا عدًا دون البشر
لا تحسبَنْ اني نأَ يْتُه عن ملالٍ او اَشَر
لكنّني لم ازَلْ ممّن اذا طعم انتشر

قال فاقرأتُ الجماعةَ القتبَ ، ليعذِره مَن كان عتب ، فاعجبوا بظُرافته ، وتعوّذوا من أُفته ، ثم انا ظعنّا ، ولم ندرِ مَن اعتاضَ عنّا *

المقامة الخامسة الكوفية

حكى الحارث بن همام قال ، سمرت بالكوفة في ليلةٍ اديمُها دو لونين وقمرُها كتعويدٍ من لُجَيْن ، مع رُفقةٍ غُذوا بلبان البيان ، وسحبوا على سَحْبانَ ديلَ النِسيان ، ما فيهم الّا من يُحفَظ عنه ، ولا يُتحفّظ منه ، ويميل الرفيقُ اليه ، ولا يميل عنه ، فاستهْوانا السَمرُ ، الى ان غرب القمرُ ، وغلب السَهرُ ، فلما رقّ الليلُ البهيمُ ، ولم يبقَ الّا التهويمُ ، سمعنا

سمعنا من الباب نبأة مستنبح ، ثم تلتها صكة مستفتح ، فقلنا من الملمّ ، في الليل المدلهمّ ، فقال *

يا اهلَ ذا المَغنى وُقيتم شرّا ... ولا لقيتم ما بقيتم ضُرّا
قد دفع الليلُ الذي اكفهرّا ... الى ذراكم شعثًا مُغبرّا
اخا سفار طال واسبطرّا ... حتى انثنى مُحقوقفًا مُصفرّا
مثلَ هلالِ الأفقِ حين افترّا ... وقد عرا فِناءكم مُعتمرّا
وامّكم دون الانامِ طُرّا ... يبغي قِرِّي منكم ومستقرّا
فدونكم صيفًا قنوعًا حُرّا ... يرضى بما احلولَ وما امرّا
وينثني عنكم ينثّ البرّا

قال الحارث بن همام ، فلما خلبنا بغدوة نطقه ، وعلمنا ما وراء برقه ابتدرنا فتح البابِ ، وتلقيناه بالترحاب ، وقلنا للغلام هيّا هيّا ، وهَلُمّ ما تهيّا ، فقال الضيفُ والذي احلّني ذراكم ، لا تلمّظتُ بقراكم ، او تضمنوا لي ان لا تتّخذوني كَلًّا ، ولا تجشّموا لاجلي اكلا فَرُبَّ اكلةٍ هاضت الأكِلَ ، وحرمته مأكلَ ، وشرُّ الاضيافِ من سام التكليفَ ، واذى المضيفَ ، وخصوصاً اذيً يعتلق بالاجسام ، ويُفضي الى الاسقام ، وما قيل في المثل الذي سار سايرُه ، خيرُ العشاء سوافرُه ، الاَّ ليُعجّل التعشّي ، ويُجتنَب اكلُ الليلِ الذي يُعشي ، اللهم الاَّ ان تقِد نارُ الجوعِ ، وتحول دون الهجوع ، قال فكانّه اطلع على ارادتنا ، فرمى عن قوسِ عقيدتِنا ، لا جَرَمَ انّا انسناه بالتزام الشرطِ ، واثنيناه على خُلقه السبْطِ ، ولما احضر الغلامُ ما راج ، واذكى بيننا السراجَ ، تأمّلتُه فاذا هو ابو زيد ، فقلتُ لصحبي ليَهْنِكم الضيفُ الوارِدُ ، بل المغنمُ البارِدُ

البارد ، فان يكن افل قمرُ الشِعْرَي ، فقد طلع قمرُ الشعرِ ، او استسّر بدرُ النَّثرةِ ، فقد تبلّج بدرُ النَّثرِ ، فسرتْ حُمَيَّا المسرّة فيهم ، وطارت السِّنَةُ عن مآقيهم ، ورفضوا الدعةَ التى كانوا نووْها ، وثابوا الى نشر الفكاهةِ بعد ما طووْها ، وابو زيد مُكبٌّ على اعمال يديه ، حتى اذا استرفع مالديه ، قلنا له اطرِفْنا بغريبةٍ من غرايب اسمارك ، او عجيبةٍ من عجايب اسفارك ، فقال لقد بلوت من العجايب ما لم يره الراؤون ، ولا رواه الراؤون ، وانّ من اعجبها ما عاينته الليلةَ قُبيل انتيابكم ، ومصيري الى بابكم ، فاستخبرناه عن طُرفةِ مَرْآه ، فى مَسرح مَسراه ، فقال انّ مَرامى الغُربةِ ، لفظتنى الى هذه التُربة ، وانا ذو مَجاعةٍ وبوسَى ، وجرابٍ كفواد امّ موسى ، فنهضتُ حين سجَى الدُّجَى ، على ما بى من الوجَى ، لارتياد مُضيفاً ، او اقتياد رغيفًا ، فساقنى حادي السغبِ ، والقضاء المكنَّى ابا العجبِ ، الى ان وقفتُ على باب دارٍ فقلت *

حُيّيتم يا اهلَ هذا المنزل ... وعشتم فى حفْظ عيشٍ خضل
ما عندكم لابن سبيلٍ مُرمِلِ ... نضْو سُرًى خابطِ ليلِ الّيلِ
جَوي الحشى على الطوىَ مشتملِ ... ما ذاق مذ يومان طعمَ ماكل
ولا له فى ارضكم من مؤيل ... وقد دجا جنحُ الظلام المُسبَلِ
وهو من الحيرة فى تململِ ... فهل بهذا الرَبْع عذبُ المَنهَلِ
يقول لى القِ عصاك وادخل ... وابشرْ ببشرٍ وقِرى معجّلِ

قال فبرز الى جودرٌ ، عليه شوذرٌ ، وقال *

وحُرمة الشيخ الذي سنّ القِري ... واسّس المَحجوجَ فى امّ القُري
ما عندنا لطارقٍ اذا عرا ... سوي الحديث والمُناخ فى الذري

وكيف

وكيف يقري من نفى عنه الكرى طوى بَرَي اعظُمه لما انبري

فما تري فيها ذكرتُ ما تري

فقلت ما اصنعُ بهذا قفرٍ ، ومُنزل حِلْف فقر ، ولكن يا فتى ما اسمك ، فقد فتنني فهمك ، فقال اسمي زيدٌ ، ومنشاي فيدٌ ، ووردتُ الى هذه المَدَرة امس ، مع اخوالي من بني عبْس ، فقلت له زدني ايضاحًا عشتَ ونُعشت ، فقال اخبرتني امي بَرَّةُ ، وهي كاسمها برةٌ انها نكحتْ عامَ الغارة بهاوانَ ، رجلًا من سَراة سَروجَ وغسانَ ، فلما انس منها الاتقالَ ، وكان باقعةً على ما يقال ، ظعن عنها سرًّا ، وهَلُمَّ جرًّا ، فما يُعرَف احيٌّ هو فيُتوقع ، ام أُودع اللحدَ البلقعَ ، قال ابو زيد فعلمتُ ، بصحّة العلامات انه ولدي ، وصدّفني عن التعرّف اليه صَفرُ يدي ، ففصلت عنه بكبد مرضوضة ، ودموع مفضوضة ، فهل سمعتم يا اولى الالباب ، باعجب من هذا العُجاب ، فقلنا لا ومَن عنده علمُ الكتاب ، فقال آثبتوها في عجايب الاتّفاق ، وخلّدوها بطونَ الاوراق ، فما سُيّر مثلُها في الافاق ، فاحضرنا الدواةَ واساودها ، ورقشنا الحكايةَ على ما سرّدها ، ثم استنبطناه عن مُرْتاه ، في استضمام فتاه ، فقال اذا تُقل رُدني ، خفّ عليّ ان اكفُل ابني ، فقلنا ان كان يكفيك نصابٌ من المال ، الّفناه لك في الحال ، فقال وكيف لا يُقنعني نصابٌ ، وهل يحتقر قدرَه الا مصابٌ ، قال الراوي فالتزم منه كلٌّ منّا قِسطا ، وكتب له به قطّا ، فشكر عند ذلك الصُنع ، واستنفد في الثناء الوُسعَ ، حتى اننا استطلنا القولَ ، واستقللنا الطولَ ، ثم انه نشر من وشي السمر ، ما ازري بالحِبر ، الى ان اظلّ التنويرُ ، وجشر الصُبحُ المنيرُ ، فقضيناها ليلةً غابت شوائبُها ،

الى

الى ان شابت ذوائبُها ، وكمل سعودُها ، الى ان انفطر عمودها ، ولما ذرَّ قرنُ الغزالة ، طمر طمور الغزالةِ ، وقال انهض بنا لنقبض الصلات ، ونستنضّ الاحالات ، فقد استطارت صدوعُ كبدي ، من الحنين الى ولدي ، فوصلت جناحَه ، حتى سنّيتُ نجاحَه ، فحين احرز العينَ في صُرّته ، برقت اساريرُ مسرّته ، وقال لي جُزيتَ خيراً عن خُطا قدميْك ، والله خليفتي عليك ، فقلت له اريد ان اتّبعك لاشاهد ولدَك النجيب ، وانافثه لكي يجيب ، فنظر اليّ نظرةَ الخادع الى المخدوع ، وضحك حتى تفرغرت مقلتاه بالدموع ، وانشد *

يا من تظنّى السرابَ ماء ... لمّا رويتُ الذي رويتُ
ما خِلتُ ان يستسرّ مكري ... وان يُخيل الذي عنيْتُ
والله ما بَرَّةٌ بعرسى ... ولا لي ابنٌ به اكتنيتُ
وانّها لي فنونُ سحر ... ابدعتُ فيها وما اقتديت
لم يحكِها الاصمعيُّ في ما ... حكى ولا حاكها الكميتُ
تخذتها وُصلة الى ما ... تجنيه كفّى متى اشتهيت
ولو تعافيتُها لحالت ... حالي ولم احو ما حويت
فهمّد الغدرَ او فسامح ... انّ كنتُ اجرمتُ او جنيتُ

تم انه ودّعني ومضى ، واودَع قلبي جمرَ الغضا *

Digitized by Google

المقامة السادسة المراغيّة

روي الحارث بن همامٍ قال ، حضرت ديوانَ النظـــرِ بالمراغـــة ، وقد جري به ذكرُ البـــلاغةِ ، فاجمـــع مَن حضر من فرسان البراعة ، وارباب البراعةِ ، على انه لم يبقَ مَن ينقّح الانشا ، ويتصرّف فيه كيف شـــآء ، ولا خلـــف بعد الســـلفِ مَن يبتدع طريقـــةً غرّاء ، او يفتـــرع رسالةً عذراء وانّ المُفلق من كتّاب هذا الاوان ، المتمكّـــن من ازمة البيان ، كالعيال علـــى الاوايل ولو ملك فصاحةَ سحبـــان وايل ، وكان بالمَجلس كهلٌ جالـــس فـــى الحاشيَة ، وعند مواقف الحاشيَة ، فكـــان كلما شطّ القوم ، فى شوطهم ونثروا العجوةَ والنجوةَ من نوْطهـــم ، يُنبى تخازرُ طرفه ، وتشامخُ انفه ، انه مخْرَنبقٌ لينباع ، ومُجرمّزٌ سيهدّ الباعَ ، ونابـــضٌ يبـــري النبـــالَ ، ورابضٌ يـــبغـــى النضالَ ، فلما نثلـــت الكنـــا يـــنُ ، وفاءت السكا ين ، وركدت الرعازعُ وكفّ المنازعُ ، وسكنت الزماجر ، وصمت المزجور والزاجـــر ، اقبل على الجماعة وقال ، يا قوم لقـــد جيتم شيًا آدّا ، وجرتم عن القصـــد جدّا ، وعظّمتم العظامَ الرُفاتَ ، وافتتّم فى الميل الى مَن فات ، وغمصتـــم حيلكم الذين لكم فيهم اللداتُ ومعهـــم انعقدت المودات ، انْسيتم يا جهـــابذة النقدِ ، وموا بـــذة الحلّ والعقد ، ما ابرزته طوارفُ القرايح ، وبرز فيه الجذعُ على القارح ، من العبـــارات المهـــذبة ، والاستعارات المـــستعذبة والرسايل الموشّـــحـــة ، والاساجيع المستـــهلحة ، وهل للقدمـــآء اذا انعم النظرَ ، من حضـــر غيرُ المعـــانى المطـــروقة الموارد ، المعقـــولة الشـــوارد ، الماثورة عنهم لتقادم الموالد ، لا لتقدّم الصادر علـــى الوارد ، وانّى لاعرف الان

Digitized by Google

الانَ من اذا انشاء وشّا ، واذا عبّر حبّر واذا اوجز اعجز ، واذا اسهب اذهب ومتى اخترع خرع ، وان بَدَه شَدَه ، فقال له ناظورةُ الديوان ، وعين اوليك الاعيان ، مَن قارعُ هذه الصّفاة ، وقريع هذه الصّفات ، فقال انه قرن مجالك ، وقرينُ جدالك ، واذا شيت فرْض نجيبا ، وادعُ مجيبا ، لتري عجيبا ، فقال له يا هذا انّ البغاث بارضنا لا يستنسر ، والتمييز عندنا بين الفضّة والقضّة مستيسرٌ ، وقلّ مَن استهدف للنضال ، فخلص من الداء العُضال ، او استثار نقع الامتحان ، فلم يقذَ بالامتهان فلا تعرّضْ عرضك للفاضح ، ولاتُعرض عن نصيحة الناصح ، فقال كل امرء اعرفُ بوسْم قِدحه ، وسيتفرّي الليلُ عن صُبحه ، فتناجتْ الجماعة في ما يُسبَر به قليبُه ، ويُعمل فيه تقليبُه ، فقال احدُهم ذروه في حصّتي ، لارميه بحجر قصّتي ، فانها عُضلةُ العُقد ومحكُّ المنتقد ، فقلّدوه في هذا الامر الزعامةَ ، تقليدَ الخوارج ابا نعامة ، فاقبل على الكهل وقال ، اعلم انى اُوالى هذا الوالى ، وارقّح حالى بالبيان الحالى ، وكنت استعين على تقويم أَوَدي ، في بلدي ، بسعة ذات يدي ، مع قلّة عَددي ، فلما ثقُل حاذي ، ونفد رذاذي ، امّنه من ارجاي ، برجاي ، ودعوته لاعادة رُواي وارواي ، فهشّ للوفادة وارتاح ، وغدا بالافادة وراح ، فلما استاذنته في المراح الى المُراح ، على كاهل المراح ، قال قد ازعمتُ ان لا ازودك بَتاتا ولا اجهز لك شتاتا ، او تُنشى امامَ ارتحالك ، رسالةً تودعها شرحَ حالك ، حروفُ احدي كلمتيها يعمها النقطُ ، وحروفُ الاخري لم يعجَمْن قط ، وقد استانيتُ بياني حوْلا ، فما احار قولا ونبّهت فكري سنة ، فما ازداد الّا سِنة ، واستعنت بقاطبة الكتّاب ، فكل منهم قطّب

وتاب

وتاب ، فان كنتَ صدعت عن وصفك باليقين فاتِ باية ان كنتَ من الصادقين ، فقال له لقد استسعيت يا هذا يُعْبوبا ، واستسقيت أسكوبا ، واعطيت القوس باريَها ، وانزلت الدار بانيها ، ثم فكر ريثما استجمّ قريحتَه ، واستدرّ لقحتَه ، وقال له الِقْ دواتَك ، وخذ اداتَك ، واكتب ، الكرمُ ثبت الله جيشَ سعودك يزين ، واللوم غضّ الدهرُ جفنَ حسودِك يشين ، والاروعُ يُثيب ، والمعور يُخيب ، والحُلا حل يُضيق ، والماحل يُخيف ، والسمح يُغذي ، والمحكُ يُقذي والعطآء يُنجي ، والمطال يشجي ، والدُعاء يُقي ، والمدح ينقي ، والحُرّ يجزي ، والالطاط يخزي واطراح ذي الحُرمة غيٌّ ، ومَحرمةُ بنى الامال بغْي ، وما ضنَّ الا غبينٌ ، ولا غبن الا ضنين ، ولا خزن الّا شقيّ ، ولا قبض راحه تقيّ ، وما فتئَ وعدُك يَفي ، واراؤك تَشفي ،وهلالك يضي وحلمك يُغضي ، والأوك تغني ، واعداؤك تُثني ، وسُودَدك يبني ، وحُسامك يُفني ، ومُواصلك يجتني ، ومادحك يقتني ، وسُماوك تَغيث ، وسماحك يُغيث ، ودرّك يَفيض ، وردّك يَغيض ، ومُؤمّلك شيخٌ حكاه فتىً ولم يبقَ له شئٌ ، امّلك بظنّ حرْمه يثِب ، ومدحك بُنخبٍ مهورُها تجب ، ومَرامُه يخفّ ، واواصرُه تشقّ ، واطراؤه يُجتذبُ ، وملامه يجتنب ، ووراه ضفَفٌ ، مسَّهم شظَفٌ ، وحصّهم جنف وعمهم قشف ، وهو في دمع يُجيب وولَهٍ يُذيب ، وهمّ تضيّق وكمد نيّق ، لمامول خيَّب ، واهمال شيّب ، وعدوّ نيّب ، وهدو تغيّب ، ولم يزغ ودُّه فيُغضَب ولاخبُث عوده فيُقضَب ، ولا نفث صدرُه فيُنفَض ، ولا نشز وصلُه فيُبغَض ، وما يقتضي كرمُك نبذَ حرمه ، فبيّضْ املَه ، بتخفيق المه ، ينُثّ حمدَك بين عالَمه ، بقيت

لإماطة

لإماطة شجبٍ ، واعطا نشبٍ ، ومُداواة شجـــن ، ومُراعـاة يفن ، موصـــولا بخَفضٍ ، وسرور غضّ ، ما غُشـى معهـدُ غنىّ ، او خُشـى وهُم غبـــى والسلام ، فلما فرغ من املا رسالته ، وجلّى فى هيجآ البلاغة عن بسالتـــه ارضتْه الجماعةُ فعلا وقولا ، واوْســعتْــه حفـاوةً وطولا ، ثم سُئـل من اي الشعوب نجارُه وفى اي الشعاب وجارُه ، فقال ،

غسّان اُسـرتى الصهـيـبة وسروج تُرد تى القـديـبة
فا لبيـتُ مثلُ الشمس اشـــرافا ومنـــزلةً جـسيـبة
والربع كـالفردوس مطيَبـــةً ومَـنـــزهـةً وقـيـبة
ولهًا لعيـش كـــان لى فيها ولّذات عـهـيـنه
ايامَ اسحَـبُ مطـــرفى فى روضها ماضـى العزيمه
اختـالُ فى بُرد الـشـبـا ـــب واجتلى النِعمَ الوسيمة
لا اتّـقـى نُوَبَ الزمـــا ـــن ولا حوادثَه المـليمه
فلـوانّ كـربًا مُتـلـفُ لتلفتْ مـن كربى المقيمه
اويُفتدَي عيشٌ مضـى لفدتْه مُهجتى الكريمه
فـالموتُ خيرٌ للفـتـى من عيشه عيشَ البهيمه
تقـتـادُه برةُ الصِـغـار الى العاظمة والهضـيمة
ويري السباعَ تنوشـهـا ايدي الضباع المستضيمه
والذنْبُ لـلايـام لـولا شومُها لم تنبُ شـيمه
ولو اسـتقامـت كانت الـاحوالُ فيها مستقيمه

ثم ان خبـرة نما الى الـوالى ، فمـلا فاه باللّؤ لى ، وسامه ان ينـضوي الى احشائه ، ويلى ديوانَ انشائه ، فاحسـبَه الحِبآ ، وظلـفه عـن الولايـة الاباء

Digitized by Google

الاباء ، قال الراوي وكنت عرفت عودَ شجرتهِ ، قبل ايناع ثمرته ، وكدت انبّه على قدره ، قبل استنارة بدرهِ ، فاوحى الىّ بايماض جفنه ، ان لا اجرّد عضبه من جفنه ، فلما خرج بطيبن الخرج ، وفصل فايزا بالفلج ، شيّعتُه قاضيًا حقّ الرعايةِ ، ولاحيًا له على رفض الولاية ، فاعرض متبسّمًا ، وانشد مترنّمًا *

لجوبُ البلادِ مع المتربة ... احبُّ الىّ من المرتبه
لانّ الولاة لهم نبوةٌ ... ومعتبةٌ يا لها معتبه
وما فيهم من يربّ الصنيعَ ... ولا من يشيّد ما رتّبه
فلا يخدعنّك لموعُ السرا ... بِ ولا تلتِ امرًا اذا ما اشتبه
فكم حالمٍ سرّه حلمُه ... وادركه الروْعُ لمّا انتبه

المقامة السابعة البرقعيدية

حكى الحارث بن همام قال ، ازمعت الشخوصَ من برقعيدَ ، وقد شبّت برقَ عيدٍ ، فكرهت الرحْلةَ عن تلك المدينة ، او أشهدُ بها يومَ الزينة ، فلما اظلّ العيدُ بفرْضه ونفْله ، واجلب بخيله ورجْله ، اتّبعت السُّنّةَ في لبس الجديدِ ، وبرزت مع من برز للتعييد ، وحين التأم جمعُ المصلّى وانتظم ، واخذ الزحامُ بالكظم ، طلع شيخٌ في شملتين ، محجوب المُقلتين ، وقد اعتضد شبْهَ المخلاة ، واستقاد لعجوز كالسعلاة ، فوقف وقفةَ متسهافتٍ ، وحيّى تحيّةَ خافتٍ ، فلما فرغ من دُعايه ، اجال خسه

خمسه في وعائه ، فابرز منه رقاعًا قد كتبن بالوان الاصباغ ، في اوان الفراغ ، فناولهن عجوزة الحيزبون ، وامرها بان تتوسم الزبون ، فمن انست ندي يديه القت ورقة منهن لديه قال فاتاح لي القدر المكتوب . رقعة فيها مكتوب *

لقد اصبحت موقوذًا بالوجاع واوجال
ومهنوًا بهختال ومختال ومفتال
وخوّانٍ من الاخوان قالٍ لي اقلالي
واعمالٍ من العمّال في تضليع آمالي
فكم اصلى بآ ذحالٍ واسحالٍ وترحالِ
وكم اخطر في بالٍ ولا اخطر في بالِ
فليت الدهر لما جار أطفا لي لطفالي
فلولا ان اشبالي اغلالي واعلالي
لما جهّرت امالي الى آل ولا والي
ولا جرّرت اذيالي على مسحب اذلالي
فهل لي احري بي واسما لي اسمى لي
فهل حُرّ يري تخفيف اثقالي بثقالِ
ويُطفي حرّ بلبالي بسروالٍ وسربالِ

قال الحارث بن همام ، فلما استعرضت جُلّة الابيات ، تقتُ الى معرفة ملحمها ، وراقم علمها ، فناجاني الفكر بان الوصلة اليه العجوز ، واقتاني بان خلوان المعرف يجوز ، فرصدتها وهي تستقري الصفوف صفًا صفًا ، وتستوكف الاكفّ كفًا كفًا ، وما ان ينجح لها عناء ، ولا يرشح على

على يدها اناءٍ ، فلما اكدي استعطافُها ، وكدّها مطافُها ، عادت بالاسترجاع ومالت الى ارتجاع الرقاع ، وانساها الشيطانُ ذكرَ رقعتي ، فلم تعُج الى بُقعتي ، وآبتْ الى الشيخ باكيةً للحرمان ، شاكيةً تحامُل الزمان ، فقال انّا لله ، وافوّض امري الى الله ، ولا حول ولا قوة الا بالله ،

لم يبقَ صافٍ ولا مُصافي ولا مَعينٌ ولا مُعين
وفي المساوي بدا التساوي فلا امينٌ ولا ثمين

ثم قال مَنّي النفسَ وعديها ، واجمعي الرقاع وعَدّيها ، فقالت لقد عددتُها ، لما استعددتها ، فوجدت يدَ الضياع ، قد غالت احدي الرقاع ، فقال تعسًا لكِ يا لكاع ، انحرَم وبحَدّ القنصَ والحبالة ، والقبسَ والذبالة ، انها لَضِغثٌ على إبالة ، فانصاعتْ تقتصّ مدرجها ، وتنشد مُدرجها ، فلما دانتني قرنتُ بالرُقعة ، درهًا وقطيعةً ، وقلت لها ان رغبت في المشوفِ المُعلَم ، واشرتُ الى الدرهم ، فبوحي بالسرّ المبهَم وان ابيتِ ان تشرحي ، فخُذي القطعةَ واسرحي ، فمالت الى استخلاص البدْرِ التمّ ، والابلجِ الهِمّ ، وقالت دع جدالكَ ، وسل عما بدا لكَ ، فاستطلعتُها طلعَ الشيخ وبلدته ، والشعر وناسج بُردته ، فقالت انّ الشيخ من اهل سَروج ، وانه الذي وشّى الشعرَ المسنوج ، ثم خطفت الدرهمَ خطفةَ الباشق ، ومرقت مروقَ السهمِ الراشق ، فخالج قلبي ان ابا زيد هو المشار اليه ، وتاجّج كربي لمُصابه بناظريه ، واثرتُ ان افاجيَه واناجيه ، لاعجم عودَ فراستي فيه ، وما كنتُ لاصِل اليه الا بتخطّي رقابَ الجمع ، المنهي عنه في الشرع ، وعفت ان يتاذّى بي قومٌ ، او يسري الىّ لومٌ ، فسدكت بمكاني ، وجعلت شخصَه قيدَ عيا

عِيانى ، الى ان انقضت الخُطبةُ ، وحقت الوثبةُ ، فخففتُ اليه ، وتوسّمته على التحام جفْنيه ، فاذا المُعيَّتى المعيَّةُ ابْن عبّاس ، وفراستى فراسة إياس فعرَّفتُه حينيذٍ شخصى ، واثرتُه باحدي قُمْصى ، واهبتُ به الى قرصى ، فهشّ لعارفتى وعرفانى ، ولبّى دعوةَ رُغفانى ، وانطلق ويدي زِمامُه ، وظِلّى امامه ، والعجوز ثالثةُ الاثافى ، والرقيب الذي لا يخفى عليه خافى ، فلما استحلس وُكنتى ، واحضرتُه عُجالةَ مُكنتى ، قال يا حارثُ ، امعنا ثالثٌ ، قلت ليس الا العجوز ، فقال ما دونها سرٌّ محجوز ، ثم فتح كريهتيه ، ورارأً بتوْأمتية ، فاذا سِراجا وجهه يقِدان ، كانهما الفُرقدان ، فابتهجتُ بسلامة بَصرِه ، وعجبت من غرائب سِيَرِه فى سفره ، ولم يُلقنى قِرارٌ ، ولا طاوعنى اصطبارٌ ، حتى سالته ما دعاك الى التعامى ، مع سيْرك فى المعامى ، وجوْبك الموامى ، وايغالك فى المرامى ، فتظاهر باللكنة ، وتشاغل باللُهنة ، حتى اذا قضى وطَرَه ، اثأر الىَّ نظَرَه وانشد *

ولما تعامى الدهرُ وهو ابو الورى ... عن الرُشد فى انحائِهِ ومقاصده
تعاميتُ حتى قيل انى اخو عمى ... ولا غرْوَ ان يحذو الفتى حذوَ والده

ثم قال انهَضْ الى المخدع ، فاننى بغسول بروق الطرْف ، وبنقى الكف ، وبنعم البشرة ، وبعطّر النكهة ، وبشدّ اللثة ، وبقوّي المعدة وليكنْ نظيفَ الظرف ، اريجَ العَرف ، فتىَّ الدقّ ، ناعمَ السحق ، يحسبه اللامسُ ذَرورا ، ويخاله الناشقُ كافورا ، واقرنْ به خلالة نقية الاصل ، محبوبةَ الوصل ، انيقةَ الشكل ، مدعاةً الى الاكل لها لحافة الصبّ ، وصقالُ العضْب وآلةُ الحرب ، ولدونةُ الغُصن الرطب قال

فنهضت

Digitized by Google

فنهضتُ فيها امر ، لادْرَأ عنه الضَرَر ، ولم اهمْ انه قصد ان يخدع بادخالي المخدع ، ولا تظنّيتُ انه سخر من الرسول ، في استدعآء الخلالة والغسول ، فلما عُدتُ بالملتمس ، في اقرب من رجع النفَس ، وجدت الجوَّ قد خلا ، والشيخَ والشيخةَ قد اجفلا ، فاستشطتُ من مكره غضبا ، واوغلت في اثره طلَبا ، فكان كمن قُبس في الماء ، او عُرج به الى عَنان السما ،

المقامة الثامنة المعرّيّة

اخبر الحارثُ بن همّام قال ، رايت من اعاجيب الزمان ، ان تقدّم خصمان ، الى قاضي معرّة النُعمان ، احدُهما قد ذهب منه الاطيبان ، والاخر كانّ قضيبُ البان ، فقال الشيخ إيّد الله القاضي ، كما أيّد به المتقاضي انه كانت لي مملوكةٌ رشيقةُ القدّ ، اسيلةُ الخدّ ، صبورٌ على الكدّ ، تخبّ احيانًا كالنهْد ، وترقُد اطوارًا في المهد ، وتجد في تهوّز مسّ البرد ، ذاتُ عقلٍ وعِنان ، وحدّ وسِنان ، وكفّ وبنان ، وفم بلا اسنان ، تلدغ بلسان نضناض ، وترفل في ذيل فضفاض ، وتُجلَى في سواد وبياض ، وتُسقَى ولكن من غير حياض ، ناصعةٌ حُدَعة ، خُبَأةٌ طُلَعَة ، مطبوعةٌ على المنفعة ، ومطواعةٌ في الضيق والسعة ، اذا قطعتَ وصلتْ ، ومتى فصلتَها عند انفصلتْ وطالما خدمتك فجمّلت ، ولربما جنت عليك فالمّت وململت ، وانّ هذا الفتى استخدمنيها لغرض ، فاخذتُه اياها بلا عوض ، على ان يجتني نفعَها ، ولا يكلّفها الّا وُسعَها ، فاولج فيها متاعَه ، واطال بها استمتاعَه ، ثم اعادها وقد افضاها ، وبذل

عنها

عنها قيمةً لا ارضاها ، فقال الحدثُ اما الشيخُ فاصدقُ من القطآ ، واما الافضاء ففرط عن خطاء ، وقد رهنتهُ ، على ارْش ما اوهنتُه ، مهلونا لى متناسب الطَرفين ، منتسبا الى القيْن ، نقيًّا من الدرَن والشيْن يقارن محلُّه سوادَ العين ، يُفشى الاحسانَ ، ويُنشى الاستحسانَ ، ويُغذي الانسانَ ، ويتحامَى اللسانَ ، ان سُوّد جَادَ ، وان وسم اجاد واذا زُوّد وهب الزادَ ومتى استُزيد زاد لا يستقرّ بهغنى وقلّما ينكح الّا مثنى يسخو بموجوده ، ويسمو عنده جُوده ، وينقاد مع قرينته ، وان لم تكن من طينته ويُستهتَع بزينته ، وان لم يُطمَع فى لينته ، فقال لهما القاضى امَّا ان تُبينا ، والا فبينا ، فاحجم الشيخُ واستقال ، وابتدر الغلام وقال ،

اعارنى ابرةً لارفُوَ اطماراً ... عفا ها البلَى وسوّدها
فانخرمت فى يدي على خطآ ... منسى لما جذبتُ مقسودَها
فلم يرَ الشيخُ ان يسامحنى ... بما رْشها الا رآي تاوّدها
بل قال هاتِ ابرةً تماثلها ... او قيمةً بعد ان تجوّدها
واعتاق ميلسى رهنًا لديه ... وناهيك بها سُبّةً تزوّدها
فالعينُ مرْهَى لرهْنه ويدي ... تقصر عن ان تفُكّ مروَها
فاسبُر بذا الشرح غوْر مسكنتى ... وارْثِ لمن لم يكسن تعوّدها

فاقبل القاضى على الشيخ وقال ايه ، بغير تهويد ، فقال *

اُقسم بالمشعر الحرام ومَن ... ضمّ من الناسكين خيْفُ منا
لو سلحفتنى الايام لم ترنى ... مرتهنًا ميلَه الذي رهنا
ولا تصدّيت ابتغى بدلًا ... من ابرةٍ غالها ولا ثمنا

لكن

لكن قوس الخطوب ترشقني بصميات من ها هنا وهنا
وخبر حالي كخبر حالته بؤسا وضرا وغربة وضنا
قد عدل الدهر بيننا فانا نظيره في الشقا وهو انا
لا هو يستطيع فك مروده لما غدا في يدي مرتهنا
ولا مجال لضيق ذات يدي فيه اتساع للعفو حين جنا
فهذه قصتي وقصته فانظر الينا وبيننا ولنا

فلما وعى القاضي قضيتهما، وتبيّن خصاصتهما وتحصّصهما، ابرز لهما دينارًا من تحت مُصلّاه، وقال اقطعا به الخصام وافصلاه، فتلقفه الشيخ دون الحدث، واستخلصه على وجه الجدّ لا العبث، وقال للحدث نصفه لي بسهم مبرّتي، وسهمك لي عن ارش ابرتي، ولستُ عن الحقّ اميل، فقم وخذ الميل، فعرا الحدثَ لما حدث اكتيابٌ، وجم له قلبُ القاضي، وهيّج اسفه على الدينار الماضي، الّا انه جبر بالَ الفتى وبلبالَه، بذريهات رضخ بها له، وقال لهما اجتنبا المعاملات، وادرءا المخاصمات، ولا تحضرا لي في المحاكمات، فما عندي كيسُ الغرامات، فنهضا من عنده، فرحين برفده، مُفصحين بحمده، والقاضي ما يخبو ضجرُه، مذ بضّ حجرُه، ولا ينصل كهلُه، مذ رشح جلهُه، حتى اذا افاق من غشيته، اقبل على عاشيته، وقال قد اشرب حِسّي، ونبّا لي حدسي، انهما صاحبا دهآء، لا خصما ادّعآء، فكيف السبيل الى سبرهما، واستنباط سرّهما، فقال له نحريرُ زمرته، وشرارةُ جمرته انه لن يتم استخراج خبآهما، الا بهما، فقفّاهما عوْنا يرجعهما اليه، فلما مثلا بين يديه، قال لهما اصدُقا لي سنّ بكركما، ولكما

Digitized by Google

ولكما الامانُ من تبعة مكركما ، فاحجم الحدثُ واستقال ، واقدم الشيخُ وقال *

انا السروجي وهذا ولدي ... والشِبل في المَخبر مثلُ الاسدِ
وما تعدّتْ يده ولا يدي ... في ابرة يومًا ولا في مرود
وانّما الدهرُ المُسيءُ المعتدي ... مال بنا حتى عدوْنا نجتدي
كلّ ندي الراحةِ عذبِ المورد ... وكلّ جعد الكفّ مغلول اليد
بكلّ فنٍّ وبكل مقصدِ ... بالجِدّ ان اجدي والّا بالندِ
لنجلب الرشحَ الى الحظّ الصدي ... ونُنفد العمرَ بعيش انكد
والموت من بعدُ لنا بالمَرصد ... ان لم يفاجِ اليومَ فاجي في غد

فقال له القاضي لله درك فما اعذب نفثات فيك ، وواهًا لك لولا خداعٌ فيك ، واني لك من المنذرين ، وعليك من الحذرين ، فلا تباكر بعدها الحاكمين ، واتّقِ سطوةَ المتحكمين ، فما كلُّ مُسَيْطر يُقيل ، ولا كلّ اوان يُسمَح القيلُ ، فعاهده الشيخُ على اتّباع مشورته ، والارتداع من تلبيس صورته ، وفصل عن حهته والختْر يلمع من جبهته ، قال الحارث بن همام ، فلم ارَ اعجب منها في تصاريف الاسفار ، ولا قرأت مثلَها في تصانيف الاسفار *

فلما

المقامة التاسعة الاسكندرية

قال الحارث بن همام ، طحا بى مرحُ الشباب ، وهوي الاكتساب الى ان حُبتُ ما بين فرغانة وغانة ، اخوضُ الغمارَ ، لاجنى الثمار ، واقتحم الاخطارَ ، لكى أُدرك الاوطار ، وكنتُ لقفت من افواه العلماء ، وتثقفت من وصايا الحكماء ، انه يلزم الاريبَ ، اذا دخل البلد الغريب ، ان يستهيل قاضيَه ، ويستخلص مراضيه ، ليشتدّ ظهرُه عند الخصام ، ويامن فى الغُربة جورَ الحكام ، فاتخذتُ هذا الادب اماما ، وجعلته لمصا لحى زماما ، فما دخلت مدينة ، ولا ولجت عرينة ، الا وامتزجت بحاكمها امتزاجَ الماءَ بالرَّاح ، وتقوّيت بعنايته تقوّى الاجساد بالارواح ، فبينما انا عند حاكم الاسكندرية ، فى عشيّة عرّيّة ، وقد احضرَ مالَ الصدقات ، ليفُضَّه على ذوي الفاقات ، اذ دخل شيخ عفريَّة تعتله امرأةٌ مُصبية ، فقالت ايّد الله القاضى ، وادام به التراضى ، انى امرأةٌ من اكرم جُرثومة ، واطهر ارومة ، واشرف خوَلة وعمومة ، ميسمى الصونُ ، وشيمتى الهون ، وخُلقى نعمَ العونُ ، وبينى وبين جاراتى بونٌ ، وكان ابى اذا خطبنى بُنَاةُ المجد ، وارباب الجدّ ، سكتهم وبكتهم ، وعاف وُصلتَهم ، واحتجّ بانه عاهد الله تعالى بحلفةٍ ، ان لا يصاهر غير ذي حرفة ، فقيض القدَرُ لنصبى ووصبى ، ان حضر هذا الخُدَعةُ نادي ابى ، فاقسم بين رهطه ، انه وفقُ شرطه وادّعى انه طالما نظم دُرَّةً الى درة ، فباعها ببدْرة ، فاغترّ ابى بزخرفة مُحاله ، وزوّجنيه قبل اختبار حاله فلما استخرجنى من كناسى ورحّلنى عن اناسى

Digitized by Google

اناسى ، ونقلنى الى يسره ، وحصّلنى تحت اسْره وجدته قعْدة جُثمة ، والفيته ضُجعة نومة وكنتُ صحبته برياش وزيّ ، واثاث وريّ فما برح يبيعه فى سوق الهضم ، ويُتلف ثمنَه فى الخضم والقضم ، الى ان مزّق ما لى باسره ، وانفقه مالى فى عُسره فلما انسانى طعمَ الراحة ، وغادر بيتى انقى من الراحة ، قلتُ له يا هذا انه لا مَخْبأ بعد بوس ، ولا عطرَ بعد عروس ، فانهضْ للاكتساب بصناعتك ، واجتنى ثمرةَ براعتك ، فزعم ان صناعته قد رُميَت بالكساد ، لما ظهر فى الارض من الفساد ، ولى منه سلالة ، كانه خلالة ، وكلانا ما ينال معه شَبعةً ، ولا ترقاء له من الطوي دمعةٌ ، وقد قُدتُه اليك واحضرته لديك ، لتعجم عودَ دعواه ، وتحكم بيننا بما اراك الله ، فاقبل القاضى عليه وقال له ، قد وعيتَ قصصَ عرسك ، فبرهن عن نفسك ، والا كشفتُ عن لبسك ، وامرت بحبسك ، فاطرق اطراق الافعوان ، ثم شمر للحرب العوان ، وقال *

اسمعْ حديثى فانه عجبُ ... يُضحكُ من شرحه ويُنتحبُ
انا امرءٌ ليس فى خصايصه ... عيْبٌ ولا فى فخاره ريبُ
سروج داري الّتى ولدتْ بها ... والاصل غسّان حينَ انتسبُ
وشُغْلى الدرْس والتبحّر فى العلم طلابى وحبّذا الطلبُ
وراس مالى سحر الكلام الذي ... منه يُصاغ القريضُ والخطَبُ
اغوص فى لجة البيان فاختار اللالى منها وانتخبُ
واجتنى اليانعَ الجنىَّ من القول وغيري للعود محتطب
واخذ اللفظَ فضةً فاذا ... ما صُغتُه قيل انه ذهبُ

وكنت

وكنتُ من قبلُ امتري نشبًا ... بالادب المقتنى واحتلبُ
ويبتطى اخمصى لحرمته ... مرا تبًّا ليس فوقها رُتبُ
وطالما زُفّت الصّلاتُ الى ... ربعى فلم ارضَ كلّ من يهبُ
فاليومَ من يعلق الرجآء به ... اكسدُ شئٍ فى سوقه الادبُ
لا عرضُ ابنائه يصان ولا ... يُرقب فيهم الٌّ ولا نسبُ
كانهم فى عِراصهم جِيَفٌ ... يُبعد من نتْنها ويُجتنبُ
فحار لبّى لما مُنيتُ به ... من اليالى وصرفُها عجبُ
وضاق ذرْعى لضيق ذات يدي ... وساورتْنى الهمومُ والكربُ
وقادنى دهري المُليمُ الى ... سلوك ما يستشينه الحسبُ
فبغتُ حتى لم يبقَ لى سببٌ ... ولا بنانُ اليه انقلبُ
وادّنتُ حتى اثقلتُ سالفتى ... بحمل دَين من دونه العطبُ
ثم طويت الحشى على سغب ... خمسًا فلمّا امضّنى السغبُ
لم ارَ الا جهازها عرضا ... اجول فى بيعه واضطربُ
فجُلتُ فيه والنفس كارهة ... والعين عبري والقلب مكتئبُ
وما تجاوزت اذ عبثت به ... حدَّ التراضى فيحدُثَ الغضبُ
فان يكن غاظها توهّمها ... ان بنانى بالنظم تكتسبُ
او انّنى اذ عزمت خطبتَها ... زخرفتُ قولى لينجح الاربُ
فوالذي سارت الرفاق الى ... كعبته تستحثّها النُجُبُ
ما المكر بالمحصَنات من خُلقى ... ولا شعاري التمويه والكذبُ
ولا يدي مذ نشاتُ نيط بها ... الا مواضى اليراع والكتبُ
بل فكرتى تنظم القلايدَ لا ... كفّى وشعري المنظوم لا السُخبُ

وهذه

وهذه الحرفة المشار الى ما كنت احوي بها واجتلب
فأذنْ لشرحي كما أذنتَ لها ولا تراقب واحكمْ بما يجبْ

قال فلما احكم ما شادة ، واكمل انشاده عطف القاضي الى الفتاة ، بعد ان شُغِف بالابيات ، وقال اما انه قد ثبت عند جميع الحُكام ، وولاة الاحكام ، انقراضُ جيلِ الكرام ، وميلُ الايامِ الى اللئام ، وانى لاخالُ بعْلَك صَدوقًا في الكلام ، بريًا من الملام ، وهاهو قد اعترف لك بالقرض ، وصرّح عن المحْض ، وبيّن مصداقَ النظْم ، وتبيّن انه معروق العظْم ، واعنانُ المُعذر ملامةٌ ، وحبْس المُعسر مأثمة ، وكِتمانُ الفقر زهادة ، وانتظارُ الفرج بالصبر عبادة ، فارْجعي الى خِدرك ، واعذِري ابا عُذرك ، ونهْنهي عن غرْبك ، وسلّمي لقضاء ربك ، ثم انه فرض لها في الصدقات حِصّة ، وناولها من دراهمها قبضة ، وقال لها تعللا بهذه العُلالة ، وتندّيا بهذه البُلالة ، واصبرا على كيد الزمان وكِدّه ، فعسى اللهُ ان ياتي بالفتح او امر من عنده ، فنهضا وللشيخ فرحةُ المُطلق من الاسار ، وهزّةُ الموسِر بعد الاعسار ، قال الراوي وكنت عرفت انه ابو زيد ساعةَ بزغت شمسُه ، ونزغت عِرسُه ، وكِدتُ افصح عن افتنانه ، واثمار افنانه ، ثم اشفقت من عثور القاضي على بهتانه ، وتزويق لسانه ، فلا يرَي عند عِرفانه ، ان يرشّحه لاحسانه ، فاحجمت عن القول احجامَ المُرتاب ، وطويت ذِكرَه كطيّ السِجلّ للكتاب ، الّا انى قلت بعد ما فصل ، ووصل الى ما وصل ، لو ان لنا من ينطلق في اثره ، لاتانا بفصّ خبره ، وما ينشُر من حِبره فاتبعه القاضي احدَ امنائه ، وامره بالتجسّس على انبائه ، فما لبث ان رجع مُتدهْدها ، وقهقر مقهقها ، فقال

Digitized by Google

فقال له القاضي مَهْيَمْ ، يا ابا مُرَيم ، فقال لقد عاينتُ عجبا ، وسمعت ما انشا لي طربا ، فقال له ما ذا رايتَ ، وما الذي وعيت ، قال لم يزل الشيخ مذ خرج يصفّق بيديه ، ويخالق بين رجليه ، ويفرّد بهلْء شدقيه ويقول *

كِدتُ اصلَى ببلـيّة من وقاح شمّر يّنة
وازور السجْنَ لو لا حاكم الاسكندرية

فضحك القاضي حتى هوت دنيّتُه ، وذوت سكينتُه ، فلما فاءَ الى الوقار ، وعقّب الاستغرابَ بالاستغفار ، قال اللهُمَّ بحُرمة عبادك المقرّبين ، حرّمْ حبسي على المتادّبين ، ثم قال لذلك الامين علَيَّ به ، فانطلق مجدًّا في طلبه ، ثم عاد بعد لأيه ، مخبرا بنأيه ، فقال القاضي اما انه لو حضر ، لَكُفِيَ الحذرَ ، ثم لَاوْليتُه ما هو به اولى ، ولَاَرَيْتُه انّ الاخرةَ خيرٌ له من الاولى ، قال الحارث بن همام ، فلمّا رايت صفوَ القاضي اليه ، وفوْتَ ثمرة التنبيهِ عليه ، غشِيَتْني ندامةُ الفَرَزْدق حينَ ابان النوَارَ او الكُسَعيّ لما استبان النهار *

المقامة العاشرة الرحبيّة

حكى الحارث بن همامٍ قال ، هتف بي داعي الشوْقِ ، الى رحبة مالك بن طوْق ، فلبّيتُه مبتطيًا شِمِلَّةً ، ومنتضيًا عزْمةً مشعِلَّةً ، فلما القيت بها المراسي ، وشددت امراسي ، برزت من الحمّام بعد سبْت راسي ، رايت

رايتُ غلاماً افرغ في قالب الجمال ، والبس من الحُسن حلّةَ الكمال ، وقد اعتلق شيخٌ بردنه ، يدّعي انه فتاه بابنه ، والغلام ينكر معرفتَه ويُكبر قرفته ، والخصام بينهما متطاير الشرار ، والزحام عليهما يجمع بين الاخيار والاشرار ، الى ان تراضيا بعد اشتطاط اللدد ، بالتنافر الى والى البلد ، وكان ممن يُزَنُّ بالهَنات ، ويغلّب حبَّ البنين على البنات ، فاسرعا الى نُدْوته ، كالسُليك في عدْوته ، فلما حضراه ، جدّد الشيخُ دعواه ، واستدعى عداه ، فاستنطق الغلامَ ، وقد فتنه بمحاسن غُرّته ، وطرَّ عقلَه بتصفيق طُرّته ، فقال انها افيكةٌ افّاكٍ ، على غير سفّاكٍ ، وعَضيهة مُحتال ، على من ليس بمغتالٍ ، فقال الوالي للشيخ ان شهد لك عدلان من المسلمين ، والاّ فاستوفِ منه اليمينَ ، فقال الشيخ انه جدّله خاسئيا ، واقاح دمَه خاليا ، فانّى لي شاهدٌ ، ولم يكن ثَمَّ مشاهد ، ولكن ولّني تلقينَه اليمينَ ، ليبين لك ايَصْدق ام يمين ، فقال له انت المالك لذلك ، مع وجْدك المتهالك ، على ابنك الهالك ، فقال الشيخ للغلام ، قُل والذي زيّنَ الجباهَ بالطرر ، والعيون بالحور ، والحواجبَ بالبلج ، والمبلسم بالفلج ، والجفون بالسقم ، والانوف بالشمم ، والخدود باللهَب والثغور بالشَنَب والبنان بالترف والخصور بالهَيَق انني ما قتلتُ ابنَك سهواً ولا عمداً ، ولاجعلت هامتَه لسيفي غِمداً ، والاّ فرمى الله جفني بالعمش ، وخدّي بالنمش ، وطُرّتي بالجلح ، وطلعي بالبلح ، ووردي بالبهار ، ومسْكتي بالبُخار ، وبدري بالمحاق ، وفضّتي بالاحتراق وشعاعي بالاظلام ، ودواتي بالاقلام ، فقال الغلام الاصطلاء بالبلية ، ولا الايلاء بهذه الاليّة ، والانقياد

والانقياد للقوَد ولا الحلِف بها لم يحلف به احد ، فابى الشيخ الَّا تجربةَ اليمين التى اخترعها وامقر له جُرَعها ، ولم يزل التلاحى بينهما يستعرُ ، ومحجّة التراضى تعِر ، والغلام فى ضمن تابّيه ، يخلب قلبَ الوالى بتلوّبه ، ويُطمِعه فى ان يلبّيه ، الى ان ران هواه على قلبه ، والبَّ بلبّه ، وسوَّل له الوجدُ الذي تيّمه ، والطمع الذي توهّمه ، ان يُخلِّص الغلامَ ويستخلصه ، وان يُنقذه من حبالة الشيخ ثم يقتنصه ، فقال للشيخ هل لك فيما هو اليَقُ بالاقوي ، واقرب للتقوي ، فقال إلامَ تشير لاقتفيه ، ولا اقق فيه ، قال اري ان تُقصر عن القيل والقال ، وتَقصر على مائة مثقال لاتحمّل منها بعضاً ، واجتنى لك الباقى عُرْضا ، فقال الشيخ ما منى خِلاف ، فلا يكن لوعْدك اِخلاف ، فنقده الوالى عشرين ، ووزّع على وزعته تكملةَ خمسين ، ورقّ ثوبُ الاصيل ، وانقطع لاجله صوبُ التحصيل ، فقال له خذ ما راج ، ودع اللجاجَ ، وعلىّ فى غدٍ ان اتوصّل ، الى ان ينضر لك الباقى ويتحصّل ، فقال الشيخ افعَلْ ذاك على ان الازمه ليلتى ، ويرعاه انسانُ مُقلتى ، حتى اذا اعفى بعد اسفار الصُبح ، بما بقى من مال الصُلح ، تخلّصتْ قايبةٌ من قوبٍ ، وبرِي برآةَ الذيب من دم ابن يعقوب ، فقال له الوالى ماراك سُمتَ شطَطا ، ولا رُمت فرطا ، قال الحارث بن همام ، فلما رايت حُجج الشيخ كالحجج السُرَيْجيّة ، علمت انه عَلَمُ السَروجيّة ، فلبثت الى ان زهرت نجومُ الظلام ، وانتثرت عقودُ الزحام ، ثم قصدت فِناءَ الوالى ، فاذا الشيخ للفتى كالى ، فنشدته الله اهو ابو زيد ، فقال اى ومُحلِّ الصيدِ ، فقلت من هذا الغلام الذي هفتْ له الاحلامُ ، فقال

Digitized by Google

فقال هو فى النسب فرخى ، وفى المكسب فخّى ، قلت فهذا اكتفيت بهاجس فِطرتهِ ، وكفيت الوالى الافتتانَ بطُرّته ، فقال لولم تُبرز جبهتُه السين ، لما تنفشت الخمسين ، ثم قال بتّ الليلةَ عندي لنطفى نارَ الجوي ، ونُديل الهوي من النوي ، فقد اجمعتُ على ان انسلّ بسُحرة ، وأُصلى قلبَ الوالى نارَ حسْرة ، قال فقضيت الليلة عنده فى سمر ، آنق من حديقة زهرٍ ، وخميلة شجر ، حتى اذا لالا الافقَ ذنبُ السرحان ، وآن انبلاجُ الفجر وحانَ ، ركب متن الطريق ، واذاق الوالى عذابَ الحريق ، وسلم الىّ ساعةَ الفراق ، رُقعةً مُحكمة الالصاق ، وقال ادفعها الى الوالى اذا سُلب القرارَ ، وتحقق منا الفرار ، ففضضتها فعلَ المتلمّس ، من مثل صحيفة المتلمس ، فاذا فيها مكتوب *

قل لوالٍ غادرتُه بعد بين ... نادمًا سا دمًا يعضّ اليدين
سلب الشيخُ ما لَه وفتاه ... لُبّه فاصطلى لظى حسرتين
جاد بالعين حين اعمى هواه ... عينَه فانثنى بلا عينين
خفّض الحزنَ يا معنّى فما يُجدي طلابُ الاثار من بعد عين
ولَئِن جلّ ما عراك كما جلّ ... لدي المسلمين رزءُ الحُسين
فقد اعتضتَ منه فهمًا وحزمًا ... واللبيبُ الاريب يبغى ذين
فاعصَ من بعدها المطامع واعلم ... ان صيد الظباء ليس بهين
لا ولا كلُّ طاير يلج الفخّ ... ولو كان مُحدقًا باللُجين
ولكم من سعَى ليصطاد فاصطيد ... ولم يلقَ غير خُفّى حُنين
فتبصّر ولا تشِمْ كلَّ برق ... رُبَّ برق فيه صواعقُ حين
واغضُضْ الطرفَ تسترح من غرام ... تكتسى فيه ثوبَ ذُلٍّ وشين

فبلاء

فبلاءُ الفتى اتّباعُ هوى النفس وبذرُ الهوى طموحُ العين
قال الراوي فمزّقتُ رُقعتَه شذر مذرَ ، ولم أبل اعذل ام عذر *

المقامة الحادية عشرة الساوية

حدّث الحارث بن همام قال ، انستُ من قلبي القساوةَ ، حين حللتُ ساوةَ ، فاخذت بالخبر الماثور ، في مداواتها بزيارة القبور ، فلما صرت الى محلّة الاموات ، وكفات الرُفات ، رايت حمقًا على قبر يُحفَر ، ومجنوز يقبر ، فانحزت اليهم مفكرا في المآل ، ومتذكرًا مَن درج من الآل ، فلما الحدوا الميتَ ، وفات قولُ ليتَ ، اشرف شيخٌ من رباوة ، متخصر بهراوة ، وقد لفّع وجهَه بردائه ، ونكّر شخصَه لدهايه ، وقال لمثل هذا فليعمل العاملون ، فاذّكروا ايها الغافلون ، وشمروا ايها المقصّرون ، واحسنوا النظر ايها المتبصّرون ، مالكم لا يحزنكم دفنُ الاتراب ، ولا يهولكم هيلُ التراب ، ولا تعبأون بنوازل الاحداث ، ولا تستعدّون لنزول الاجداث ، ولا تستعبرون لعين تدمع ، ولا تعتبرون بنعي يُسمَع ، ولا ترتاعون لإلف يُفقد ، ولا تلتاعون لمناحة تعقد يُشيّع احدكم نعشَ الميت ، وقلبُه تلقا البيت ، ويشهد مُواراةَ نسيبه ، وفكره في استخلاص نصيبه ، ويخلّي بين وَدوده ودُوده ، ثم يخلو بهزماره وعوده ، طالما اسيتم على انثلام الحبّة ، وتناسيتم اختزام الاحبّة ، واستكنتم لاعتراض العسرة ، واستهنتم بانقراض

الا

Digitized by Google

الأسرة ، وضحكتم عند الدفن ، ولا ضحككم ساعةَ الزفن ، وتَبَخْترتم خلف الجنايز ، ولا تبختُركم يوم قبض الجوايز ، واعرضتم عن تعديد النوادب ، الى اعداد المآدب ، وعن تحرُّق الثواكل ، الى التأنُّق فى المآكل ، لاتُبالون بهن هو بالٍ ، ولا تُخطرون ذكرَ الموت ببال ، حتى كانّكم قد علقتم من الحِمام بذمام ، او حصلتم من الزمان على امان ، او وثقتم بسلامة الذات ، او تحققتم مُسالمةَ هادم اللذّات ، كلاَّ ساء ما تتوهمون ، ثم كلاَّ سوف تعلمون ثم انشد *

ايا من يدّعى الفهمَ ، الى كم يا اخا الوهم
تعبّى الذنبَ والذمَ وتخطى الخطا الجمّ
اما بان لك العيب ، اما انذرك الشيب
وما فى نصحه ريب ، ولا سعدك قد صمّ
اما نادي بك الموتُ ، اما اسمعك الصوتَ
اما تخشى من الفوت ، فتحتاط وتهتمّ
فكم تسدر فى السهو ، وتختال فى الزهو
وتنصبّ الى اللهو ، كانّ الموتُ ماعمّ
وحتّام تجافيك ، وابطاء تلافيك
طباعًا جمعتْ فيك عيوبًا شملها انضمّ
اذا اسخطتَ مولاك ، فما تقلق من ذلك
وان اخفق مسعاك ، تلظيت من الهمّ
وان لاح لك ، النقش من الاصفر تهتشّ
وان مرّ بك النعش ، تغافلت ولا عمّ

تعاصم

تُعاصي الناصحَ البرَّ ، وتعتاص وتزورّ
وتنقاد لمن غرّ ، ومن مان ومن نمّ
وتسعَى في هوي النفس ، وتحتال على الفلس
وتنسَى ظُلمةَ الرمس ، ولا تذكر ما ثمّ
ولو لاحظك الحظُّ ، لما طاح بك اللحظُ
ولا كنت اذا الوعظ ، جلا الاحزان تغتمّ
ستُذري الدمَ لا الدمعَ ، اذا عاينت لاجمع
يقى في عرصة الجمع ، ولا خال ولا عمّ
كانّى بك تنحطّ ، الى اللحد وتنغطّ
وقد اسلمك الرهطُ ، الى اضيَق من سمّ
هُناك الجسم مهدود ، ليستاكله الدود
الى ان ينخر العود ، ويُمسي العظمُ قد رمّ
ومن بعد فلا بدّ ، من العرض اذا اعتد
صراطٌ جسره مُدّ ، على النار لمن امّ
فكم من مُرشد ضلّ ، ومن ذي عزّة ذلّ
وكم من عالم زلّ ، وقال الخطبُ قد طمّ
فبادر ايها الغُمر ، لما يحلو به المُرُّ
فقد كاد يهى العُمرْ ، وما اقلعت عن ذمّ
ولا تركنْ الى الدهر ، وان لان وان سرّ
فتُلفَى كمن اغترّ ، بافعى تنفث السمّ
وخفّض من تراقيك ، فان الموت لاقيك

وسار

وسارِ فى تراقيك ، وما ينكل ان همّ
وجانب صعر الخدّ ، اذا ساعدك الجدّ

وزُمّ اللفظ ان ندّ ، فما اسعد من زمّ
ونفّس عن اخى البثّ ، وصدّقه اذا نثّ
ورمّ العملَ الرثّ ، فقد افلح من رمّ
ورشّ من ريشه انحصّ ، بما عمّ وما خصّ
ولا تاسَ على النقص ، ولا تحرص على اللمّ
وعادِ الخلقَ الرذل ، وعوّد كفّك البذلَ
ولا تستهجْ العذلَ ، ونزّهها عن الضّمّ
وزوّد نفسك الخيرَ ، ودَع ما يُعقب الضيرَ
وهيّى مركبَ السير ، وخف من لجّة اليمّ
بذا اوصيت يا صاحِ ، وقد بُحتُ كهن باح
فطوبى لفتىً راح ، بادابى يأتمّ

ثم حسر رُدنَه عن ساعد شديد الاسر ، قد شدّ عليه جبائرَ المكر لا الكسر ، متعرضًا للاستماحة ، فى معرض الوقاحة ، فاختلب به اولياك الملا ، حتى اترع كمّه وملا ، ثم انحدر من الربوة ، جذلاً بالحبوة ، قال الراوي فجاذبته من ورائه ، حاشية ردائه ، فالتفت الىّ مستسلما ، وواجهنى مُسلّمًا ، فاذا هو شيخُنا ابو زيد ، بعينه وميْنه ، وزينه وشينه ، فقلت له الى كم يا ابا زيد ، افا نينُك فى الكيد لينحاش لك الصيدُ ، ولا تعبأ بمن ذمّ فاجاب من غير استحياء ، ولا ارتياء ، وقال ❋

تبصّر ودع اللومَ ، وقل لى هل ترى اليومَ فتىً لا يقهر القوم ، متى ما دسته تمّ

فقلت

فقلت له بُعدا لك يا شيخ النار ، وزاملة العار ، فما مثلك في طلاوة علانيتك ، وخبثة نيّتك ، الا مَثَلُ روث منفضّض ، او كنيف مُبيَّض ، ثم تفرّقنا فانطلقت ذات اليمين ، وانطلق ذات الشمال ، وناوحت مَهبَّ الجنوب ، وناوح مهب الشمال *

المقامة الثانية عشرة الدمشقية

حكى الحارث بن همام قال ، شخصت عن العراق الى الغوطة وانا ذو جُرْدٍ مربوطة ، وجدةٍ مغبوطة ، يُلهيني خُلوّ الذرع ، ويزدهيني حفولُ الضرْع ، فلما بلغتها بعد شِقّ النفس ، وانضاء العنس ، الفيْتُها كما تصِفها الالسُن ، وفيها ما تشتهي الانفسُ وتلَذّ الاعيُنُ ، فشكرت يد النوي ، وجربت طلقًا مع الهوي ، وطفقت افُضّ بها ختوم الشهوات واجتني قطوف اللذّات ، الى ان شرع سفرٌ في الاعراق وقد استفقت من الاغراق ، فعادني عيدٌ من تذكار الوطن ، والحنين الى العطن ، فقوضت خيام الغيبة ، واسرجت جواد الاوبة ، ولما تاهبت الرفاق ، واستبتّ الاتّفاق ، الحنا من المسير ، دون استصحاب الخفير ، فردناه من كل قبيلة ، واعملنا في تحصيله الف حيلة ، فاعوز وجدانه في الأحياء ، حتى خِلنا انه ليس من الأحياء ، فحارت لعوزة عزوم السيّارة ، وانتدوا بباب جيرون للاستشارة ، فما زالوا بين عقدٍ وحل ، وشزر وسحْل ، الى ان نفِد التناجي ، وقنِط الراجي ، وكان حِذتَهم شخصٌ ميسَمُه ميسَمُ الشبّان ، ولبوسُه لبوس الرهبان ، وبيده سُبْحة

Digitized by Google

سُبْحة النسوان وفى عينه ترجمة النشوان ، وقد قيّد لحظَه بالجمع ، وارهق اذنه لاستراق السمع ، فلما أنى انكفاوهم ، وقد برح له خفاؤهم ، قال لهم يا قومِ ليفرج كربُكم ، وليامن سربُكم ، فساخفِركم بما يسرو روعَكم ، ويبدو طوعَكم ، قال الراوي فاستطلعنا منه طِلعَ الخفارة ، واسنينا له الجعالةَ عن السفارة ، فزعم انها كلمات لقّنَها فى المنام ، ليحترس بها من كيد الانام ، فجعل بعضنا يومض الى بعض ، ويقلب طرفيه بين لحظ وغض ، وتبيّن له اننا استضعفنا الخبر ، واستشعرنا الخَورَ ، فقال ما لكم اتّخذتم جِدّي عبثا ، وجعلتم تِبري خبثا ، ولطالما واللهِ جُبْتُ مخاوف الاقطار ، وولجت مقاحم الاخطار ، فغنيت بها عن مصاحبة خفير واستصحاب جفير ، ثم انى سانفى ما رابكم واستسلّ الحذرَ الذي نابكم ، بان أُوافقكم فى البداوة ، وارافقكم فى السماوة ، فان صَدَقكم وعدي ، فاجدّوا سعدي ، واسعدوا جدّي ، وان كذبكم فهى ، فمزّقوا امى ، واريقوا دمى ، قال الحارث بن همام ، فألهمنا تصديقَ روياه ، وتحقيقَ ما رواه ، فنزعنا عن مجادلته ، واستمهمنا على معادلته ، وفصمنا بقوله عُرَى الريايث ، والفينا اتّقا العابث والعائث ، ولما عُكمت الرحالُ ، وازف الترحال ، استنزلنا كلماتة الراقية لنجعلها الواقيةَ الباقية ، فقال ليقرا كل منكم أمَّ القران ، كلما اظلّ الملوان ، ثم ليَقُل بلسان خاضع ، وصوت خاشع ، اللهمَّ يا محيى الرُفات ويا دافع الافات ، ويا واقى المخافات ، ويا كريم المكافاة ويا موئل العُفاة ، ويا ولى العفو والمعافاة صلّى على محمّد خاتم انبيائك ، ومبلّغ انبائك ، وعلى مصابيح اسرتة

اسرتة ، ومفاتيح نصرته ، واعذني من نزعات الشياطين ، ونزوات السلاطين ، واعنات الباغين ، ومُعاناة الطاغين ومعاداة العادين وعُدوان المعادين ، وغلب الغالبين ، وسلب السالبين ، وحيَل المحتالين ، وغيَل المفتالين ، واجرني اللهُمَّ من جور المجاورين ، ومجاورة الجايرين ، وكفّ عني اكفّ الضايمين ، واخرجني من ظلمات الظالمين ، وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين ، اللهمَّ حُطّني في تُربتي وغُربتي ، واوبتي وغيبتي ، ورُجعتي ونُجعتي ، وتصرّفي ومُنصرَفي ، وتقلّبي ومنقلبي ، واحفظني في نفسي ونفايسي ، وعِرْضي وعَرَضي ، وعَدَدي وعُدَدي ، وسكني ومسكني ، وحولي وحالي ، ومآلي ومالي ، ولا تُلحِق بي تغييرا ، ولا تُسلّط عليَّ مُغيرا ، واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا ، اللهمَّ احرسني بعينك وعونك ، واخصصني بامنك ومنّك ، وتولّني باختارك وخيرك ، ولا تكلني الى كلأة غيرك ، وهب لي عافيةً غير عافية ، وارزقني رفاهية غير واهية ، واكفِني مخاشي اللأواء ، واكنُفني بغواشي الالاء ، ولا تُظفِر بي اظفار الاعداء ، انك سميع الدعاء ، ثم اطرق لا يدير لحظًا ، ولا يُحير لفظًا ، حتى قُلنا قد ابلسته خشية ، او اخرسته غشية ، ثم اقنع راسه وصعّد انفاسه ، وقال اُقسم بالسها ذات الابراج ، والارض ذات الفجاج ، والماء الثجاج ، والسراج الوهّاج ، والبحر العجّاج ، والهوا والعجاج انها لمن ايمن العُوذ ، واغنى عنكم من لابسي الخُوذ ، من درسها عند ابتسام الفلق ، لم يُشفِق من خطب الى الشفق ،

Digitized by Google

الشفق ، ومن ناجى بها عند طليعة الفسق ، آمن ليلته من السرق ، قال الراوي ، فتلقّفناها حتى اتقنّاها ، وتدارسناها لكى لا ننساها ، ثم سرنا نُزجى الحمولات ، بالدعوات لا بالحُداة ، ونحمى الحُمولات ، بالكمات لا بالكُماة وصاحبُنا يتعهّدنا بالعشى والغداة ، ولا يستنجز منّا العدات ، حتى اذا عاينّا اطلال عانة ، قال لنا الاعانة الاعانة ، فاحضرناه المعلومَ والمكتوم واريناه المعكومَ والمختوم ، وقلنا له اقصر ما انت قاض ، فما تجد فينا غيرَ راض ، فما استخفّه سوي الخِفّ الزين ، ولا حلى بعينه غيرُ العين ، فاحتمل منهما وقرَه ، ونآ بما يسدّ فقرَه ، ثم خالسَنا مخالسةَ الطرّار ، وانصلت منا انصلات الفرار ، فاوحشَنا فراقُه ، وادهشَنا انمراقُه ، ولم نزلْ ننشُده بكل نادٍ ، ونستخبر عنه كل مغو وهاد ، الى ان قيل انه مذ دخل عانة ، ما زايل الحانة ، فاغرانى خُبثُ هذا القول بسبكه ، والانسلاك فيها لست من سلكه ، فادّلجت الى الدسكرة ، فى هيئة منكرة ، فاذا الشيخ فى حُلّة مصّرة ، بين دنان ومعصرة وحوله سُقاةٌ تمهر ، وشموعٌ تزهر ، وآس وعبهر ، ومزمارٌ ومزهر ، وهو تارةً يستبزل الدنان ، وطوراً يستنطق العيدان ، ودفعةً يستنشق الريحان ، وأخرى يغازل الغزلان ، فلما عثرت على لبسه ، وتفاوتُ يومه من امسه ، قلت له اولَى لك يا ملعون ، انسّيت يومَ جيرون ، فضحك مستغربا ، ثم انشد مطربا *

لزمتُ السفار وجبت القفار وعفت النفار لاجنى الفرح
وخضت السيول ورضت الخيول لجرّ ذيول الصبا والمرح
ومطت الوقارَ وبعت العقار لحسو العقار ورشف القدح

ولولا

ولولا الطماح الى شرب راح لما كان باح فهى بالملح
ولا كان ساق دهائى الرفاق لارض العراق بحملى السُبح
فلا تغضبنّ ولا تصخبن ولا تعتبن فعذري وضح
ولا تعجبن لشيخ ابنّ بهغنى اغنّ ودنّ طفح
فان المدام تقوّي العظام وتشفى السقام وتنفى الترح
واصفى السرور اذا ما الوَقورُ اماط ستور الحيا واطّرح
واحلى الغرام اذا المستهام ازال اكتتام الهوي وافتضح
فبُح بهواك وردّ حشاك فرندُ اساك به قد قدح
وداو الكلوم وسلّ الهموم ببنت الكروم التى تُقترح
وخصّ الغبوقَ بساق يسوق بلآء المشوق اذا ما طبح
وشادٍ يشيد بصوتٍ يهيد جبالَ الحديد له ان صلح
وعامر النصيحَ الذي لا يُبيح ومسالَ المليح اذا ما سمح
وجُل فى المجال ولو فى المحال ودع ما يقال وخذ ما صلح
وفارقَ اباك اذا ما اباك ومدّ الشباك وصد مَن سنح
وصاف الخليلَ ونافِ البخيلَ واول الجميل ووالِ المنح
ولذ بالمتاب امام الذهاب فمن دقّ باب كريم فتح

فقلت له بخٍ بخٍ لروايتك ، وأفٍّ وتفٍّ لغوايتك فبالله من اىّ الاعيام عيصك ، فقد اعضلنى عويصك ، فقال ما احبّ ان افصح عنى ، ولكنى ساكنى *

انا اطروفة الزمان واعجوبة الامم
وانا الحُوَّلُ الذى احتال فى العُرب والعجم
غير انى ابن حلجة ها ضه الدهر واهتضم

وابو

وابعو صبيّة بدوا مثل لحم على وضم
واخو العيلة المعيل اذا احتال لم يُلَم

قال الراوي فعرفت حينئذٍ انه ابو زيد ذو الريب والعيب ، ومُسوّد وجه الشيب ، وساءني عُظم تهرّده ، وقُبح تورّده ، فقلت له بلسان الانفة ، وادلال المعرفة ، الم يأن لك يا شيخنا ، ان تُقلع عن الخنا ، فتضجّر وزمجر ، وتنكر وفكر ، ثم قال انها ليلة مراح ، لا تلاح ، ونهزة شرب راح ، لا كفاح ، فعدّ عما بدا ، الى ان نتلاقى غدا ، ففارقته فرقًا من عربدته ، لا تعلقًا بعدته ، وبتُّ ليلتي لابسًا جداد الندم ، على نقل خُطا القدم ، الى ابنة الكَرْم لا الكَرَم ، وعاهدت اللهَ تعالى سبحانه الّا احضر بعدها حانة نبّاد ، ولو اعطيت مُلك بغداد ، والّا اشهد معصرة الشراب ، ولو رُدّ عليّ عصر الشباب ، ثم اننا رحّلنا العيس ، وقت التغليس ، وخلّينا بين الشيخين ، ابي زيد وابليس *

المقامة الثالثة عشرة البغدادية

روي الحارث بن همام قال ، غدوت بضواحي الزوراء ، مع مشيخة من الشعراء ، لا يعلق لهم مبار بغبار ، ولا يجري معهم مهار في مضمار ، فافضنا في حديث يقضّح الازهار ، الى ان نصفنا النهار ، فها غاض دُرّ الافكار ، وصبت النفوس الى الاوكار ، لمحنا عجوزًا تقبل من البعد ، وتُحضر

Digitized by Google

وتُحضر احضارَ الجرد ، وقد استتلتْ صبيةً انحقَ من المغازل ، واضعف من الجوازل ، فما كذبت اذ رأتنا ان عرّتنا حتى اذا ما حضرتنا قالت ، حيَّ اللهُ المعارفَ ، وان لم يكن معارف اعلموا يا مآل الأمل ، وثمال الارامل ، انى من سروات القبائل ، وسريّات العقائل ، لم يزل اهلى وبعلى يحلّون الصدرَ ، ويسيرون القلب ، ويُبطون الظهرَ ، ويولون اليدَ ، فلمّا ارمى الدهرُ الاعضادَ ، وفجع بالجوارح الاكبادَ ، وانقلب ظهرًا لبطن ، نبا الناظرُ وجفا الحاجب ، وذهبت العين ، وفقدت الراحة ، وصلد الزند ، ووهت اليمين ، وبانت المرافق ، ولم يبقَ لنا ثنيّةٌ ولانابٌ ، فمذ اغبرّ العيش الاخضرُ ، وازورّ المحبوب الاصفر ، اسودّ يومى الابيض ، وابيضّ فوديّ الاسود ، حتى رثى لى العدوّ الازرق ، فحبّذا الموت الاحمر ، وتلوي من ترون عينه فراره ، وترجمانه اصفراره ، فصوّتي بغيّة احدهم ثُرمة ، وقصاري مُنْيته بُرمة ، وكنتُ آليتُ الّا أبذل الحرّ ، الّا للحرّ ، ولو انّى مُتُّ من الضرّ ، وقد ناجتنى القرونة ، بان تُوجد عندكم المعونةُ ، وآذنتنى فراسة الحوباء ، بانكم ينابيع الحبا ، فنصر الله امرءً أبرّ قسمى ، وصدّق توسّمى ، ونظر الى بعين يُقذيها الجمود ، ويقذيها الجود ، قال الحارث بن همام ، فهممنا لبراعة عبارتها ، ومُلح استعارتها ، وقلنا لها قد فتن كلامك ، فكيف الحامك ، فقالت يفجّر الصخرَ ، ولا فخر ، فقلنا ان جعلتنا من رواتك ، لم نبخل بمواساتك ، فقالت لأربنّكم اولاً شعاري ، ثم لأروينّكم اشعاري ، فأبرزت رُدن درع دريس ، وبرزت برزة عجوز درديس ، وانشأت تقول *

اشكو الى الله اشتكاء المريض جورَ الزمان المتعدّي البغيض

ياقوم

يـــاقـومِ انى من انـــاسٍ غنـــوا ... دهرًا وجفنُ الدهر عنهم غضيض
فَخـــارُهم ليـــس لـــه دافـــعٌ ... وصِيتُهم بين الورى مستفيض
كانـــوا اذا ما نجعـــةٌ اعْـــوزت ... فى السنة الشهباءِ روضًا اريض
تُشَـــبّ للسارين نيـــرانُهـــم ... ويُطعِمون الضيفَ لحـــمًا غريض
ما بـات جارٌ لهـــم ســـاغبًا ... ولا لِـــروع قال حال الجـــريض
فغيّضت منهم صـــروفُ الردي ... بحارَ جودٍ لم اخَلْـــها تغـــيض
واودعت منهم بطـــونَ الثرى ... أُسدَ التـــحامى وأُساة المريض
فَهْـــيلى بعد المطايا المطـــا ... وموطنى بعد اليفاع الحضيض
وافرخى ما تاتلى تشـــتكى ... بُؤســـاً له فى كل يومٍ وبيـــض
اذا دعـــى القانـــتُ فى ليـــلة ... مولاه نـــادوه بـــدمعٍ يفـــيض
يـــا رازق النعّـــابِ فى عُـــشّهِ ... وجابر العظم الـــكسير المهيض
اتِـــحْ لنا اللـــهُمَّ مَن عِرضُـــه ... من دنـــس الذمّ نقىّ رحيـــض
يُطـــفئُ نارَ الجـــوع عنّا ولـــو ... بهـــنقةٍ من حـــازرٍ او مخيـــض
فهـــل فتىً يكشف ما نابَهـــم ... ويغنم الشكرَ الطويل العـــريض
فوالـــذي تعـــفوا النـــواصى له ... يومَ وجـــوه الجـــمع سُودٌ وبيـــض
لولاهـــم لم تمـــدُ لى صفـــحةٌ ... ولاتصـــدّيتُ لنظم القـــريض

قال الراوي فوالله لقد صدعت بابياتها اعشار القلوب ، واستخرجت خبايا الجيوب ، حتى ماحسها من دينه الانتياح ، وارتاح لرفدها من لم نخلُه يرتاح ، فها انعوعم جيبهُا تبرا ، واولاهـــا كل منا برًّا ، تولّـــت يتلوها الاصاغر ، وفوها بالشكر فاخر ، فاشرأبّت الجماعة بعد مَرّها الى سبرها ، لتبلو مواقعَ برّها ، فكفلت لهم باستنباط السرّ المرموز ، ونهضت

Digitized by Google

ونهضت اقفو اثر العجوز ، حتى انتهت الى سوق مغتصّة بالانام ، مختصّة بالزحام ، فانغمست فى الغُمار ، وامّلست من الصبيَة الاغمار ، ثم عاجت بخلوّ بالٍ ، الى مسجدٍ خالٍ ، فاماطت الجلبابَ ، ونضت النقاب ، وانا المحمها من خصاص الباب ، وارقب ما ستُبدي من العُجاب ، فلما انسرت اهبةُ الخفر رأيت مُحيّا ابى زيدٍ قد سفر ، فهممت ان اهجم عليه ، لاعنّفه على ما اجري اليه ، فاسلنقى اسلنقا المتمردين ، ورفع عقيرة المغرّدين ، واندفع ينشد *

يا ليت شعري ادهري ... احاط علمًا بقدري
وهل دري كُنهَ غوري ... فى الخدع اوليس يدري
كم قد قهرت بنيهِ ... بحيلتى وبمكري
وكم برزت بعُرفٍ ... عليهم وبنُكر
اصطاد قومًا بوعظٍ ... واخرين بشِعر
واستفزّ بخلٍّ ... عقلًا وعقلًا بخمر
وتارةً انا صَخْرٌ ... وتارةً اُخت صخر
ولو سلكتُ سبيلًا ... مالوفةً طولَ عمرى
لخاب قِدحى وقَدحى ... ودام عُسري وخُسري
فقُل لمن لام هذا ... عُذري فدونك عُذري

قال الحارث بن همام ، فلما ظهرتْ علىّ جليّة امره ، وبديعة إمره ، وما زخرف فى شعره من عذره ، علمتُ ان شيطانه المريد لا يسهم التفنيد ، ولا يفعل الّا ما يريد ، فثنيت الى اصحابى عِنانى ، وابْثثْتُهم ما اثبته عِيانى ، فوجموا لضيعة الجوائز ، وتعاهدوا على محرمة العجائز *

Digitized by Google

المقامة الرابعة عشرة المكيّنة

حكى الحارث بن همام قال ، نهضت من مدينة السّلام ، لحجّة الاسلام ، فلما قضيت بعون الله التَفَث ، واستبحت الطيب والرفث ، صادَف مَوسِمَ الخَيْفِ ، معْمَعانُ الصيف ، فاستظهرت للضرورة ، بما يقى حرّ الظهيرة ، فبينما انا تحت طِراف ، مع رُفقةٍ ظراف ، وقد حمى وطيسُ الحصباء ، وأعْشى الهجيرُ عينَ الحِرباء ، هجم علينا شيخ مُتَسعْسع ، يتلوه فتى متسرع ، فسلّم الشيخ تسليمَ اديبٍ اريب ، وحاور محاورة قريبٍ لا غريب ، فاعجبَنا بما نثر من سِمطه ، وعجبنا من انبساطه قبل بسطه ، وقلنا له ما انت ، وكيف ولجت وما استاذنت ، فقال امّا انا فعافٍ ، وطالبُ اسعاف ، وسِرُّ ضرّي غيرُ خافٍ ، والنظر الّى شفيعٌ كاف ، وأمّا الانسيابُ الذي علِق به الارتيابُ ، فما هو بعجاب ، اذ ما على الكرماء من حجاب ، فسألناه انّى اهتدي الينا ، وبمَ استدلّ علينا ، فقال ان للكرم نشرٌ تنمّ نفحاتُه ، وتُرشِد الى روضه فوحاتُه ، فاستدللتُ بتأرّج عَرفكم ، على تبلّج غُرفكم ، وبشرني تضوّعُ رندكم بحُسن المنقلَب من عندكم ، فاستخبرناه حينيذٍ عن لُبانته ، لنكفل باعانته ، فقال ان لى مأربا ، ولفتاي مَطلبا ، فقلنا كلا المرامين سيُقضى ، وكلاكما سوف يرضى ، ولكن الكُبرَ الكُبرَ ، فقال اجلْ ومَن حا السبْعَ الغُبْر ، ثم وثب للمقال ، كالمنشط من العقال ، وانشد ❁

انى

انى امرؤٌ ابدِع بى ... بعد الوجَى والتعبِ
وشُقّتى شاسعةٌ ... يقصُر عنها خَبَبى
وما معى خَرْدلةٌ ... مطبوعةٌ من ذهبِ
فحيلتى منسدَّة ... وحيرتى تلعب بى
ان ارتحلتُ راجلا ... خفت دواعى العطبِ
وان تخلّفت عن الـ ... ـرُفقة ضاق مذهبى
فزفرتى فى صعدٍ ... وعبرتى فى صببِ
وانتم مُنتجَع الـ ... ـراجى ومرمى الطلبِ
لُهاكم منهلّةٌ ... ولا انهلال السُحُبِ
وجارُكم فى حرمٍ ... ووفرُكم فى حربِ
ما لاذ مرتاعٌ بكم ... فخاف نابَ النُوَبِ
ولا استدرّ آملٌ ... حِباكم فما خُيِبى
فا نعطفوا فى قصّتى ... واحسنوا مُنقلَبى
فلو بلوتم عيشتى ... فى مطعمى ومشربى
لسآءكم ضُرّي الذي ... اسلمنى للكربِ
ولو خبرتم حسبى ... ونسبى ومذهبى
وما حوتْ معرفتى ... من العلوم النُخَبِ
لما اعترتْكم شُبْهةٌ ... فى ان دائى ادبى
فليت انى لم اكن ... أُرضعتُ تدْيَ الادب
فقد دهانى شومُه ... وعقّنى فيه ابى

فقلنا له امّا انت فقد صرّحتْ ابياتك بفاقتك ، وعطب نافتك ، وسنُهطيك

Digitized by Google

وسنُهطيك ما يوصلك الى بلدك ، فما مأربة ولدك ، فقال له قُم يابُنَيّ كما قام ابوك ، وفُه بها فى نفسك لا فُضَّ فوك ، فنهض الفتى نهوض البطَل للبراز ، واصلت لسانا كالعضْب الجُراز ، وقال *

يا سادةً فى المعالي ... لهم مبانٍ مشيده
ومن اذا ناب خطبٌ ... قاموا بدفع المكيده
ومن يهون عليهم ... بذلُ الكنوز العتيده
اريد منكم شِواءً ... وجَرْدقًا وعصيده
فان غلا قُرقاق ... بهِ تُوارِي الشهيده
او لم يكن ذا ولا ذا ... فشِبْعةٌ من ثريده
وان تعذّرن طُرًّا ... فعَجْوة ونهيده
فاحضروا ما تسنّى ... ولو شظًا من قديده
وروّجوه فنفسى ... لما يروج مُزيده
والزاد لا بد منه ... لرحلةٍ لى بعيده
وانتم خيرُ رهطٍ ... يُدعون عند الشديده
ايديكم كل يومٍ ... لها ايادٍ جديده
وراحُكم واصِلاتٌ ... شمل الصِلات المفيده
وبغْيَتى فى مطاوي ... ما ترفدون زهيده
وفىّ اجرٌ وعُقبَى ... تنفيس كرْبى حميده
ولى نتايج فِكرٍ ... يفضحن كل قصيده

قال الحارث بن همام ، فلما رأينا الشِبل يشبه الاسد ، أرحلنا الوالدَ وزوّدنا الولدَ ، فقابلا الصُنعَ بشكر نشرا اريتَه ، وادّيا به ديَتَه ، ولما عزما على

على الانطلاق ، وعقدا للرحلة حُبْكَ النطاق ، قلت للشيخ هل ضاهت عِدتُنا عِدةَ عرقوب ، او بقيت حاجةٌ في نفس يعقوب ، فقال حاشا لله وكلاَّ ، بل جَلَّ معروفكم وجَلَّى ، قلت له فدَّنا كما دِنّاك وافدْنا كما افدناك ، اين الدُوبرةُ ، فقد ملكتْنا فيد الحيْرة ، فتنفّس تنفّس من اذّكر اوطانه ، وانشد والشهيق يلعْثم لسانه *

سَروجُ داري ولكن كيف السبيل اليها
وقد اناخ الاعادي بها واخنوا عليها
فوالتي سِرتُ ابغي حطَّ الذنوب لديها
ما راق طرْفي شيءٌ مذ غِبتُ عن طَرفيها

ثم اغرورقت عيناه بالدموع ، واذنت مدامعه بالهموع ، فكره ان يستوكفها ، ولم يملك ان يكفكفها ، فقطع انشاده المستحلى ، واوجز في الوداع وولى *

المقامة الخامسة عشرة الفرضيَّة

اخبر الحارث بن همام قال ، ارقتُ ذاتَ ليلة حالكة الجلباب ، هامية الرباب ، ولا ارقَ صبٍّ طُرد عن الباب ، ومُني بصدّ الاحباب ، فلم تزل الافكارُ يهيجْنَ همّي ، ويجلنَ في الوساوس وهمي ، حتى تمنّيت لمضض ما عانيت ، ان أُرزق سميرًا من الفضلاء ، ليقصر طول ليلتي الليلاء

Digitized by Google

الليلاءَ ، فما انقضت مُنيتي ، ولا غَمضت مُقلتي حتى قرع الباب قارعٌ ، له صوت خاشع ، فقلت في نفسي لعل غرس التهني قد اثمر وليل الحظّ قد اقمر ، فنهضت اليه عجلان ، وقلت من الطارق الان ، فقال غريب اجنّه الليلُ ، وغشيه السيْل ، ويبتغي الايواءَ لا غير ، واذا اسحر قدّم السيرَ ، قال فلما دلّ شعاعه على شمسه ، ونمّ عنوانه بسرّ طِرْسه علمت ان مسامرته غُنْم ، ومساهرته نعم ، ففتحت الباب بابتسام ، وقلت ادخلوها بسلام ، فدخل شخصٌ قد حنى الدهرُ صُعدتَه ، وبلل القطر بردته ، فحيّا بلسان عضب ، وبيان عذب ، ثم شكر على تلبية صوته ، واعتذر من الطروق في غير وقته ، فدانيتُه بالمصباح المتّقد ، وتاملته تامّل المنتقد ، فالفيته شيخنا ابا زيد ، بلا ريب ، ولا رجم غيب ، فاحللته محل من اظفرني بقُصوَي الطلب ، ونقلني من وقد الكرَب ، الى روح الطرب ، ثم اخذ يشكو الاينَ ، واخذتُ في كيف وايْن ، فقال ابلغني ريقي ، فقد اتعبني طريقي ، فظننته مستبطئًا حُميّا السغب ، متكاسلاً لهذا السبب ، فاحضرته ما يُحضَر الضيف المفاجي ، في الليل الداجي ، فانقبض انقباضَ المحتشم ، واعرض اعراضَ البشم ، فسؤتُ ظنًّا بامتناعه ، واحفظني حوولُ طباعه ، حتى كدتُ أغلط له في الكلام ، والسَعُه بحُجة الملام ، فتبين من لمحات ناظري ، ماخامَر خاطري ، فقال يا ضعيف الثقة ، باهل المقة ، عدِّ عما اخطرته بالك ، واستمع انّي لا ابالك ، فقلت هات ، يا اخا النزهات ، فقال اعلم اني بتُّ البارحةَ حليفَ افلاس ، ونجي وسواس ، فلما قضى الليل نحبَه ، وغوّر الصبح شُهبَه ، غدوت وقتَ الاشراق

Digitized by Google

الاشراق ، الى بعض الاسواق ، متصديًا لصيد يسنح ، او حُرّ يسمح ، فلحظت بها ثمرًا قد حُسِّن تصفيفُه ، واحسن اليه تصيفه ، فجمع على التحقيق ، صفآء الرحيق ، وقنو العقيق ، وقبالته لباء قد برز كالابريز الاصفر ، وانجلى فى اللونِ المُزعفَر ، فهو يُثنى على طاهيه ، بلسان تناهيه ، ويُصوّب رايَ مُشتريه ، ولو نقد حَبَّةَ القلب فيه ، فاسرتنى الشهوةُ باشطانها ، واسلمتنى العَيمة الى سلطانها ، فبقيت احيَر من ضب ، واذهل من ضب ، لا وُجْد يوصلنى الى نيل المراد ، ولذة الازدراد ، ولا قدم تطاوعنى على الذهاب ، مع حُرقة الالتهاب ، لكن حدانى القرمُ وسَورته ، والسغب وفَورته ، على ان انتجع كلَّ ارض ، واقتنع من الورد بعَرْض ، فلم ازل سحابةَ ذلك النهار ، أُدلى دلوي الى الانهار ، وهى لا ترجع ببلّة ، ولا تجلب نقع غُلّة ، الى ان صفت الشمس للغروب ، وضعفت النفس من اللغوب فرُحت بكبد حَرّي ، وانثنيت اقدمُ رجلاً واوخر اخري ، فبينما انا اسعَى واقعد ، واهُبّ واركد ، اذ قابلنى شيخ يتاوّه اهةَ الثكلان ، وعيناه تنهملان ، فما شغلنى ما انا فيه من دآء الذيب والخوي المُذيب ، عن تعاطى مداخلته ، والطمع فى مخاتلته ، فقلت له يا هذا ان لبكائك لسرًّا ، ووراء تحرقك لشرا ، فاطلعنى على برحائك ، واتخذنى من نصحائك ، فانك ستجد منى طَبًّا اسيًا ، اوعونا مواسيا ، فقال واللّه ما تاوّهى لعيش فات ، ولا من دهر افتات ، بل لانقراض العلم ودروسه ، وافول اقماره وشموسه ، فقلت واي حادثةٍ نجمت ، وقضيةٍ استعجمت ، حتى هاجت لك الاسف على فقد

من

من سلف ، فابرز رقعة من كمّه ، واقسم بابيه وامّه ، لقد انزلها باعلام المدارس ، فما امتازوا عن الاعلام الدوارس ، واستنطق لها احبار المحابر ، فخرسوا ولا خرس سكان المقابر ، فقلت ارنيها ، فلعلّي أُغنى فيها ، فقال ما ابعدتَ فى المرام ، فَرُبَّ رمْية من غير رام ، ثم ناولنيها ، فاذا المكتوب فيها *

ايُّها العالمُ الفقيه الذي ... فاق ذكآءً فماله من شبيه
افتِنا فى قضيّة حاد عنها ... كل قاض وحار كل فقيه
رجلٌ مات عن اخ مسلم ... حُرّ تقىّ من امه وابيه
وله زوجةٌ لها ايها الحِبر ... اخٌ خالصُ بلا تمويه
فحوتْ فرْضها وحاز اخوها ... ما تبقّى بالارث دون اخيه
فاشفِنا بالجواب عما سألنا ... فهو نصٌّ لا خُلْفَ يوجد فيه

فلما قرأت شعرها ، ولمحت سرّها قلت على الخبير بها سقطت ، وعند ابن بجدتها حططت ، الا انني مضطرم الاحشا ، مضطرّ الى العشا ، فاكرم مثواي ، ثم استمع فتواي ، فقال ، لقد انصفت فى الاشتراط ، وتجافيت عن الاشتطاط ، فصر معى الى مَربعى ، لتظفر بما تبتغى ، وتنقلب كما ينبغى ، قال فصاحبته الى ذراه ، كما حكم الله ، فادخلنى بيتًا احرج من التابوت ، واوهن من بيت العنكبوت ، الّا انه جبر ضيقَ ربعه ، بتوسعة ذرْعه ، فحكمنى فى القِرَى ، ومطايب ما يشتري ، فقلت اريد ازهَى راكبٍ ، على اشهَى مركوب ، وانفع صاحب ، مع اضرّ مصحوب ، فافكر ساعةً طويلة ، ثم قال لعلك تَعْنى بنتَ نخيلةٍ مع لبآء سُخيلة ، فقلتُ اياها عنيت ، ولاجلها تعنّيت ، فنهض نشيطا

وهتف داعى الفلاح ، فتاهّب لاجابة الداعى ، ثم عطف الى وداعى ، فعُقْتُه عن الانبعاث ، وقلت الضيافة ثلاث ، فناشد وحَرَّج ، ثم أمَّ المخرجَ ، وانشد اذ عرّج

لا تزُر من تحبّ فى كل شهر غيرَ يومٍ ولا تزده عليه
فاجتلاء الهلال فى الشهر يومٌ ثم لا تنظر العيونُ اليه

قال الحارث بن همام فودّعته بقلب دامى القُرح ، ووددتُ لو ان ليلتى بطيّة الصُبح *

المقامة السادسة عشرة المغربيّة

حكى الحرث بن همام قال ، شهدتُ صلاةَ المغرب ، فى بعض مساجد المغرب ، فلما ادّيتها بفضلها ، وشفعتها بنفلها ، اخذ طرفى رفقة قد انتبذوا ناحيةً ، وا متازوا صفوةً صافية ، وهم يتعاطون كاسَ المنافثة ، ويقتدحون زناد المباحثة ، فرغبت فى محادثتهم لكلمة تُستفاد ، او ادب يستزاد ، فسعيت اليهم ، سعى المتطفّل عليهم ، وقلت لهم اتقبلون نزيلًا يطلب جَنَى الأسحار ، لا جَنَّى الثمار ، ويبغى مُلَح الحوار ، لا ملحَ الحُوار ، فحلّبوا لى الحُبا ، وقالوا مرحبا مرحبا * فلم اجلس الّا لمحة بارق خاطف ، او نغبة طاير خايف ، حتى غشينا جوّاب ، على عاتقه جراب ، فحيّانا بالكلمتين ، وحيّى المسجدَ

Digitized by Google

المسجد بالتسليمتين ، ثم قال يا اولى الالباب ، والفضل اللُباب ، اما تعلمون ان انفس القربات ، تنفيس الكربات ، وامتن اسباب النجاة ، مواساة ذوي الحاجات ، وانى ومن احلّنى ساحتكم واتاح استباحتكم لشرب محلٍ قارٍ ، وبريد صبية خمار ، فهل فى الجماعة ، من يفثاء عنا حُميَّا المجاعة ، فقالوا له يا هذا انك حضرت بعد العشا ، ولم يبقَ الَّا فضلات العشا ، فان كنت بها قنوعا ، فها تجد فينا منوعا ، فقال انّ اخا الشدايد ، ليقنع بلُفاظات الموايد ، ونفاضات المزاود ، فامر كل منهم عبده ، ان يزوده ما عنده ، فاعجبه الصنع وشكر عليه ، وجلس يرقُب ما يُحمَل اليه ، وثبنا نحن الى استثارة ملح الادب وعيونه ، واستنباط معينه من عيونه ، الى ان جُلنا فيها لا يستحيل بالانعكاس ، كقولك ساكبُ كاس ، فتداعينا الى ان نستنتج له الافكارَ ، ونفترع منه الابكارَ ، على ان ينظم البادي ثلاثَ جُمانات فى عقده ثم تتدرَّج الزيادات من بعده ، فيُربّع ذو ميهنته فى نظمه ، ويُسبّع صاحبُ ميسرته على رغمه ، قال الراوي وكنّا قد انتظمنا عدَّةَ اصابع الكفّ ، وتالّفنا ألفةَ اصحاب الكهف ، فابتدر لعُظم محنتى ، صاحبُ ميهنتى ، وقال نُم اخًا ملّ ، وقال مُيامنه ، كبّر رجاء اجر ربّك ، وقال الذي يليه ، من يَرُبّ اذا برّينمُ ، وقال الاخر ، سكّت كل من نمّ لك تكِس ، وافضت النوبة الىّ ، وقد تعيّن نظمُ السمط السُباعى علىّ ، فلم يزل فكري يصوغ ويكسر ، ويُثري ويُعسر ، وفى ضمن ذلك استطعمُ ، فلا اجد من يُطعم ، الى ان ركد النسيمُ ، وصحصح التسليم ، فقلت لاصحابى لو حضر السروجى هذا المقامَ ، لشفى الداءَ

الدآء العُقام ، فقالوا لو انزلت هذه باباس ، لامسك على ياس ، وجعلنا نفيض فى استصعابها ، واستغلاق بابها ، وذلك الزور المعتري يلحظنا لحظ المزري ، ويولّف الدُّرر ، ونحن لا ندري ، فلما عثر على افتضاحنا ، ونضوب ضحضاحنا ، قال يا قوم ان من العناء العظيم ، استيلاد العقيم ، والاستشفاء بالسقيم ، وفوق كل ذي علم عليم ، ثم اقبل علىّ وقال سانوب منابك ، واكفيك ما نابك ، فان شيت ان تنثر ، ولا تعثر ، فقل مخاطبًا لمن ذمّ البخل ، واكثر العذل ، لُذ بكل موّمل اذا لمّ وملك بذل ، وان احببت ان تنظم ، فقل لمن تُعظم *

اُسِ ارملاً اذا عرا ... وارْعَ اذا المرء اسا
اُسُلْ جنابَ غاشم ... مشاغبٍ ان جلسا
اِسْرِ اذا هبّ مِرا ... وارْم به اذا رسا
اَسِنَّ اخا نباهة ... اَينْ اخآ ونسا
اُسكُنْ تقوّ فعسى ... يُسعِق وقتٌ نكسا

قال فلما سحرنا بياته ، وحسرنا بعد غياته ، مدحناه حتى استعفى ومنحناه الى ان استكفى ، ثم شمّر ثيابه وازدفر جرابه ، ونهض ينشد ،

لله درُّ عصابةٍ ... صُدق المقال مقاولا
فاقوا الانامَ فضايلاً ... ماثورةً وفواضلا
حاورتُهم فوجدتُ سحبانا لديهم باقلا
وحللت فيهم سائلا ... فلقيت جودًا سائلا
اقسمت لو كان الكرا ... مُ حيًّا لكانوا ابلا

ثم خطا قيدَ رُمحين ، وعاد مستعيذا من الحَيْن ، وقال يا عِزّ من علم الآل

الآل ، وكنز من سلب المال ، ان الغاسق قد وقب ، ووجه المحجّة قد انتقب ، وبيني وبين كنّي ليلٌ دامس ، وطريقٌ طامس ، فهل من مصباح يومئني العثار ، ويُبيّن لي الاثار ، قال فلما جئ بالملتمس وجلى الوجوه ضوء القبس ، رايت صاحبَ صيدنا ، هو ابو زيدنا ، فقلت لاصحابي هذا الذي اشرت الى انه اذا نطق اصاب ، وان استُمطر صاب ، فاتلعوا نحوه الاعناقَ ، واحدقوا به الاحداقَ ، وسالوه ان يسامرهم ليلته ، على ان يجبروا عيلتَه ، فقال خُبًّا لما احببتم ، ورحبًا بكم اذ رحبتم ، غير اني قصدتكم واطفالي يتضوّرون من الجوع ، ويدعون لي بوشك الرجوع ، وان استراثوني خامرهم الطيشُ ، ولم يصفُ لي العيش ، فدعوني لاذهب فاسدّ مخمصتهم ، واسيغ غصّتهم ، ثم انقلب اليكم على الاثر ، متاهّبًا للسمر ، الى السحر ، فقلنا لاحد الفِلمة اتبعه الى فئته ليكون اسرع لفيْئته ، فانطلق معه مضطبنا جرابه ، ومحتثثًا اياه ، فابطاء بطاء بجاوز حدَّه ، ثم رجع الغلام وحده ، فقلنا له ما عندك من الحديث ، عن الخبيث ، فقال اخذ بي في طُرق مُتعبة ، وسبل متشعّبة ، حتى افضينا الى دُويرة خربة ، فقال هاهنا مُناخي ، ووكر افراخي ، ثم استفتح بابَه ، واختلج مني جرابَه ، وقال لعَمري لقد خففت عني ، واستوجبت الحسنى مني ، فهاك نصيحةً هي من نفايس النصايح ، ومغارس المصالح وانشد *

اذا ما حويتَ جنى نخلة فلا تقربنّها الى قابل

وانّا سقطتُ على بيدر فحومل من السنبل الحامل

ولا قلبثنّ اذا ما لقطتَ فتنشبَ في كفّة الحابلِ

ولا

ولا توغلنَّ اذا ما سبحتَ فان السلامة فى الساحل
وخاطب بهات وجاوب بسوق وبع آجلاً منك بالعاجل
ولا تكثرنَّ على صاحب فما ملّ قط سموي الواصل

ثم قال اخزنها فى تامورك ، واقتد بها فى امورك ، وبادر الى صحبك ، فى كلاة ربّك ، فاذا بلغتهم فابلغهم تحيّتى ، واتل عليهم وصيتى ، وقل لهم عنى ان السمير فى الخرافات ، لمن اعظم الآفات ، ولست ألغى احتراسى ، ولا اجلب الهوس الى راسى ، قال الراوي فها وقفنا فحوى شعره ، على نكره ومكره ، تلا ومنا على تركه ، والاغترار بافكه ، ثم تفرقنا بوجوه باسرة ، وصفقة خاسرة *

المقامة السابعة عشرة القمقرية

حدث الحارث بن همّام قال ، لحظت فى بعض مطارح البين ، ومطامح العين ، فتية عليهم سيما الحجى ، وطلاوة نجوم الدجى ، وهم فى مباراة مشتدّة الهبوب ، ومباراة مشتطّة الالهوب ، فهزّنى لقصدهم هوي المحاضرة ، واستحلاّ جنى المناظرة ، فها التحقت برهطهم ، وانتظمت فى سمطهم ، قالوا انت ممن يبلى فى الهيجا ، ويلقى دلوه فى الدلا ، فقلت بل انا من نظارة الحرب ، لا من ابنا الطعن والضرب ، فاضربوا عن حجاجى ، وافاضوا فى التحاجى ، وكان فى بعبوحة

بحبوحة حلقتهم ، واكليل رفقتهم ، شيخٌ قد برته الهمومُ ، ولوّحته السموم ، حتى عاد انحل من قلم ، واقحل من جلم ، الّا انه كان يُبدي العُجابَ ، اذا اجاب ، ويُنسى سحبان ، كلما ابان ، فاعجبتُ بها اوتى من الاصابة ، والتبريز على تلك العصابة ، وما زال يفضح كل معمّى ، ويُصمى فى كل مَرمَى ، الى ان خلت الجعاب ، ونفد السوال والجواب ، فلما راي انفاضَ القوم ، واضطرارهم الى الصوم ، عرّض بالمطارحة ، واستاذن فى المفاتحة ، فقالوا له حبّذا ، ومن لنا بذا ، فقال اتعرفون رسالةً ارضُها سماؤها ، وصُبحها مساؤها ، نسجت على منوالين ، وتجلّتْ فى لونين وصَلّت الى جهتين ، وبدت ذات وجهين ، ان بزغت من مشرقها ، فناهيك برَوْنقها ، وان طلعت من مغربها ، فيا لعجبها ، قال فكانّ القومُ رُموا بالصُمات ، او حَقّتْ عليهم كلمة الانصات ، فما نبس منهم انسانٌ ، ولا فاه لاحدهم لسان ، فحين رآهم بُكما كالانعام ، وصُمّوتًا كالاصنام ، قال لهم قد اجّلتُكم اجلَ العدّة ، وارخيت لكم طِوَلَ المُدّة ، ثم هاهنا مجمعُ الشمل ، وموقف الفصْل ، فان سمحتْ خواطرُكم مدحنا ، وان صلدت زنادُكم قدحنا ، فقالوا له واللّه ما لنا فى لجة هذا البحر مسبح ، ولا فى ساحلهِ مسرح ، فارحْ افكارَنا من الكدّ ، وهنّى العطِيّةَ بالنقد ، واتخذنا اخوانا يثِبون اذا وثبتَ ، ويُثيبون متى استثبت ، فاطرق ساعةً ، ثم قال سمعًا لكم وطاعة ، فاستهلوا منى ، وانقلوا عنّى ، الانسان ، صنيعة الاِحسان ، وربُّ الجميل فِعْلُ الندْب ، وشيمة الحُرّ خميرة الحمد ، وكسب الشُكر استثمار السعادة ، وعُنوان الكرم تباشيرُ البِشر ، واستعمالُ المُداراة ، يوجِب المصافاة ، وعَقْدُ المحبّة يقتضى النُصح ، وصِدق الحديث

حلية

حلية اللسان ، وفصاحة المنطق سحر الالباب ، وشرك الهوى آفة النفوس ، وملل الخلايق شين الخلايق ، وسوء الطبع يباين السورع ، والتزام الحرامة زمام السلامة ، وتطلب المثالب شر المعايب ، وتتبع العثرات يدحض المروآت ، وعلوم النية خلاصة العطية ، وتهنئة النوال ثمن السوال ، وتكلف المكلف يسهل الخلق ، وتبذل المعونة يستنزل المؤونة ، وفضل الصدر سعة الصدر ، وزينة الرعاة ثقة السعاة ، وجزآ المدايح بث المنايح ، ومهر الوسايل تشفيع المسايل ، ومجلبة الغوايلة استغراق الغاية ، وتجاوز الحد يكل الحد ، وتعدي الادب يحبط القرب ، وتناسي الحقوق ينشي العقوق ، وتحاشي الريب يرفع الرتب ، وارتفاع الاخطار باقتحام الاخطار ، وتنوه الاقدار بمواتاة الاقدار ، وشرف الاعمال في تقصير الامال ، واطالة الفكرة تنقيح الحكمة ، وراس الرياسة تهذب السياسة ، ومع اللجاجة تلغى الحاجة ، وعند الاوجال تتفاضل الرجال ، وبتفاضل الهمم تتفاوت القيم ، وبتزيد السفير يهن التدبير ، وبخلل الاحوال تتبين الاحوال ، وبوجوب الصبر ثمرة النصر ، واستحقاق الاجاد بحسب الاجتهاد ، ووجوب الملاحظة كفآ المحافظة ، وصفآ الموالي بتعهد الموالي ، وتحلي المروآت بحفظ الامانات ، واختبار الاخوان بتخفيق الاحزان ، ودفع الاعداآ بكف الاوداآ ، وامتحان العقلاآ بمقارنة الجهلاآ ، وقبح العواقب يومن المعاطب ، واتقا الشنعة ينشر السمعة ، وقبح الجفآ ينافي الوفا ، وسبر الاحرار عند الاسرار ، ثم قال هذه مايتا لفظة ، تحتوي على ادب وعظة ،

فمن

فمن ساقها هذا المساق ، فلا مرآ ولا شقاق ، ومن رام عكس قالبها ، وان يردّها على عقبها ، فليقل الاسرار عند الاحرار ، وجوهر الوفا ينافى الجفا ، وقبح السمعة ينشر الشنعة ، ثم على هذا المسحب فليسحبها ، ولا يرهبها ، حتى تكون خاتمة فقرها ، واخرة دُرَرها ، ورَبُّ الاحسان ، صنيعة الانسان ، قال الراوي فلما صدع برسالته الفريدة ، واملوجيده المفيدة ، علمنا كيف يتفاضل الانشآ ، وان الفضل بيد الله يوتيه من يشآ ، ثم اعتلق كلٌ منّا بذيله ، وفلذ له فِلذةً من نيله ، فابى قبولَ فلذتي ، وقال لستُ ارزء تلامذتي ، فقلت له كن ابا زيد على شحوب سحنتك ، ونضوب مآ وجنتك ، فقال انا هو على نحولى وقحولى ، وقشف محولى ، فاخذت فى تثريبه ، على تشريقه وتغريبه ، فحولق واسترجع ، ثم انشد من قلب موجع *

سلّ الزمانُ علىّ عضبَه ... ليروعنى واحدّ غربه
واستلّ من جفنى كرا ... هُ مراعاً واسال غربه
واجالنى فى الافق اطـ ... ـوي شرقه واجوب غربه
فبكلّ حيّ طلعةٌ ... فى كل يوم لى وغربه
وكذا المقرب شخصه ... متغرّبٌ ونواه غربه

ثم ولّى يجرّ عطفيه ، ويخطر بيديه ، ونحن بين متلقّتٍ اليه ، ومتهافتٍ عليه ، ثم لم نلبث ان حللنا الحُدا ، وتفرقنا ايادي سبا ،

حكى

المقامة الثامنة عشرة السنجاريّة

حكى الحارث بن همام قال ، قفلت ذات مرة من الشام ، انحو مدينة السلام ، فى ركبٍ من بنى نمير ، ورُفقة اولى خيرومبر ، ومعنا ابوزيد عُقلة العجلان ، وسلوة الثكلان ، واعجوبة الزمان ، والمشار اليه بالبنان فى البيان ، فصادف نزولنا سنجار ، ان اولم بها احد التجار ، فدعا الى مأدبته الجفلى ، من اهل الحضارة والفلى ، حتى سرت دعوتة الى القافلة ، وجمع فيها بين الفريضة والنافلة ، فلما اجبنا مناديه ، وحللنا ناديه ، احضر من اطعمة اليد واليدين ، ما حلا فى الفم وحلى بالعين ، ثم قدّم جامًا كانما جُمِّدَ من الهوا ، اوجُمِعَ من الهبآ ، او صيغ من نور الفضآ ، او قشر من الدرة البيضآ ، وقد اودع لفايق النعيم ، وضمخ بالطيب العميم ، وسيقَ اليه شربٌ من تسنيم ، وسفرعن مراي وسيم ، وأرج نسيم ، فلما اضطرمت بمحضره الشهوات ، وقرمت الى مخبره اللهوات ، وشارف ان تشنّ على سربه الغارات ، وينادَي عند نهبه باللثارات ، نشز ابوزيد كالمجنون وتباعد عنه تباعد الضبّ من النون ، فراودناه على ان يعود ، وان لا يكون كقُدار فى ثمود ، فقال والذي ينشر الاموات من الرجام ، لا عدت دون رفع الجام ، فلم نجد بدًا من تألفه ، وابرار حلفه ، فاشلناه والعقول معه شايلة ، والدموع عليه سايلة ، فلما فآ الى مجثمه ، وخلص من مأثمه ، سألناه لم قام ، ولاي معنى استرفع الجام ، فقال ان الزجاج نهّام ، وانى البيت مذ اعوام ، الا يضمّنى ونهوما مقامٌ ، فقلنا وما سبب يمينك

يبيند الصرّي ، والبّتد الحرّي ، فقال انه كان لى جار لسانه ينتقرّب ، وقلبه عقرب ، ولفظه شهد ينقع ، وخبثه سمّ مُنقع ، فملت لمجاورته ، الى محاورته ، واغترت بمكاشرته ، فى معاشرته ، فاستهوتنى خُضرة دمنته لمنادمته ، واغرتنى خُدعة سمته ، بمناسمته ، فمازجته وعندي انه جار مكاسر ، فبان انه عُقاب كاسر ، وانسته على انه حِبّ موانس ، فوضح انه حُباب موالس ، ومالحته ولا اعلم انه عند نقده ، ممن يُفرح بفقده ، وعاقرته ولم ادر انه بعد قرّه ، ممن يُطرب لمَفرّه ، وكانت عندي جارية ، لا يوجد لها فى الكمال مجاريةٌ ، ان سفرتْ خجل النيّران ، وصَليَت القلوبُ بالنيران ، وان بَسمت ازرت بالجُمان ، وبيع المرجانُ بالمجّان ، وان رنت هيّجت البلابل ، وحققت سحر بابل ، وان نطقت عقلت لبّ العاقل ، واستنزلت العُصم من المعاقل ، وان قرأت شفت المفؤود واحيت المَؤود ، وخلتها اوتيت من مزامير آل داود ، وان غنّت ظلّ مغبدٌ لها عبدا ، وقيل سُحقًا لاسحق وبُعدا ، وان زمرت اضحى زنام عندها زنيبا ، بعد ان كان لجيله زعيبا ، وبالاطراب زعيبا ، وان رقصت امالت العمايمَ عن الرؤوس ، وانستك رقصَ الحبب فى الكؤوس ، فكنتُ ازدري معها حُمر النعَم ، واحلّى بتهليلها جيدَ النِعم ، واحجب مراءها عن الشمس والقمر ، واذود ذكرها عن شرايع السمر ، وانا مع ذلك اُليح من ان يسري برباها ريح ، اويكهُن بها سطيح ، او ينمّ عليها برق مُليح ، فاتفق لوشل الحظّ المبخوس ، ونكد الطالع المنحوس ، ان انطقتنى بوصفها حميّا المُدام ، عند الجار النمّام ، ثم ثاب الفهم ، بعد ان صرد السهمُ ، فاحسست الخبال والوبال ، وضيعةَ ما اودع ذلك الغربال

القربال ، بيّد انى عاهدته على عكم ما لفظته ، وان يحفظ السر ولو احفظته ، فزعم انه يخزن الاسرار ، كما يخزن اللئيم الدينار ، وانه لا يهتك الاستار ، ولو عُرِّض لان يلج النار ، فما غبر على ذلك الزمان ، الا يومٌ او يومان ، حتى بدا لامير تلك المدرة ، ووليها ذي المَقدُرة ، ان يقصد باب قيله ، مجددا عرض خيله ، ومستهطرا عارض نيله ، فارتاد ان تصحبه تحفة تلأيم هواه ، ليقدمها بين يدي نجواه ، وجعل يبذل الجعايل لرُوّاده ، ويُسنّى الرغايب لمن يُظفره بمراده ، فاسقّ ذلك الجارُ المختار ، الى بذوله ، وعصى فى ادّراع العار عذلَ عَذوله ، فاتى الوالى ناشرًا اذنيه ، وابثّه ماكنت اسررته اليه ، فما راعنى الّا انسياب صاغيته الى ، وانثيالُ حفدته علىّ ، يسومنى ايثارَه بالدُّرّة اليتيمة ، على ان احكم عليه فى القيمة ، فغشيتنى من الغمّ ، ماغشى فرعونَ وجنودَه من اليمّ ، ولم ازل ادافع عنها ولا يغنى الدفاع ، واستشفع اليه ولا يُجدي الاستشفاع ، وكلما راي منى ازدياد الاعتياص ، وارتياد المناص ، تجرّم وتضرّم ، وخرّق ، علىّ الأرَم ، ونفسى مع ذلك لا تسمح بمفارقة بدري ، وبان انزع قلبى من صدري حتى آل الوعيد ايسقاعا ، والتقريع قراعا ، فقادنى الاشفاق من الحين ، الى ان قضمته سواد العين بصُفرة العين ، ولم يحظَ الواشى بغير الاثم والشين ، فعاهدت الله تعالى مذ ذلك العهد ، ان لا احاضر نهامًا من بعد ، والزجاج مخصوص بهذه الطباع الذميمة ، وبه يُضرب المَثَلُ فى النميمة ، فقد جري عليه سيل يميني ، ولذاكم السبب لم يمتدّ اليه يميني *

فلا تعذلوني بعد ما قد شرحته على ان حُرمتم بى اقتطافَ القطايفِ

فقد

فقد بان عذري فى صنيعى واننى سارتق فتقى من تليدي وطارفى
على ان ما زوّدتكم من فُكاهةٍ الذّ من الحلوي لدي كل عارفِ

قال الحارث بن همام فقبلنا اعتذاره ، وقبّلنا عِذاره ، وقلناله قِدمًا وقذت النهيبة خيرَ البَشر ، حتى انتشر عن حمّالة الحطب ما انتشر ، ثم سالناه عمّا احدث جارُه القتّات ، وخُللُه المفتات ، بعد ان راش له نبلَ السِعاية ، وجذم حبلَ الرعايةِ ، فقال اخذ فى الاستخذآء والاستكانة ، والاستشفاع الىّ بذوي المكانة ، وكنت حَرَّجتُ على نفسى ، ان لا يسترجعه أُنسى ، او يرجع الىّ امسى ، فلم يكن له منى سوي الردّ ، والاصرار على الصدّ ، وهو لا يكتئِب من النجه ، ولا يثيب من وقاحة الوجه ، بل يُلظّ فى الوسايل ، ويلحّ فى المسايل ، فما انقذنى من ابرامه ، ولا ابعد عليه نيلَ مرامه ، الاّ أبيّاتٌ نفث بها الصدر الموتور ، والخاطر المبتور ، فانها كانت مدحرةً لشيطانه ، ومسجنةً له فى اوطانه ، وعند انتشارها بتّ طلاق الحبور ، ودعا بالويل والثبور ، ويئس من نشر وصلى المقبور ، كما يئس الكفّار من اصحاب القبور ، فناشدناه ان ينشدنا ايّاها ، ويُنشقنا ريّاها ، فقال أَجَلْ ، خُلِقَ الانسان من عجل ، ثم انشد لا يزويه وجل ، ولا يثنيه خجل *

ونديمٍ محضتُه صِدقَ ودّي اذ توهمته صديقًا حميما
ثم اوليته قطيعةَ قالٍ حين الفيته صديدًا حميما
خِلتُه قبل ان يُجَرَّب إلفًا ذا ذمامٍ فبان جلفًا ذميما
وتخيّرته كليمًا فامسى منه قلبى بها جناه كليما
وتظنّيته مُعينًا رحيما فتبيَّنته لعينًا رجيما

وترآ

وتراءيته مربدًا فجلّى عنه سبكى له مربدًا ليثيبا
وتوسمت ان يهبّ نسيبا فابى ان يهبّ الّا سهوما
بتُّ من لسعه الذي اعجز الرا قى سليمًا وبات منى سليما
وغدا امرُه غداةَ افترقنا مستقيمًا والجسم منى سقيما
لم يكن رابعًا خصيبًا ولكن كان بالشرّ رابعًا لى خصيما
قلت لما بلوته ليته كان غديًا ولم يكن لى نديما
بغّض الصبحَ حين نمّ الى قلبى لان الصباح يُلفى نهوما
ودعانى الى هوي الليل اذ كان سواد الدُجى رقيبًا كتوما
وكفَى مَن يشئ ولو فاه بالصدق اثامًا فيما اتاه ولوما

قال فلما سمع ربّ المنزل قريضه وسجعه ، واستهلج تقريضَه وسبعَه ، بوّاه مِهاد كرامته ، وصبّره على تكرمته ، ثم استحضر عشر صحافٍ من الغَرَب ، فيها حلوآ القند والضَرَب ، وقال له لايستوي اصحابُ النار واصحاب الجنّة ، ولا يسع ان يجعل البري كذي الظنّة ، وهذه الانية تتنزل منزلة الابرار ، في صون الاسرار ، فلا تُولِها الإبعاد ، ولا تُلحِق هُودًا بعاد ، ثم امر خادمه بنقلها الى مثواه ، ليحكم فيها بهواه ، فاقبل علينا ابو زيد وقال ، اقرؤا سورةَ الفتح ، وابشروا باندمال القرح ، فقد جبر الله ثكلكم وسنّى اكلَكم ، وجمع في ظِلّ الحلوآ شملكم ، وعسى ان تكرهوا شيئًا وهو خير لكم ، ولما هَمّ بالانصراف ، مال الى استهدآ الصحاف ، فقال للاديب ، ان من دلايل الظَرف ، سماحة المهدي بالظَرف ، فقال كلاهما والغلام ، فاحذف الكلامَ ، وانهَض بسلام ، فوثب في الجواب ، وشكرَه شُكرَ الروض للسحاب ، ثم اقتادنا ابو زيد الى حوابه ،

Digitized by Google

حوايه ، وحكّمنا فى حلوايه ، وجعل يقلّب الاوانى بيديه ، ويفضّ عددها على عدده ، ثم قال لست ادرى اشكو ذلك النهام ام اشكر ، واتناسى فعلته ام اذكر ، فانه وان كان اسلف الجريمة ، ونمنم النهيمة ، فمن غيبه انهلّت هذه الديمة ، وبسيفه انحازت لى هذه الغنيمة ، وقد خطر ببالى ، ان ارجع الى اشبالى ، واقنع بما تستّى لى ، والا اتعب نفسى ولا اجهالى ، وانا اودّعكم وداع محافظ ، واستودعكم خير حافظ ، ثم استوي على راحلته ، راجعًا فى حافرته ، ولاويًا الى زافرته ، فغادرنا بعد ان وخدت عنسه ، وزايلنا انسه ، كدست غاب صدره ، او ليل افل بدره *

المقامة التاسعة عشرة النصيبيّة

حكى الحارث بن همام قال ، امحل العراق ذات العويم ، لاخلاف انواء الغيم ، وتحدّث الركبان بريف نصيبين ، وبلهنيّة اهلها المخصبين ، فاقتعدت مهريًا ، واعتقلت سمهريًا ، وسرت تلفظنى ارض الى ارض ، ويجذبنى رفّ من خفض ، حتى بلغتها نقضاً على نقض ، فلما انخت بفنائها الخصيب ، وضربت فى مرعاها بنصيب ، نويت ان القى بها جرانى ، واتخذ اهلها جيرانى ، الى ان تحبى السنة الجماد ، وتتعهّد ارض قومى العهاد ، فوالله ما تمضمضت مقلتى بنومها ، ولا تمخضت ليلتى عن يومها ، اذ الفيت بها ابا زيد السروجى يجول فى ارجاء نصيبين ، ويخبط

ويخبط بها خبطَ المُصابين ، والمُصيبين ، وهو ينثر من فيه الدُّرر ، ويحتلب بكفيه الدِرر ، فوجدت جهادي قد حاز مغنمًا ، وقدحى الفذّ قد صار توءما ، ولم ازل اتبع ظلّه اينما انبعث ، والتقط لفظه كلما نفث ، الى ان عراه مرضٌ امتدّ مداه ، وعرّقته مُداه ، حتى كاد يسلبه ثوبَ المحيا ، ويُسلمه الى ابى يحيى ، فوجدت لفوت لُقياه ، وانقطاع سُقياه ، ما يجده المُرضَع عند فطامه ، والمُبعَد عن مرامه ، ثم أُرجف بان رهنه قد غَلِق ، ومخلب الحمام به قد علق ، فقلق صحبُه لارجاف المرجفين ، وانثالوا الى عقوته موجفين *

حياريَ يبيد بهم شجوُهم ... كانهم ارتضعوا الخندريسا
اسالوا الغروب وعطّوا الجيوب ... وصكوا الخدودَ وشجّوا الرؤسا
يودّون لو سالمته المنون ... وغالت نفايسهم والنفوسا

قال الراوي وكنت فيهن التقّ باصحابه ، واغذّ الى بابه ، فلما انتهينا الى فنائه ، وتصدّينا لاستنشاء انبائه ، برز الينا فتاه ، مفترّةً شفتاه ، فاستطلعنا طلع الشيخ فى شكاته ، وكُنْهَ قوى حركاته ، فقال قد كان فى قبضة المرضة ، وعركة الوعكة ، الى ان شقّه الدنف ، واستشقّه التلف ، ثم منّ الله تعالى بتقوية ذمايه ، فافاق من اغمايه ، فارجعوا ادراجكم ، وانضوا انزعاجكم ، فكانّ قد غدا وراح ، وساقاكم الرّاح ، فاعظمنا بُشراه ، واقترحنا ان نراه ، فدخل مُوذنا بنا ، ثم خرج آذنا لنا ، فلقينا منه لقًى ، ولسانا طلقًا ، وجلسنا مُحدِقين بسريره ، ومحدِقين الى اساريره ، فقلّب طرفه فى الجماعة ثم قال اجتلوها بنت الساعة ، وانشد *

Digitized by Google

عافاني الله وشكرًا له ... من علّةٍ كادت تُعفّيني
ومنّ بالبُرء على انه ... لا بدّ من حتفٍ سيبريني
ما يتعناساني ولكنه ... الى تقضّي الأكل يُنسيني
ان حُمّ لم يُغن حميمٌ ولا ... حِمى كُليبٍ منه يحميني
وما أبالي ادنى يومه ... ام أخّر الحَيْنُ الى حين
فاي فخرٍ في حيوة ارى ... فيها البلايا ثم تُبليني

قال فدعونا له بامتداد الاجل وارتداد الوجل ثم تدا عينا الى القيام لاتقآء الابرام ، فقال كلّا بل البثوا بياض يومكم عندي ، لتشفوا بالمفاكهة وجدي ، فان مناجاتكم قوت نفسي ، ومغناطيس أُنسي ، فتحرّينا مرضاته ، وتحاينا معاصاته ، واقبلنا على الحديث نمخض زُبدَه ، ونلغى زَبَده ، الى ان حان وقت المقيل ، وكلّت الالسن من القال والقيل ، وكان يومًا حامي الوديقة ، يانع الحديقة ، فقال ان النُعاس قد امال الاعناق ، وراود الاماق ، وهو خصمُ الدّ ، وخِطبٌ لا يردّ ، فصلوا حبلَه بالقيلولة ، واقتدوا فيه بالآثار المنقولة ، قال الراوي فاتبعنا ما قال وقلنا وقال ، فضرب الله على الاذان ، وافرغ السِنة في الاجفان ، حتى خرجنا من حُكم الوجود ، وصُرفنا بالهجود عن السجود ، فما استيقظنا الاّ والحرّ قد بلغ ، واليوم قد شبّ ، فتكرّعنا لصلوة العجماوين ، وادّينا ما حلّ من الدَّين ، ثم تحثحثنا للارتحال ، الى مُلقى الرحال ، فالتقمت ابوزيد الى شبله ، وكان على شاكلته وشكله ، وقال انى لاحمال ابا عمرة ، قد اضرم في احشايهم الجمرة ، فاستدع ابا جامع ، فله بشري كل جايع ، وارفده بابني نُعيم ، الصابر على كل

كل ضيم ، ثم عزّ بابى حبيب ، المحبّب الى كل لبيب ، المقلّب بين احراق وتعذيب ، واهب ، بابى ثقيق ، فحبّذا هو من اليق ، وهلمّ بابى عون فما مثله من عون ، ولو استحضرت ابا جميل ، لجمّل اىّ تجميل ، وحىّ هلّ بامّ القرى ، المذكّرة بكسرى ، ولا تتنلس امّ جابر ، فكم لها من ذاكر ، ونادِ امّ الفرج ، ثم افتك بها ولا حرج ، واختم بابى رزين ، فهو مسلاة كل حزين ، وان تقرن بدابا العلا ، تمح اسمك من البخلاء ، واياك واستدعا المرجفين ، قبل استقلال حمول البين ، فاذا نزع القومُ عن المراس ، وضافحوا ابا اياس ، فاطرق عليهم ابا السرو ، فانه عنوان السرو ، قال ففقه ابنه لطايف رموزه ، بلطافة تمييزه ، فطاف علينا بالطيبات والطيب ، الى ان اذنت الشمس بالمغيب ، فلما اجمعنا على التوديع ، قلنا له الم تر الى هذا اليوم البديع ، كيف بدا صُبحه قطريرا ، ومُسيه مستنيرا ، فسجد حتى اطال ، ثم رفع راسه وقال *

لا تيأسن عند النوب ... من فرجةٍ تجلو الكرب
فلكم سموم هبّ ثم ... جرى نسيمًا وانقلب
وسحاب مكروهٍ تنشّا ... فاضمحلّ وما سكب
ودُخان خطبٍ خيف منه ... فما استبان له لهب
ولطالما طلع الاسى ... وعلى تفيئته غرب
فاصبر اذا ما نابك روعٌ ... فالزمان ابو العجب
وترجّ من روح الاله ... لطايفًا لا تُحتسب

قال فاستهلينا ابياته الغرّ ، ووالينا لله تعالى الشكر ، وودّعناه مسرورين

Digitized by Google

لبرءه ، مغمورين ببرّه *

تفسير ما تضمّنه هذه المقامة من الفاظ لغويّة وكنى طفيليّة وكنايات صوفيّة

قوله ذات العويم يعنى به الزمان المتقادم ، ومثله ذات الحزمين ، والسهمهرية الرماح ، وفى تسميتها بذلك قولان ، احدهما انها سميت بذلك لصلابتها من قولهم اسمهرّ الشى اذا اشتدّ ، وقيل انها منسوبة الى سمهر زوج رُدينة ، وكانا جميعا يقوّمان الرماح فنسبت اليهما ، وقوله فضرب الله على الاذان اي انامنا ، ومنه قوله تعالى فضربنا على اذانهم فى الكهف سنين عددا اي انهناهم ، وقيل فى تفسيره منعناهم السمع ، وقوله تكرعنا لصلوة العجماوين اي غسلنا اكارعنا ، وهى كناية عن الوضوّ ، والعجماوان صلاتا الظهر والعصر ، سميتا بذلك لاسرار القراة فيهما ، ومنه الحديث صلوة النهار عجما ، وقوله هلمم اي قل لهم هلمَّ وهى بمعنى هات ، وبمعنى اقبل ، والافصح ان يوخذ لفظها مع المذكر والمونث والاثنين والجمع وبه نطق القرآن فى قوله تعالى والقايلين لاخوانهم هلم الينا ، ومن العرب من يقول للمذكر الواحد هلمَّ ، وللاثنين هلما ، وللجمع هلموا ، وللمونث الواحدة هلمى ، وللاثنتين هلما ، وللجمع هلمن ، وقوله حى هل اي عجّل ، يقال حى هل بفلان ، بتسكين اللام ، وفتحها ، وتنوينها ، وباثبات النون معها ، ومنه قول ابن مسعود فى عمر بن الخطاب * اذا ذكر الصالحون فحىّ هلاً بعمر ، وفى حى هل لغات اخر اضربت عن ذكرها ، اذ ليس هذا موضع استيفاء شرحها ، فهذا تفسير الالفاظ اللغوية ، فاما تفسير الكنى الطفيليّة والكنايات الصوفيّة ، فابو يحيى كنية

كنية الموت ، وابو عمرة كنية الجوع ، ويكنى ايضا ابا مالك ، وابو جامع الخوان وابو نعيم الخبز الحوّاري ، وابو الحبيب الجدي ، وابو تقيق الخل ، وابو عون الملح ، وابو جميل البقل ، وام القري السكباج ، وام جابر الهريسة ، وام الفرج الجوذابة ، وابو رزين الخبيص ، وابو العلا الفالوذق وابو اياس الفسول ، والمرجفان الطست والابريق ، وابو السرو البخور *

المقامة العشرون الميافارقية

حكى الحارث بن همام قال ، يممت ميّافارقين ، مع رُفقة موافقين ، لا يهارون في المناجاة ولا يدرون ما طعم المداجاة ، فكنت بهم كمن لم يرم عن وجاره ، ولا ظعن عن الفه وجاره ، فلما انخنا بها مطايا التسيار ، وانتقلنا عن الاكوار الى الاوكار ، تواصينا بتذكارا لصُحبة ، وتناهينا عن التقاطع في الغربة ، واتّخذنا ناديا نعتمره طرفي النهار ، ونتهادي فيه طُرَف الاخبار ، فبينا نحن به في بعض الايام ، وقد انتظمنا في سلك الالتيام ، اذ وقف علينا ذو مِقولٍ جريّ ، وجرس جَهْوري ، فحيّا تحيّة نفّاثٍ في العُقد ، قنّاص للاسد والنقد ، ثم قال *

عندي يا قوم حديث عجيب ... فيه اعتبار للبيب الاريب
رايتُ في ريعان عُمري اخسا ... باس له حدّ الحُسام القضيب
يُقدم في المعترك اقدامَ من ... يوقن بالفتك ولا يستريب

فيفرج

Digitized by Google

فيفرج الضيق بكراته ... حتى يُري ما كان ضنكا رحيب
ما بارز الاقران الا انثنى ... عن موقف الطعن برمح خضيب
ولا سما يفتح مستصعبًا ... مستغلق الباب منيعًا مهيب
الّا ونودي حين يسهو له ... نصرٌ من الله وفتحٌ قريب
هذا وكم من ليلة باتها ... يبيس في برد الشباب القشيب
يرتشف الغيدَ ويرشفنه ... وهو لدي الكل المفدّي الحبيب
فلم يزل يبتزّه دهره ... ما فيه من بطش وعود صليب
حتى اصارته الليالي لقى ... يعافه من كان منه قريب
قد اعجز الراقي تحليل ما ... به من الداء واعيى الطبيب
وصارم البيض وصارمنه ... من بعد ما كان المجاب المجيب
وآض كالمنكوس في خلقه ... ومن يعش يلقَ دواهي المشيب
وها هو اليوم مسجّى فمن ... يرغب في تكفين ميتٍ غريب

ثم انه اعلن بالنحيب ، وبكا بكآ المحب على الحبيب ، ولما رقات دمعته وانفثأت لوعته ، قال يانجعة الرُّوّاد ، وقدوة الاجواد ، والله ما تطلقت بمهتان ، ولا اخبرتكم الّا عن عيان ، ولوكان في عصاي سيُر ، ولفيمي مُطير ، لاستأثرتُ بها دعوتكم اليه ، ولما وقفت موقف الدالّ عليه ، ولكن كيف الطيران بلا جَناح ، وهل على من لا يجد من جُناح ، قال الراوي فطفق القوم ياتمرون فيما يامرون ، ويتخافتون فيما ياتون ، فتوهم انهم على صرفه بحرمان ، او مطالبته ببرهان ، ففرط منه ان قال يا يلامع القاع ، وبرامع البقاع ، ما هذا الارتياح ، الذي ياباه الحياء ، حتى كانكم كلّفتم مشقّةً ، لا شُقّه ، اواستوهبتم

بلدة

بلدة ، لا بردة ، او هُززتم لكسوة البيت لا لتكفين ميت ، أفٍّ لمن لا تندي صفاته ، ولا ترشح حصاته ، فلما بصرت الجماعة بذلاقته ، ومرارة مذاقته ، رفاه كل منهم بنيله ، واحتمل طلّه خوف سيله ، قال الحارث بن همام ، وكان هذا السائل واقفًا خلفي ، ومحتجبًا بظهري عن طرفي ، فلما ارضاه القوم بسيبهم ، وحقّ عليّ التأسّي بهم ، خلجت خاتمي من خنصري ، ولفتُّ اليه بصري ، فاذا هو شيخنا السروجي بلا فريّة ، ولا مرية ، فايقنت انها اكذوبة تكذّبها ، واحبولة تصبها ، الّا اني طوبته على غرّه ، وصُنت ، شفاه عن فرّه ، فحصبته بالخاتم ، وقلت ارصده لنفقة المأتم ، فقال واهًا لك فما اضرم شعلتك ، واكرم فعلتك ، ثم انطلق يسعى قُدما ، ويهرول هرولته قِدما ، فنزعت الى عرفان ميته ، وامتحان دعوي حميّته ، فقرعت ظنبوبي ، والهبت ألهوبي ، حتى ادركته على غلوة ، واجتليته في خلوة ، فاخذت بجمع ارداني ، وعُقته عن سنن ميداني ، وقلت والله ما لك مني ملجاء ولا منجاء ، او تُريني ميتك المسجّى ، فكشف عن سراويله ، واشار الى غُرموله ، فقلت له قاتلك الله فما العبك بالتُّهَمى ، واحيلك على اللُّهَمى ، ثم عُدت الى اصحابي عود الرائد الذي لا يكذب اهله ، ولا يبرقش قوله ، فاخبرتهم بالذي رايت ، وما ورّيت ولا رايت ، فقهقهوا من كيت وكيت ، ولعنوا ذلك المبيت *

حدث

المقامة الحادية والعشرون الرازيّة

حدث الحارث بن همام قال ، عُنيت مذ احكمت تدبيري ، وعرفت قبيلي من دبيري ، بان أُصغي الى العظات ، وألغى الكلم المحفظات ، لاتحلّى بمحاسن الاخلاق ، واتخلّى مما يسم بالاخلاق ، وما زلت اخذ نفسي بهذا الادب ، واخمد به جمرة الغضب ، حتى صار التطبع فيه طباعا ، والتكلّف له هوي مُطاعا ، فلما حللت بالري وقد حللت حُبَى الغيّ ، وعرفت الحيّ من اللَيّ ، رايت بها ذات بكرة ، زُمرةً اثر زمرة ، وهم منتشرون انتشار الجراد ، ومستنّون استنان الجياد ، ومتواصفون واعظًا يقصدونه ، ويحلّون ابن سمعون دونه ، فلم يتكاءدني لاستماع المواعظ ، واختبار الواعظ ، ان اقاسي اللاغط ، واحتمل الضاغط ، فاصحبت اصحابَ المطواعة ، وانخرطت في سلك الجماعة ، حتى افضينا الى ناد جمع الامير والمأمور ، وحشد النبيه والمغمور ، وفي وَسَط هالته ، وَوسْط اهلّته ، شيخٌ قد تقوّس واقعنسس ، وتقلنس وتطلّس ، وهو يصدع بوعظ يُشفي الصدور ، ويلين الصخور ، فسمعته يقول ، وقد افتتنت به العقول ، ابن ادم ما اغراك بما يغرّك ، واضراك بما يضرّك ، والهجك بما يطفيك ، وابهجك بمن يُطريك ، تُعنى بما يُعنّيك ، وتُهمل ما يعنيك ، وتنزع عن قوس تعديك ، وترتدي الحرمَ الذي يُرديك ، لا بالكفاف تقتنع ، ولا من الحرام تمتنع ، ولا للعظات تستمع ، ولا بالوعيد ترتدع ، دابك ان تتقلب مع الاهوآ ، وتخبط خبط

حبط العشواء ، وهمّك ان تدأب فى الاحتراث ، وتجمع التراث للوارث ، يعجبك التكاثر بها لديك ، ولا تذكر ما بين يديك ، وتسعى ابدا لغاريك ، ولا تبالى الاثم عليك ، اتظنّ ان ستترك سُدًى ، وان لا تُحاسب غدا ، ام تحسب ان الموت يقبل الرُّشا ، او يميّز بين الاسد والرِّشا ، كلّا والله لن يدفع المنون ، مال ولا بنون ، ولا ينفع اهل القبور ، سوى العمل المبرور ، فطوبى لمن سمع ووعى ، وحقق ما ادّعى ، ونهى النفس عن الهوى ، وعلم ان الفائز من ارعوى ، وان ليس للانسان الّا ما سعى ، وان سعيه سوف يُرى ، ثم انشد انشادَ وجِل ، بصوت زجل *

لعمرك ما تُغنى المغانى ولا الغنى ... اذا سكن المُثرى الثرى وثوى به
فجِد فى مراضى الله بالمال راضيًا ... بما يقتنى من اجره وثوابه
ويادر به صرفَ الزمان فانه ... بمخلبه الاشغى يغول ونابه
ولا تامن الدهرَ الخؤون ومكرَه ... فكم خامل اخنى عليه ونابه
وعاصِ هوى النفس الذى ما اطاعه ... لخوضلة الّا هوى من عقابه
وحافظ على تقوى الاله وخوفه ... لتنجو ممّا يُتّقى من عقابه
ولا تلهَ عن تذكار ذنبك وابكِه ... بدمع يضاهى المُزنَ حال يصابه
ومثِّل لعينيك الحمامَ ووقعه ... وروعة ملقاه ومطعمَ صابه
فانّ قصارَى مسكن الحىّ حفرةٌ ... سينزلها مستنزلاً عن قبابه
فواهًا لعبد ساءه سُوفعاله ... وابدى التلافى قبل اغلاق بابه

قال فظلّ القوم بين عبرة يذرونها ، وتوبة يظهرونها ، حتى كادت الشمس تزول ، والفريضة تعول ، فلما خشعت الاصوات ، والتام الانصات

الانصات ، واستكنّت العبرات والعبارات ، استصرخ مستنصرخ بالامير الحاضر ، وجعل يجأر اليه من عامله الجابر ، والامير صاغٍ الى خصمه ، لاهٍ عن كشف ظلمه ، فلما أيس من روحه ، استنهض الواعظ لنصحه ، فنهض نهضة الشهير ، وانشد معرّضاً بالامير *

عجبًا لمراجٍ ان ينال ولا يـةً ... حتى اذا ما نال بغيتَهُ بغا
يُسدي ويلحم في المَظالم والغًا ... في وردها طورًا وطورًا مولغا
ما ان يبالي حين يتّبع الهوي ... فيها اأصلح دينه ام اوتغا
يا ويحه لو كان يعلم انه ... ما حالةٌ الّا تحول لما طغا
او لو تبيّن ما ندامة مَن صغى ... سمعًا الى إفك الوُشاة لما صغا
فلانقد لمن اضحى الزمامُ بكفّه ... وتغاضَ ان الغى الرعاية او لغا
وارعَ المرار اذا دعاك لرعيه ... وردُ الاجاج اذا حماك السيّغا
واحمل اذاه ولو امضّك مسّهُ ... واسال غربَ الدمع منك وافرغا
فليُضحكنك الدهرُ منهُ اذا نبا ... عنه وشبّ لكيده نار الوغا
وليبزلن به الشهاتَ اذا بدا ... متخلّيًا من شغله متفرّغا
ولتاوينّ له اذا ما خدّه ... اضحى على تُرب الهوان ممرّغا
هذا له ولعوف يوقَ موقفًا ... فيه يُرى ربُّ الفصاحة الثغا
وليُحشَرن اذلّ من قمع الفلا ... وبحا سَبن على النقيصة والشغا
وبواخذن بما اجتبى ومن اجتبى ... وبطالبن بما احتسى وبما ارتغا
وبُناقشن على الدقايق مثل ما ... قد كان يفعل بالوري بل ابلغا
حتى يعضّ على الولاية كفّه ... ويودّ لو لم يبغ منها ما بغا

ثم قال ايها المتوشح بالولاية ، المتشرح للرعاية ، دع الادلال بدولتك

Digitized by Google

بدولتك ، والاغترار بصولتك ، فان الدولة ريحٌ فُلّب ، والقدرة برق خُلّب ، وان اسعد الرُعاة مَنْ سعدت برِ رعيّته ، واشقاهم في الدارين من ساءت رعايته ، فلا تكُ ممن يذر الاخرة ويُلغيها ، ويحبّ العاجلة ويبتغيها ، ويظلم الرعيّة ويؤذيها ، واذا تولّى سعى في الارض ليفسد فيها ، فوالله ما يغفل الديّانَ ، ولا تُلغى الإساءة والاحسان ، ولا تُهمَل يا انسان ، بل سيوضع لك الميزان ، وكما تدين تُدان ، قال فوجم الوالي لما سمع ، وامتقع لونه وانتقع ، وجعل يتأفّف من الامرة ويُرهف الزفرة بالزفرة ، ثم عمد الى الشاكي فاشكاه ، والى المشكو منه فاشجاه ، والطف الواعظ وحباه ، وعزم عليه ان يغشاه ، فانقلب عنه المظلوم منصورا ، والظالم محصورا ، وبرز الواعظ يتهادى بين رفقته ، ويتباهى بفوز صفقته ، واعتقبته اخطو ، متقاصرا ، وأُريه لمحاً باصرا ، فلما استشقّ ما أُخفيه ، وفطن لتقلّب وجهي فيه ، قال خير دليلك من ارشد ، ثم اقترب مني وانشد *

انا الذي تعرفه يا حارثُ ... حدثُ ملوكٍ فكهٌ منافثُ
أُطربُ ما لا تطرب المثالثُ ... طوراً اخو جِدٍّ وطوراً عابثُ
ما غيّرتني بعدك الحوادثُ ... ولا التحى عودي خطبٌ كارثُ
ولا فري نابي جَدٌّ فارثُ ... بل مخلبي بكل صيدٍ ضابثُ
وكل سَرحٍ فيه ذيبي عابثُ ... حتى كاني للانام وارثُ
سأمُهم وحامهم ويأفثُ

قال الحارث بن همام ، فقلت تالله انك لابو زيد ، ولقد قمت لله ولا عمرو بن عُبيدٍ ، فهشّ هشاشة الكريم اذا أُمّ ، وقال اسمع يا ابن أمّ *

عليك

عليك بالصدق ولو انه احرقك الصدق بنار الوعيد
وابغ رضى الله فاغبى الورى من اسخط المولى وارضى العبيد

ثم انه ودّع اخدانه ، وانطلق يسحب ارداله ، فطلبناه من بعد بالريّ ، واستنشرنا خبره من مدارج الطّى ، فما فينا من عرف قراره ، ولا درى ايُّ الجراد عاره *

المقامة الثانية والعشرون الفراتيّة

حكى الحارث بن همام قال ، اويت فى بعض الفترات الى سقْى الفُرات ، فلقيت بها كُتَّابًا ابرع من بنى الفُرات ، واعذب اخلاقًا من الماء الفُرات ، فاطفت بهم لتهذّبهم ، لا لذهبهم ، وكاثرتهم لادبهم ، لا لمآدبهم ، فجالست منهم اضراب القعقاع بن شَور ، ووصلت بهم الى الكور ، بعد الحور ، حتى انهم اشركونى فى المرتع والمربع ، واحلّونى محلّ الانملة من الاصبع ، واتّخذونى ابن انسهم عهْدَ الولاية والعزل ، وخازن سرّهم فى الجدّ والهزل ، فاتّفق ان نُدِبوا فى بعض الاوقات ، لاستقراء مزارع الرزدقات ، فاختاروا من الجواري المُنشيات ، جاريةً حالكة الشِيات ، تحسبها جامدةً وهى تمرّ مرّ السحاب ، وتنساب فى الحِباب كالحُباب ، ثم دعونى الى الموافقة ، واستدعونى للمرافقة ، فما توركنا على المطية الدهماء ، وتبطّنّا الوليّة الماشية على الماء ، الفينا بها شيخا عليه سحقُ سربالٍ ، وسبُّ

بال

بالٍ ، فعافت الجماعة محضرَه ، وعنّفت مَنْ احضرهُ ، وهمّت بابرازه من السفينة ، لولا ما ثاب اليها من السكينة ، فلما لمح منا استثقالَ ظلّه ، واستبراء طَلّه ، تعرَّض للمنافثة فصُمّت ، وجعل بعد ان عطس فما شُمّت ، فاخذ ينظر فيما آلت حاله اليه ، وينتظر نصْرة المبغيّ عليه ، وجُلنا نحن فى شجون ، من جِدّ ومجون ، الى ان اعترض ذكر الكتابتين وفضلهما ، وتبيان افضلهما ، فقال قائل ان كتبة الانشآء انبل الكُتّاب ، ومال مائل الى تفضيل الحُسّاب ، واحتدّ الحِجاج ، وامتدّ اللَجاج ، واشتدّ الضِجاج حتى اذا لم يبقَ للجِدال مطرح ، ولا للمِراء مسرح ، قال الشيخ ياقوم لقد اكثرتم اللفظ ، واثرتم الصوابَ والغلط ، وان جليّة الحُكم عندي ، فارتضوا بنقدي ، ولا تستفتوا احدًا بعدي ، اعلموا ان صناعة الانشآء ارفع ، وصناعة الحساب انفع ، وقلم المكاتبة خاطب ، وقلم المحاسبة حاطب ، واساطير البلاغات تُنسَخ لتُدرَس ، ودساتير الحسبانات تُنسَخ وتُدرس ، والمنشى جُهينة الاخبار ، وحقيبة الاسرار ، ونجيّ العظمآء وكبير الندمآء ، وقلمه لسان الدولة وفارس الجولة ، ولقمان الحكمة وترجمان الهمّة ، وهو البشير والنذير ، والشفيع والسفير ، وبه تُستخلص الصياصى ، وتُملك النواصى ، ويقتاد العاصى ، ويُستدنى القاصى ، وصاحبه برئ من التبعات ، آمن كيدَ السعاة ، مقرَّظ بين الجماعات ، غير معرَّض لنظم الجُماعات ، فلما انتهى فى الفصل ، الى هذا الفصل ، لحظ من لمحات القوم ، انه ازدرع حُبًّا وبغضاً ، وارضى بعضاً ، واحفظ بعضاً ، فعقّب كلامه بان قال إلّا ان صناعة الحساب موضوعة على التحقيق ، وصناعة الانشآء مبنيةٌ

مبنيةٌ على التلفيق ، وقلم الحساب ضابط ، وقلم الانشاء خابط ، وبين اناوة توظيف المعاملات ، وتلاوة طوامير السِّجلَّات ، بونٌ لا يدركه قياسٌ ، ولايعْتورُه التباس ، اذ الاناوة تهلا الاكياس ، والتلاوة تفرّغ الراس ، وخَراج الاوارج يُغنى الناظرَ ، واستخراج المدارج يعنّى الناظر ، ثم ان الحسبة حفظة الاموال ، وحملة الاثقال ، والنقلة الاثبات ، والسفرة الثقات ، واعلام الانصاف والانتصاف ، والشهود المقانع فى الاخلاف ، ومنهم المستوفى الذي هو يد السلطان ، وقطب الديوان ، وقسطاس الاعمال ، والمهيمن على العُمّال ، واليه المآب فى السِلم والهرج ، وعليه المدار فى الدخل والخرج ، وبه مناط الضرّ والنفع ، وفى يده رباط الاعطآ والمنع ، ولولا قلم الحساب لاَوْدت ثمرةُ الاكتساب ، ولاتّصل التغابُن الى يوم الحساب ، ولكان نظام المعاملات محلولا ، وجُرح الظُلامات مطلولا ، وجيد التناصف مغلولا ، وسيف التظالم مسلولا ، على ان يراع الانشآ متقوّل ، ويراع الحساب متأوّل ، والمحاسب مناقش ، والمنشى ابو براقش ، ولكليهما حُمة حين يرقى ، الى ان يُلقى ويُرقى ، واعناتٌ فيما ينشى ، حتى يُغشى ويُرشى ، إلاَّ الذين امنوا وعملوا الصالحات ، وقليل ما هم ، قال الحارث بن همام ، فلما امتع الاسماع ، بما راق وراع ، استنسبناه فاستراب ، وابى الانتساب ، ولو وجد مُنسابًا لانساب ، فحصلتُ من لبسه على غُمّة ، حتى اذّكرت بعد امّة ، فقلت والذي سخّر الفلك الدوّار ، والفُلك السيّار ، انى لاَجد ريح ابى زيد ، وان كنتُ اعهدُه ذا رُواءٍ وأَيد ، فتبسّم ضاحكا من قولى ، وقال انا هو على استحالة حالى وحولى ، فقلت لاصحابى هذا الذي لايُفرى

Digitized by Google

لا يُفري فَرِيَّهُ ، ولايُباري عَبْقَرِيَّهُ ، فخطبوا منه الوَدّ ، وبذلوا له الوجد ، فرغب عن الإلفة ، ولم يرغب في التحفة ، وقال اما بعد ان سَحَقتم حقى ، لاجل سَحقى ، وكسفتم بالى ، لإخلاق سربالى ، فما اراكم الاَّ بالعين السخينة ، ولا لكم منى الاَّ صحبة السفينة ، ثم انشد *

اسمع أُخيَّ وصيَّةً من ناصح ... ما شاب محضَ النصح منه بغشِّهِ
لا تعجلنَّ بقضيَّةٍ مبتوتةٍ ... في ملح مَن لم تبلهُ او خبشهِ
وقِف القضيَّة فيه حتى تَجتلى ... وصْفيه في حالى رضاه وبطشهِ
ويبين خُلّبُ برقهِ من صِدقهِ ... للشائِمين ووبلُه من طَشِّهِ
فهناك ان تر ما يشين فواره ... كرمًا وان ترما يزين فافشهِ
ومن استحق الارتقاء فرقّهِ ... ومن استحطّ فحطّه في حَشِّهِ
واعلم بان التبر في عرق الثري ... خافٍ الى ان يستثار بنبشهِ
وفضيلة الدينار يظهر سِرُّها ... من حكّه لامن ملاحة نقشهِ
ومن الغباوة ان تعظّم جاهلاً ... لصقال ملبسه ورَوْنق رقشهِ
او ان تُهين مهذّبًا في نفسهِ ... لدروس بزّته ورثّة فرشهِ
ولكم اخٍ طمرين هيب لفضله ... ومُفوّفِ البردين عيب لفُحشه
واذا الفتى لم يَغشَ عارًا لم تكن ... اسماله الاَّ مرا قي عرشهِ
ما ان يضرّ العضبَ كونُ قرابه ... خلقًا ولا البازي حقارة عُشِّيهِ

ثم ما عَتَّمَ ان استوقف المَلاَّح ، وصعد من السفينة وساح ، فتلدم كلٌّ منا على ما فرّط في ذاته ، واغضى جفنه على قذاته ، وتعاهدنا على ان لا نحتقر شخصًا لرثاثة برده ، ولا نزدري سيفًا مخبوًّا في غِمده *

Digitized by Google

المقامة الثالثة والعشرون الشعريّة

حكى الحارث بن همام قال ، نبا بي مألفُ الوطن ، في شرخ الزمن ، لخطبٍ خُشى ، وخوف غَشى ، فأرقتُ كاس الكرى ، ونصصتُ ركاب السُّري ، وجُبت في سيري وعوراً لم تُدمّثها الخطآ ، ولا اهتدت اليها القطآ ، حتى وردت حمى الخلافة ، والحرم العاصم من المخافة ، فسروت ايجاسَ الروع واستشعاره ، وتسربلت لباس الامن وشعاره ، وقصرت همّي على لذّة اجتنيها ، وملحة اجتليها ، فبرزت يوماً الى الحريم لأروض طِرفي ، واجيل في طُرَفه طَرفي ، فاذا فرسانٌ متتالون ، ورجالٌ متثالون ، وشيخ طويل اللّسان ، قصير الطيلسان ، قد لبّب فتىً جديد الشباب ، خلق الجلباب ، فركضت اثر النظّارة ، حتى وافينا باب الامارة ، وهناك صاحب المعونة متربعاً في دسته ، ومروّعاً بسمته ، فقال له الشيخ أعزّ الله الوالي ، وجعل كعبه العالي ، اني كفلت هذا الغلام فطيما ، وربّيته يتيما ، ثم لم آلُ تعليما ، فلما مهر وبهر ، جرّد سيف العدوان وشهر ولم اخلُ يلتوي عليّ ويتّقح ، حين يرتوي مني ويلتقح ، فقال له الفتى علامَ عثرت مني ، حتى تنشر هذا الخزي عني ، فاني ما سترت وجه برّك ، ولا هتكت حجاب سرّك ولا شققت عصا امرك ، ولا الغيت تلاوة شكرك ، فقال له الشيخ واي ريب اخزي من ريبك ، وهل عيبٌ افحش من عيبك ، وقد ادّعيت سحري واستلحقته ، وانتحلت شعري واسترقته ، واستراق الشعر عند الشعراء ، افظع من

سرقة

سرقة البيضآء والصفرآء ، وغيرتهم على بنات الافكار ، كغيرتهم على البنات الابكار ، فقال الوالي للشيخ وهل حين سرق سلخ ، او مسخ او نسخ ، فقال والذي جعل الشعر ديوان العرب ، وترجمان الادب ، مآ احدثه سوي ان بتر شهل شرحه ، واغار على ثلثي سرحه ، فقال له انشد ابياتك برمّتها ، ليضع ما اختاره من جملتها ، وانشد *

يا خاطب الدنيا الدنية انها ... شرك الردي وقرارة الاكدار
دارٌ متى ما اضحكت في يومها ... ابكت غدا بُعدًا لها من دار
واذا اظلّ سحابها لم ينتقع ... منه صداي لجهامه المغرار
غاراتها ما تنقضي واسيرها ... لا يفتدي بجلائل الاخطار
كم مُرهفٍ بغرورها حتى بدا ... متعرّدا متجاوز المقدار
قلبت لظهر المجنّ واولغت ... فيه المُدى ونزت لاخذ الثار
فارثِ لعمرك ان بهرّ مضيّعًا ... فيها سدىً من غير ما استظهار
واقطع علائق حبّها وطلابها ... تلق الهدى ورفاهة الاسرار
وارقب اذا ما سالمت من كيدها ... حرب العدى وتوثّبه الغدّار
واعلم بان خطوبها تفجا ولو ... طال المدى ووتك سُري الاقدار

فقال له الوالي ثم ما صنع هذا ، قال اقتدم للوعد في الجزآء ، على ابياتي العداسية الاجزآء ، فحذف منها جزءين ، ونقّص من اوزانهما وزنين ، حتى صار الرُّزءُ فيهما رزءين ، فقال بيّن ما اجملت من اين فلة ، فقال ارعني سمعك ، واخلِ للتفهم منك ذرعك ، حتى تتبيّن كيف اصلت عليّ ، وتقدّر قدر اجتراره الليّ ، ثم انشد وانفاسه تتصعّد *

يا خاطب الدنيا الدنيّة انها ... شرك الردي

دارٌ

دارٌ متى ما اضحكت ... في يومها ابكيت غدا
واذا اظل سحابها ... لم يفتقع ملء صدي
غدراتها ما تنقضي ... والسير فيها لا يفيد
كم مزدهى بغرورها ... حتى بدا متبهدا
قلبت له ظهر المجن ... واولغت فيه المدى
فاربا بمعمرك ان يمتر ... مضيعا فيها سدي
واقطع علايق حبها ... وطلابها تلق الهدي
وارقب اذا ما سالمت ... من كيدها حرب العدا
واعلم بان خطوبها ... تفجا ولو طال المدى

فالتفت الوالي الى الغلام ، وقال قبّالك من خريج مارق ، وتلميذ سارق ، فقال الفتى بريت من الادب وبنيه ، ولحقت بهن بناويه ، وبقوض مبانيه ، ان كانت ابياته نبت الى عملي ، قبل ان اسّفت نظمي ، وانها اتفق تواردُ الخواطر ، كما يقع الحافر على الحافر ، قال فكان الوالي جوّز صدق زعمه فندم على بادرة فمّه ، وظل يفكر فيها يكشف له عن الحقايق ، ويميز به الفائق من المائق ، فلم ير الّا اخذهما بالمناضلة ، والّفهما في قرن المساجلة ، فقال لهما ان اردتما افتضاح العاطل ، واتّضاح الحق من الباطل ، فتراسلا في النظم وتباريا ، وتجاولا في حلبة الاجازة وتجاريا ، ليهلك من هلك عن بيّنة ، ويحيى من حيي عن بينة ، فقالا له بلسان واحد ، وجواب متوارد ، قد رضينا بسبرك فمرنا بامرك ، فقال اني مولع من انواع البلاغة بالتجنيس ، واراه لها كالرئيس ، فانظما الان عشرة ابيات تلحما نهابوشيه ، وترصّعانها بحليه

Digitized by Google

بحليه ، وصمّناها شرح حالى مع إلفى لى بديع الصنعة ، أملى الشفة ، مليح التثنّى ، كثير التنيه والتحنّى ، مفرّى بتناسى العهد ، واطالة الصدّ ، واخلاق الوعد ، وانا له كالعهد ، قال فبرز الشيخ مجليا وتلاه الفتى مُصليًا ، وتجاريا بيتًا فبيتًا على هذا النسق ، الى ان كمل نظم الابيات واتّسق ، وهى *

واحوي حوي رقّى برقّة لفظه ... وعادنى الفَ الهُمهاد لغدره
تصدّى لقتلى بالصدود وانثنى ... لفى أُسره مذ حاز قلبى باسره
اصدّق منه الزور خوف ازوراره ... وارضى استماع الهُجر خشيةَ هَجره
واستعذب التعذيب منه وكلما ... أجدّ عذابى جدّ بى حبّ برّه
تناسى ذمامى والتناسى مذمّة ... واحفظ قلبى وهو حافظ سرّه
واعجبُ ما فيه التباهى بعُجبه ... واكبرُه عن ان افوهَ بكِبْره
له منى المدح الذي طاب نشره ... ولى منه طلّ الودّ من بعد نشره
ولوكان عدلا ما تجنّى وقد جنى ... علىّ وغيري يجتنى رشف ثغره
ولولا تثنّيه ثنيت اعنّتى ... بدارًا الى من اجتلى نورَ بدره
وانى على تصريف امري وامره ... ارى المرّ حلوًا فى انقيادي لامره

فلما انشداها الوالى متراسلين ، بُهت لذكايهما المتعادلين ، وقال اشهد بالله انكما فرقدا سماء ، وكنزا ندين فى وعاء ، وان هذا الحدث لينفق مما اتاه الله ، ويستغنى بوحده عمن سواه ، فتُثب ايها الشيخ من اتّهامه وثب الى اكرامه ، فقال الشيخ هيهات ان تُراجعه مقتى ، او تعلق به ثقتى ، وقد بلوت كفرانه للصنيع ، ومُنيت منه بالعقوق الشنيع ، فاعترضه الفتى وقال له يا هذا ان اللجاج شُؤم ، والحنق لؤم

لؤم ، وتحقيق الظنّة اثم ، واعنات البريء ظلم ، وهٰبنى اقترفت جريرة او اجترحت كبيرة ، اما تذكر اذ انشدتنى لنفسك فى إبّان انسك ،

سامح اخاك اذا خلط ... منه الاصابة بالغلط
وتجافَ عن تعنيفه ... ان زاغ يومًا اوقسط
واحفظ صنيعك عنده ... شكر الصنيعة ام غمط
واطِعه ان عاصى وهُن ... ان عزّ وادنُ اذا شحط
واقن الوفا ولو اخلّ ... بها اشترطتَ وما اشترط
واعلم بانك ان طلبت ... مهذّباً رمت الشطط
من ذا الذي ما ساء قط ... ومن له الحُسنى فقط
او ما تري المحبوب والـ ... ـمكروه لُزّا فى نمط
كالشوك يبدو فى الغصو ... ن مع الجنىّ الملتقط
ولذاذة العمر الطويل ... تشوبها نغص الشمط
ولو انتقدت بنى الزما ... ن وجدت اكثرهم سقط

قال فجعل الشيخ ينضنض نضنضة الصِلّ ، ويحملق حملقة البازي المطلّ ، ثم قال والذي زيّن السماء بالشُهب ، وانزل الماء من السحب ما روعى عن الاصطلاح ، الّا لتوقّى الافتضاح ، فان هذا الفتى اعتاد ان امونه ، واراعى شؤونه ، وقد كان الدهر يسحّ ، فلم اكن اشح فامّا الان فالوقت عبوس ، وحشو العيش بوس ، حتى انّ بزّتى هذه عارة ، وبيتى لا تطور به فارة ، قال فرقّ لهما قلب الوالى ، وآوي لهما من غير الليالى ، وصبا الى اختصاصهما بالاسعاف ، وامر النظّارة بالانصراف ، قال الراوي وكنت متشوفا الى مراي الشيخ لعلى

لعلّي اعلم علمه ، اذا عاينتُ وسمه ، ولم يكن الزحام يسمح عنه ، ولا يفرج لي فادنو منه ، فلما تقوّضت القصوف ، واجفل الوقوف ، توسمته فاذا هو ابو زيد والفتى فتاه ، فعرفت حينيئذ مغزاه فيما اتاه ، وكدت انقضّ عليه لاستعرف اليه ، فزجرني بايماض طرفه ، واستوقفني بايماء كفّه ، فلزمت موقفي ، واخّرت منصرفي فقال الوالي ما مرامك ، ولاي سبب مقامك ، فابتدره الشيخ وقال انه انيسي وصاحب ملبوسي ، فتسمح عند هذا القول بتانيسي ، ورخّص في جلوسي ، ثم افاض عليهما خلعتين ، ووصلهما بنصاب من العين ، واستعهدهما ان يتعاشرا بالمعروف ، الى اظلال اليوم المخوف ، فنهضا من ناديه ، مشيدين بشكر اياديه ، وتبعتهما لاعرف مثواهما ، واتزود من نجواهما ، فلما اجزنا حمى الوالي ، وافضينا الى الفضاء الخالي ، ادركني احد جلاوزته ، مهيباً لي الى حوزته ، فقلت لابي زيد ما اظنّه استحضرني ، الا ليستخبرني ، فماذا اقول وفي اي وادٍ معه اجول ، فقال بيّن له غباوة قلبه ، وتلعابي بلبّه ، ليعلم ان ريحه لاقت اعصاراً ، وجدْوله صادف تيّاراً ، فقلت اخاف ان يتّقد غضبُه ، فيلفحك لهبه ، او يستشري طيشه ، فيسري اليك بطشه ، فقال اني ارحل الان الى الرُها ، وانّى يلتقي سُهيل والسُها ، فلما حضرت الوالي وقد خلا مجلسُه ، وانجلى تعبّسه ، اخذ يصف ابا زيد وفضله ، ويذمّ الدهر له ، ثم قال نشدتك الله الست الذي اعاره الدست ، فقلت والذي اجلسك في هذا الدست ، ما انا بصاحب ذلك الدست ، بل انت الذي تم عليه الدست ، فازورّت مقلتاه واحمرّت وجنتاه ، وقال والله

ما

ما اعجزني قط فضح ريبة ، ولا تكشيف معيب ، ولكن ما سمعت بان شخصاً دلّس ، بعد ما تطلّس ، فبهذا تمّ له انَ لبّس ، فما كنية ذلك القريد ، فقلت ابو زيد ، فقال انه بابى كيد ، اليق منه بابى زيد ، افتدري اين سكن ذلك الكم ، فقلت اشفق منك لتعدي طوره ، فظعن عن بغداذ من فوره ، فقال لا قرّب الله نوي ، ولا كلأه اين ثوي ، فما زاولت اشدّ من نكره ، ولا فقت امرّ من مكره ، ولولا حرمة الامد ، لاوغلت في طلبه ، الى ان يقع فوقع به ، واني لاكره ان تشيع فعلته بهذينة السلام ، فاقتضح بين الانام ، وتحبط مكانتي عند الامام واصير ضحكة الخاص والعام ، فعاهدني على ان لا اتفوّه بها اعتمد ، ما دمت خلاً بهذا البلد ، قال الحارث بن همام فعاهدته معاهدة من لا يتأوّل ، ووفيت له كما وفى السهوّل *

المقامة الرابعة والعشرون القطيعيّة

حكى الحارث بن همام قال ، عثرت بقطيعة الربيع ، في ايّان الربيع ، فتية وجوههم ابلج من انواره ، واخلاقهم ابهج من ازهاره ، والفاظهم ارقّ من نسيم اسحاره ، فاجتليت منهم ما يزري على الربيع الزاهر ، ويغني عن رنّات المزاهر ، وكنّا نتقاسمها على حفظ الوداد ، وحظر الاستبداد ، والّا ينفرد احدنا بالتذاذ ، ولا يستأثر ولو برذاذ ، فاجمعنا في

فى يوم سهـا دجنـه ، ونها حسنـه ، وحكـم بالاصطباح مُزنه ، على ان نلتهى بالخروج ، الى بعض المروج ، لنسرح النواظر فى الرياض النواضر ، ونصقل الخواطر بشيم المواطر ، فبرزنا ونحن كالشهور عدّةً وكندمانى جَذيمة مودّةً ، الى حديقة اخذت زخرفها وازّينت ، وتنوّعت ازاهرها وتلوّنت ، ومعنا الكميت الشّموس والسُقاة الشُموس ، والشادي الذي يطرب السامع ويلهيه ، ويقرب كلّ سمعٍ ما يشتهيه ، فلما اطمأن بنا الجلوس ، ودارت علينا الكؤوس ، وغل علينا ذمرٌ ، عليه طِمرٌ ، فتجهّمناه تجهّم الغيد الشيب ، ووجدنا صفو يومنا قد شيب ، الا انه سلّم تسليم اولى الفهم ، وجعل يفضّ لطايم النثر والنظم ، ونحن ننزوي من انبساطه ، وننبري لطىّ بساطه ، الى ان غنّى شادينا المُغرب ، ومغردنا المطرب ❊

الامَ سُعادُ لا تصلين حبلى ... ولا تاوين لى مّما الاقى
صبرتُ عليكِ حتى عيل صبري ... وكادت تبلغ الروح التراقى
وها انا قد عزمت على انتصاف ... أُساقى فيه خِلّى ما يساقى
فان وصلا الذّ به فوصلٌ ... وان صرمًا فصرمٌ كالطلاق

قال فاستفهمنا العابث بالمثانى ، لِمَ نصب الوصلَ الاول ورفع الثانى ، فاقسم بتُربة ابوَيْه ، لقد نطق بما اختاره سيبَوَيْه ، فتشعّبت حينيذٍ آرآ الجمع ، فى تجويز النصب والرفع فقالت فِرقةٌ رفعهما هو الصواب ، وقالت طايفة لا يجوز فيهما الّا الانتصاب ، واستبهم على اخرين الجواب ، واستعر بينهما الاصطخاب ، وذلك الواغل يُبدي ابتسامَ ذى معرفةٍ ، وان لم يفُه ببنت شَفَة ، حتى اذا سكنت الزماجر وصمت

المزجور

المزجور والزاجر، قال يا قوم انا انبّيكم بتاويله ، وامیّز صحيح القول من عليله ، انه ليجوز رفعُ الوصليين ونصبهما ، والمغايرةُ فى الاعراب بينهما ، وذلكم بحسب اختلاف الاضمار ، والتقدير المحذوف فى هذا المضمار ، قال ففرط من الجماعة افراط فى مهاراته ، وانخراطٌ الى مباراته ، فقال أمّا اذ دعوتم نزالِ ، وتلبّبتم للنضال ، فما كلمة هى ان شيتم حَرفٌ محبوب ، او اسمٌ لما فيه حرفٌ حلوب ، واي اسم يتردّد بين فردٍ حازم ، وجمع ملازم ، وأيّةُ هاءٍ اذا التحقت اماطت الثقل ، واطلقت المعتقل ، وايـن تدخل السينُ فتعزل العاملَ ، من غير ان تجامل ، وما منصوبٌ ابدًا على الظرف ، لا يخفضُه سوي حرفٍ ، واي مضافٍ اخلّ من عرى الاضافة بعروة ، واختلف حكمه بين مساءٍ وغدوة ، وما العامل الذي يتّصل اخرُه باوله ، ويعمل معكوسه مثل عمله ، واى عاملٍ نايبُه ارحب منه وكرًا ، واعظم مكرًا ، واكثر لله تعالى ذكرا ، وفى اي موطن تلبس الذكران براقعَ النسوان ، وتبرز ربّات الحجال ، بعمايم الرجال ، وايـن يجب حفظ المراتب على المضروب والضارب ، وما اسمٌ لا يفهم الا باستضافة كلمتين ، او الاقتصار منه على حرفين ، وفى وضعه الاول التزامٌ ، وفى الثانى الزام ، وما وصفٌ اذا أُردِف بالنون نقص صاحبُه فى العيون ، وقُوِّم بالدُّون ، وحزج من الزبون ، وتعرض للهون ، فهذه ثِنتا عشرة مسئلة وفق عددكم ، وزنة لددكم ، ولو زدتم زدنا ، وان عُدتم عدنا ، قال المخبر بهذه الحكاية ، فورد علينا من احاجيه اللاتى هالت لما انهالت ، ما حارت له الافكار وحالت ، فلما اعجزنا العومُ فى بحره ، واستسهلت تهايُمنا لسحره ، عدلنا من استثقال الروية له الى استنزال الرواية عنه ، ومن

بغى

بغى التبرّم به ، الى ابتغآ التعلّم منه ، فقال والذي نزّل النحو فى الكلام ، منزلة الملح فى الطعام ، وحجب مطالعة عن بصاير الطغام ، لا اتلتكم مرامًا ، ولا شفيت لكم غرامًا ، او تخوّلنى كلّ يدٍ ، ويختصّنى كل منكم بيده ، فلم يبقَ فى الجماعة الّا من اخمن لهكه ، ونبذ اليد خُبأة كمّه ، فلما حصّله تحت وكابد اضرم شعلة ذكائه فكشف حينيذٍ من اسرار المعازه ، وبدايع اعجازه ، ما جلا به صداء الاذهان ، وجلّى مطلعه بنور البرهان ، قال الراوي فهمنا حين فهمنا وعجبنا اذ اُعجبنا ، وندمنا على ما نلّ منا ، فاخذنا نعتذر اليه اعتذار الاكياس ، ونعرض عليه ارتضاع الكاس ، فقال مآربُ لا صفاوة ومشربٌ لم يبق له عندي حلاوة ، ثم شمخ بانفه صلفا ، وناى بجانبه انفا وانشد *

نهانى الشيب عما فيه افراحى ... فكيف اجمع بين الراح والراح
وهل يجوز اصطباحى من معتّقةٍ ... وقد انار مشيبُ الراس اصباحى
البيت لا خامرتنى الخمرُ ما علقت ... روحى بجسمى والفاظى بافصاح
ولا اكتستْ لى بكاسات السُلاف يدٌ ... ولا أجلستْ قداحى بين اقداحى
ولا صرفتُ الى صرفٍ مشعشعةٍ ... همّى ولا رُحت مرتاحًا الى راح
ولا نظمت على مشمولةٍ ابدًا ... شملى ولا اخترت ندمانا سوى الصاح
محى المشيب مراحى حين خطّ على ... راسى فابغض به من كاتبٍ ماحى
ولاح يلحى على جرّي العنان الى ... مُلهىً فسُحقًا له من لايحٍ لاحٍ
ولو لهوت وفودي شايب لخبا ... بين المصابيح من غسان مصباحى
قومٌ سجاياهم توقير ضيفهم ... والشيب ضيفٌ له التوقير يا صاح

ثم انه انساب انسياب الايم واجفل اجفال الغيم فعلمت انه سراجُ سَروجَ وبدر الادب الذي يجتاب البروج وكان قُصارانا التحرّق لبعده ، والتفرق من بعده *

تقسير

Digitized by Google

تفسير ما اودع هذه المقامة من النكت العربيّة والاحاجي النحويّة

اما صدر البيت الاخير من الاغنية الذي هو فان وصلاً الذ به فوصلٌ ، فانه نظير قولهم المرء مجزي بعمله ، ان خيرًا فخيرٌ ، وان شرًا فشرٌ ، وهذه المسئلة قد اودعها سيبويه كتابه ، وجوّز في اعرابها اربعة اوجه ، احدها وهو اجودها ان تنصب خيرًا الاول ، وترفع الثاني وتنصب شرًا الاول وترفع الثاني فيكون تقديره ان كان عمله خيرًا فجزاؤه خيرٌ ، وان كان عمله شرا ، فجزاؤه شرٌ ، فينتصب الاول على انه خبر كان ، ويرتفع الثاني على انه خبر مبتدا محذوف ، وقد حذفت في هذا الوجه كان واسمها ، لدلالة حرف الشرط الذي هو ان على تقديرهما وحذفت ايضًا المبتدا للدلالة الفاء التي هي جواب الشرط عليه لانه كثيرًا ما يقع بعدها ، والوجه الثاني ان تنصبهما جميعًا ، ويكون تقدير الكلام ان كان عمله خيرًا ، فهو يُجزى خيرًا ، وان كان عمله شرًا ، فهو يجزى شرًا ، فينتصب الاولُ على انه خبر كان ، وينتصب الثاني انتصاب المفعول به ، الوجه الثالث ان ترفعهما جميعًا ، فيكون تقدير الكلام ، ان كان في عمله خيرٌ فجزاؤه خيرٌ ، فيرتفع خيرٌ الاول على انه اسم كان ، ويرتفع خيرٌ الثاني ، لانه خبر مبتدا محذوف على ما بيّن في شرح الوجه الاول وقد يجوز ان يرتفع خيرٌ الاول على انه فاعل كان وتجعل كان المقدرة ههنا هي التامة التي تاتي بمعنى حدث ووقع فلا تحتاج الى خبر كقوله تعالى وان كان ذو عُسرة ويكون التقدير في المسئلة ان كان خيرٌ فجزاءه خيرٌ اي ان حدث خيرٌ فجزاءه خيرٌ والوجه الرابع وهو اضعفها ان ترفع الاول على ما تقدّم شرحه في الوجه الثالث ، وتنصب الثاني على ما بيّن ذكره

ذكره فى الوجه الثانى ، ويكون تقدير الكلام ان كان فى عمله خيرٌ فهو يجزي خيراً وعلى حسب هذا التفسير والمقدّرات المحذوفات فيه ، يجري اعراب البيت الذي غُنّى بهِ ، ومما ينتظم فى هذا السلك قولهم المرُّ مقتولٌ بما قتل بهِ ، ان سيفًا فسيفٌ وان خنجرًا فخنجرٌ ، واما الكلمة التى هى حرف مجبوب ، او اسمٌ لما فيه حرفٌ حلوب ، فهى نعم ان اردت بها تصديق الاخبار او العِدَة عند السؤال ، فهى حرفٌ ، وان عنيت بها الابل فهى اسمٌ ، والنعم تذكّر وتؤنّث وتنطلق على الابل ، وعلى كل ماشيةٍ فيها إبلٌ ، وفى الابل الحرف وهى الناقة الضامر سميت حرفًا تشبيهًا لها بحرف السيف ، وقيل انها الضخمة تشبيهًا لها بحرف الجبل ، واما الاسم المتردّد بين فردٍ حازم ، وجمع ملازم ، فهو سراويل قال بعضهم هو واحد ، وجمعه سراويلات ، فعلى هذا القول هو فردٌ ، وكنّى عن ضمّه الخصرَ بانه حازم ، وقال اخرون هو جمعٌ وواحده سروال ، مثل شملال وشملة ليل ، فعلى هذا القول هو جمع ، ومعنى قوله ملازم اي لا ينصرف ، وانما لم ينصرف هذا النوع من الجمع ، وهو كل جمع ثالثه الف بعدها حرف مشدد او حرفان اوثلثة ، لثقله وتفرّده دون غيره من الجموع بان لا نظير له فى الاسما الاحاد ، وقد كنى فى هذه الاحجية عما لا ينصرف بالملازم ، واما الهآ التى اذا التحقت اماطت الثقلَ ، واطلقت المعتقلَ ، فهى الهآء اللاحقة بالجمع المقدم ذكره مثل صيارفة وصياقلة ، فينصرف هذا الجمع عند التحاق الهآء به ، لانها قد اصارته الى مثال الاحاد ، نحو رفاهيّة وكراهيّة ، فخُفّف بهذا السبب وصُرف لهذه العِلة ، وقد كنى فى هذه الاحجية عمّا لا ينصرف بالمعتقل ، كما كنى بالتى

بالتى قبلها عمّا لا ينصرف بالملازم ، واما السين التى تعزل العامل ، من غير ان تجامل ، فهى السين اذا دخلت على الفعل المستقبل ، وفصلت بينه وبين أن التى كانت قبل دخولها من ادوات النصب ، فيرتفع حينئذٍ الفعلُ وتنتقل أنْ عن كونها الناصبة للفعل الى ان تصير المخففة من الثقيلة ، كقوله تع علم ان سيكون منكم مرضى ، وتقديره علم انه سيكون منكم ، واما المنصوب على الظرف ، الذي لا يخفضه ، سوى حرف فهو عندَ ، ولا يجره غير من خاصةً ، وقول العامة ذهبت الى عندِهِ لحن ، واما المضاف الذي اخلّ من عُري الاضافة بعروة ، واختلف حكمه بين مساءٍ وغدوة ، فهو لدن ، ولدن من الاسماء الملازمة للاضافة ، وكلما ياتى بعدها مجرور بنها الّا غدوة ، فان العرب نصبتها بلدن ، لكثرة استعمالها لهم اياها فى الكلام ، ثم نونتها ايضاً لتبيّن بذلك انها منصوبة ، لا انها من نوع المجرورات التى لاتنصرف ، وعند بعض النحو يين ان لدن بمعنى عند والصحيح ان بينهما فرقاً لطيفاً ، وهوان عند يشتمل معناها على ما هوفى ملكتك ، ومكنتك مما دنا منك ، وبعد عنك ، ولدن يختص معناها بما حضرك وما قرب منك ، واما العامل الذي يتصل اخره باوله ويعمل معكوسه مثل عمله فهو يا ومعكوسها اي وكلتاهما من حروف النداء ، وعملهما فى الاسم المنادَى سيّان وان كانت يا اجول فى الكلام واكثر فى الاستعمال وقد اختار بعضهم ان يُنادَى باي القريب فقط كالهمزة ، واما العامل الذي نايبه ارحب منه وكرا ، واعظم مكرا ، واكثر لله تعالى ذكرا ، فهو باء القسم ، وهذه الباء هى اصل حروف القسم ، بدلالة استعمالها مع ظهور فعل القسم فى

في قولك اقسم بالله ، ولدخولها ايضًا على المضمر كقولك بك لافعلنّ ، ثم قد أُبدلت الواو منهـا في القسم لانهما جميعا في حروف الشفة ، ثم لتناسب معنييهما لان الواو تفيد الجمع والبا تفيد الالصاق والمعنيان متقاربان ، ثم صارت الواو المبدلة من البا ادور في الكلام ، واطلق بالاقسام ، ولهذا الغز بانها اكثر لله تع ذكرا ، ثم ان الواو اكثر موطنًا من الباء لان البا لا تدخل الا على الاسم ولا تعمل غير الجرّ ، والواو تدخل على لاسم والفعل والحرف ، وتجرّ تارةً بالقسم وتارةً باضمار ربَّ ، وتنتظم ايضاً مع نواصب الفعل وادوات العطف ، فلهذا وصفها برحب الوكر وعظم المكر ، واما الموطن الذي يلبس فيه الذكر ان براقع النسوان وتبرز فيه ربّات الحجال ، بعمايم الرجال ، فهو اول مراتب العدد المضاف ، وذلك ما بين الثلاثة الى العشرة فانه يكون مع المذكر بالها ، ومع المونث بحذفها كقوله تع سخرها عليهم سبع ليال وثمانية ايام ، والها في غير هذا الموطن من خصايص المؤنث كقولك قايم وقايمة ، وعالم وعالمة ، فقد رايت كيف انعكس في هذا الموطن حكم المذكر والمونث ، حتى انقلب كل منهما في غير قالبه ، وبرز في برّة صاحبه ، واما الموضع الذي يجب فيه حفظ المراتب ، على المضروب والضارب ، فهو حيث يشتبه الفاعل بالمفعول لتعذر ظهور علامة الاعراب فيهما ، او في احدهما وذلك اذا كانا مقصورين مثل موسى وعيسى ، او من اسما الاشارة نحو ذاك ، وهذا ، فيجب حينئذ لازالة اللبس ، اقرار كل واحد منهما على رتبته ليعرف الفاعل منهما بتقدّمه والمفعول بتاخره ، واما الاسم الذي لا يفهم الاّ باستضافة كلمتين او الاقتصار منه على حرفين فهو منها ، وفيها قولان احدهما انها

من

من مه التي بمعنى اكفف ومن ما ، والقول الثاني وهو الصحيح ان الاصل فيها ما ، فزيدت عليها ما اخري كما تزاد ما على ان ، فصار لفظها مامَا ، فثقل عليهم توالى كلمتين بلفظ واحد ، فابدلوا من الف ما الاولى هاءً فصارتا مهما ومهما من ادوات الشرط والجزاء ومتى لفظت بها لم يتمّ الكلام ، ولا عُقل المعنى الّا بايراد كلمتين بعدها كقولك مهما تفعل افعل ، وتكون حينئذ ملتزمًا للفعل ، وان اقتصرت منها على حرفين وهما مَهْ بمعنى اكفف ، فُهم المعنى وكنت ملزما من خاطبته ان يكفّ ، واما الوصف الذي اذا أُرفق بالنون ، نقص صاحبُه بالعيون وقُوّم بالدون وخرج من الزين ، وتعرض للهون ، فهو ضيف اذا الحقته النون استحال الى ضيفن ، وهو الذي ينتع الضيفَ ، ويتنزل في النقد منزلةَ الزيف

المقامة الخامسة والعشرون الكرجيّة

حدث الحارث بن همام قال ، شتوت بالكرج لدين اقتضيه ، وارب اقضيه ، فبلوت من شتايها الكالح ، وصِرّها النافح ، ماعرّفني جهدَ البلاء ، وعكف بي على الاصطلاء ، فلم اكن ازايل وجاري ، ومستوقدَ ناري الّا لضرورة دفع اليها ، او اقامة جماعة ، احافظ عليها ، فاضطررت في يوم جوّه مُزمهرّ ، وجدُه مكفهرّ ، الى ان برزت من كناني ، لمهمّ عناني ، فاذا شيخٌ عاري الجلدة ، بادي الجُردة ، قد اعتمّ بريطة ، واستثفر بقُويطة ، وحواليه جمع كثيف الحواشي ، وهو ينشد ولا يحاشي *

يا

يا قوم لايـنبيُكم عن فـقري ... اصـدق من عُزبـى اوانَ الـقرّ
فاعتـبروا بـها بدا من ضـرّي ... باطـن حالى وخـفى امـري
وحاذروا انقـلابَ سلم الدهـر ... فانـنى كنـت نبيه القـدر
آوي الى وفـرٍ وحـدٍّ يفـري ... تفيد صُـفري وتبيد سُـهري
وتشـتكى كومى غداةَ أقـريْ ... فجـرّد الدهـر سيوف الغـدر
وشـنّ غارات الـرزايـا الغـبر ... ولم يزل يسـحتنى ويـبري
حتى عفـت داري وغـاض دَرّي ... وبار سِعري فى الوري وشِـعري
وصِـرت نِضوَ فاقـةٍ وعُسـر ... عاري المطـا مجرّدًا من قـشري
كاننـى المغزل فى التـعرّي ... لا دفءَ لى فى الصِنّ والصِـنّبْر
غير التضعّى واصطـلاءَ الجمر ... فـهل خِـضَـمٌّ ذو رداءٍ غَـمر
يسـترنى بـمطرفٍ او طـمر ... طلابَ وجـه الله لا لشكري

ثم قال يا ارباب الثرآ ، الرافلين فى الغرآ ، من اوتى خيرًا فلينفق ، ومن استطاع ان يُرفق فليُرفق ، فان الدنيا غَدور ، والدهر عَثور ، والمكنةُ زورةُ طيف ، الفرصة مُزنة صيف ، وانى والله لطالما تلقيت الشتآ بكا فاته ، واعددت الأهبَ له قبل موافاته ، وانا اليوم يا سادتى ، ساعدي وسادتى ، وجلدتى بُردتى ، وجَفنتى حَفنتى ، فليعتبر العاقل بحالى ، وليبادر صرف الليالى ، فان السعيد من اتّعظ بسواه ، واستعدّ لمسراه ، فقيل له قد جلوت علينا ابدًا ، فاجلُ لنا نسبك ، فقال تنبَّا لمفتخر ، بعظم نخر ، انما الفخر بالتقى ، والادب المنتقى ، ثم انشد *

لعمرك ما الانسان الّا ابـن يومه ... على ان تجلّى يومه لا ابن امسه
وما الفخر بالعظـم الرميم وانما ... فخار الذي يبغى الفخار بنفسه

ثم

ثم انه جلس مُحْقوقق ، واجرنثم مقفقفا ، وقال اللهمّ يا من غمر بنواله ، وامر بسواله ، صلِّ على محمد وآله واعِنّي على البرد واهواله ، واتح لي جرًّا يوثر من خصاصة ، ويواسي ولو بقصاصة ، قال الراوي فلما جلى عن النفس العصاميّة ، والملح الاصمعيّة ، جعلت ملامح عيني تعجبه ، ومرامي لحظي ترجمه ، حتى استبنت انه ابو زيد ، وان تعرّيه احبولة لصيد ، وملح هو ان عرفاني قد ادركه ، ولم يامن ان يهتكه ، فقال اُقسم بالسمر والقمر ، والزُّهْر والزَّهَر ، انه لن يسترني اليوم الاَّ من طاب خيمه ، وأُشرب مآء المروَّة اديمه ، فعقلت ما عناه ، وان لم يدر القوم معناه ، وساءني ما يعانيه من الرعدة ، واقشعرار الجلدة ، فعمدت لفروة هي بالنهار رياشي ، وبالليل فراشي ، فنضوتها عني ، وقلت اقبلها مني ، فما كذّب ان افتراها ، وعيني تراها ، ثم انشد *

للّه من البسني فروةً ... اضحَتْ من الرعدة لي جُنّه
البسنيها واقيًا مُهجتي ... وُقي شرّ الانبس والجنّه
سيكتسي اليوم ثناي وفي ... غدٍ سيُكسَى سُندُسَ الجنّه

قال فلما فتن قلوب الجماعة ، بافتنانه في البراعة ، القوا عليه من الفرآ المغشّاة ، والجباب الموشّاة ، ما آده ثقله ، ولم يكد يُقلّه ، فانطلق مستبشرًا بالفرج ، مستسقيًا للكرج ، وتبعته الى حيث ارتفعت التَقيّة ، وبدت السمآء نقيةً ، فقلت له لشدّ ما قرسك البرد ، فلا تتعرَّ من بعد ، فقال ويلك ليس من العدل ، سُرعة العذل ، فلا تعجل بلوم هو ظلم ، ولا تقفُ ما ليس لك به علم ، فوالذي نوَّر الشيبة ، وطيّب تُربة طيبة لولم اتعرَّ لَرُحتُ بالخيبة ، وصفر العيبة ، ثم نزع الى الفرار ، وتبرقع

وتبرقع بالاكفهرار ، وقال اما تعلم ان شِنشِنتي الانتقال من صيدٍ الى صيد ، والانعطاف من عمرو الى زيد ، واراك قد عُقتني وعقتني ، وافتنّني اضعافَ ما افدتني ، فاعفني عافاك الله من لغوك ، واسعد دوني باب جدّك ولهوك ، فجذبته جيدُ التلعابة ، وجعجعت به للعُعابة ، وقلت له والله لولم اوارك ، واغضّ عوارك لما وصلت الى صِلة ، ولا انقلبت اكسى من بصلة ، فجازني عن احساني اليك ، وستري لك وعليك ، بان تسمح لي بردّ الفروة ، او تُعرّفني كافات الشتوة ، فنظر اليّ نظر المتعجّب ، وازمهرّ ازمهرار المتغضّب ، ثم قال اما ردّ الفروة فابعد من ردّ امس الدابر ، والميت الغابر ، واما كافات الشتوة فسبحان من طبع على ذهنك واوهى وعاء خزنك ، حتى أُنسيت ما انشدتك بالدسكرة ، لابن سُكرة *

جاء الشتا وعندي من حوائجه ... سبعٌ اذا القطر عن حاجاتنا حبسا
كِنٌّ وكيسٌ وكانونٌ وكأسُ طلًا ... بعد الكباب وكسٌّ ناعمٌ وكسا

ثم قال جوابٌ يشفي ، خير من جلباب يُدفي ، فاكتفِ ، بوعيت وانكفِ ، فصار قتد وقد ذهبت فروتي لشقوتي ، وحصلت على الرعدة طول شتوتي *

Digitized by Google

Digitized by Google

Digitized by Google

المقامة السادسة العشرون الاهوازيّة

حدث الحارث بن همام قال ، حللت سوقى الاهواز ، لابسًا حلّة الاعواز ، فلبثت فيها مُدَّةً اكابد شدة ، وازجّى ايامًا مسودّة ، الى ان رايت تهادي المُقام ، من عوادي الانتقام ، فرمقتها بعين القالى ، وفارقتها مفارقة الطلل البالى ، وظعنت عن وشلها كهيش الازار ، راكضا الى المياه الغزار حتى اذا سرت منها مرحلتين ، وبعدت سُرَي ليلتين ، تراءت لى خيمة مضروبة ، ونار مشبوبة ، فقلت اتيمها لعلى انقع صدي او أجد على النار هدي ، فلما انتهيت الى ظل الخيمة رايت غلمةً رُوقة وشارة مرموقة ، وشيخًا عليه بِزَّةٌ سنيّة ، ولديه فاكهة جنيّة ، فحيّيتُه ، ثم تحاميتة ، فضحك الىّ ، ثم احسن الرَّد على ، وقال ألاَ تجلس الى من تروق فاكهتة ، وتشوق مفاكهته ، فجلست لاغتنام محاضرته ، لا لالتهام ما بحضرته ، فحين سفر عن اداب وكشّر عن انياب ، عرفت انه ابو زيد بحسن مُلحه ، وقبح قلحه ، فتعارفنا حينئذٍ ، وحفّت بى فرحتان ساعتئذٍ ، ولم ادر بايهما انا اصفى فرحًا ، واوفى مرحا بإسفاره من دُجنّة أسفاره ، ام بخصب حاله بعد إمحاله ، وتاقت نفسى الى ان افضّ ختم سرّه ، وابطن داعية يُسره ، فقلت له من اين إيابك ، والى اين انسيابك ، ومم امتلأت عيابك ، فقال امّا المقدم فمن طوس ، واما المقصد فالى السوس ، واما الجدة التى اصبتها ، فمن رسالة اقتضبتها ، فسالته ان يُفرشنى دخلته ، ويسرد على رسالته ، فقال دون مرامك حرب البسوس ،

Digitized by Google

البسوس ، او تصحبني الى السوس ، فصاحبته اليها قهرا ، وعكفت بها عليه شهرا ، وهو يعللني كاسمات التعليل ، ويجرني اعنة التأميل ، حتى اذا حرج صدري ، وعيل صبري ، قلت له انه لم يبق لك علة ، ولا لي تعلة ، وفي غد ازجر غراب البين ، وارحل عنك بخفي حنين ، فقال حاش لله ان اخلفك او اخالفك ، وما ارجات ان احدثك الا لابتلك ، واذا كنت قد استربت بعدتي ، وافراك ظن السوء بباعدتي ، فأصح لقصص سيرتي المهندة ، واصغها الى اخبار الفرج بعد الشدة ، فقلت هات فها اطول طيلك ، واهول حيلك ، فقال اعلم ان الدهر العبوس ، القاني الى طوس ، وانا يومئذ فقير وقير ، لا قتيل لي ولا نقير ، فالجاني صفر اليدين ، الى التطوق بالدين ، فالفيت لسو الاتفاق ، ممن هو عسر الاخلاق ، وتوهمت تسنى النفاق ، فتوسعت في الانفاق ، فما افقت حتى بهظني بين لزمني حقه ، ولازمني مستحقه ، فحرت في امري ، واطلعت غريمي على عسري ، فلم يصدق املاقي ، ولا نزع عن ارهاقي ، بل جد في التقاضي ، ولج في اقتيادي الى القاضي ، وكلما خضعت له بالكلام ، واستنزلت منه رفق الكرام ، ورغبته في ان ينظرلي بميسرة ، او ينظرني الى ميسرة ، قال لا تطمع في الانظار ، واحتجان النضار ، فوحقك ماتري مسالك الخلاص ، او تربني سبائك الخلاص ، فلما رايت احتداد لدده ، والا مناص لي من يده ، شاغبته ثم واثبته ، ليرافعني الى والي الجرايم ، لا الى الحاكم في المظالم ، لما كان بلغني من افضال الوالي وفضله ، وتشدد القاضي وبخله ، فلما حضرنا باب امير طوس ، انست ان لا بأس ولا بوس ، فاستدعيت دواة وبيضا ،

وبيضاء، وانشات اليه رسالةً رقطاً، وهي، اخلاق سيدنا تُحبّ، وبعقوته يُلَبّ، وقُربه تُحف، ونايُه تَلَف، وخُبّته نسب، وقطيعته نصب، وغربه ذلق، وشُهبه تأتلق، وظلفه زان، وقويم نهجه بان، وذهنه قلّب وجرّب ونعته شرّق وغرّب *

سيّدٌ قُلّبُ سبوقٌ مبرٌّ ... فطِنٌ مُجرّبُ عزوفٌ عيوفُ
مُخلقٌ مُتلقٌ اغرٌّ فريدٌ ... نايهٌ فاضلٌ زكيٌّ انوفُ
مفلقٌ ان ابان طبٌّ اذا ... ناب هياجٌ وجلّ خطبٌ مخوفُ

مناطُم شرفه تأتلق، وشؤبوبُ حبايه يَحِق، ونايلُ يديه فاض، وشُحّ قلبه غاض، وخلق سخايه يُحتلَب، وذهب عيابه يحترب، من لقّ لقّه فلج وغلب، وتاجر بابه جلب وحلب، كفّ عن هضم بريّ، وبَرِيَ من دنس غويّ، وقرن ليانه بعزّ، ونكّب عن مذهب كزّ، ليس بوثّاب عند نهزة شرّ، بل يقفّ عفّة بِرّ *

فلذا يُحَبّ ويستحقّ عفاده ... شغفًا به فلبابه خلّابُ
اخلاقه غرٌّ تبرّق وفوقه ... فسوقٌ اذا ناضلته غلّابُ
سجحٌ يهشّ وذو تلافٍ ان هفا ... خِلٌّ فليس بحقّه برتابُ
لا باخل بل باذل خرقٌ اذا ... بعتزّ برزٌ لا يليه بابُ
ان عضّ ازلٌ فلّ غرب عضاضه ... بهنابه فانحتّ منه نابُ

وجدير بين لبّ وفطن، وقرب وشطن، ان اغن لقريع زمن وجابر زمن، مُذ رضع ثدي لبانه، خُصّ بافاضة تهتانه، نعش وفرّج، وضافر فابهج، ونافر فازعج، وفآ بحقّ ابلج، اثعب من سيلى، وقرّظ اذ هُزّ وبُلى، وتوّج صفاته، يُحبّ عُفاته *

فلا

فلا خلا ذا بهجة يهتز ظل خصبه
فانعم بر بهن انس ضوء شهبه
زان مزايا طبر فه بليس خوف ربه

فليهن سيدنا فوزه بمفاخر تالدة وجلت ، وفوته بصنايع نهت وتمت ، وبلائم قرب حضرته غوث رقة بحظ من حظوته فانه تليد ندب ، وشريد جدب ، وجريح نوب انثرت ، وناظم قلايد تسيرت ، اذا جاش لخطبة ، فلا يوجد قايل ، ثم قس ثم باقل ، فان حبر قلت حبر نهنهت ، وخلت رياضا قد نهت ، هذا ثم شربه برض ، وقوته قرض ، وفلقه غسق ، وجلبابه حلق ، وقد قلق ، لتوعر غريم غاشم ، يستحثه بحق لازم ، فان من سيدنا بكفه ، بهبات كفه ، توشح بمجد فاق ، وبآء باجر فكى من وثاق ، لا خلت سحايا خلقه ، ترفد شايم برقه ، بمرب ازلى ، حتى ابدي ، قال فلما استشق الامير لأليمها ، ولمح السر المودع فيهما ، اوعز فى الحال بقضاء دينى ، وفصل ما بين خصمى وبينى ، ثم استخلصنى لمكاثرته ، واستخصنى باثرته ، فلبثت بضع سنين انعم فى ضيافته ، وارتع فى زيق رافته ، حتى اذا غمرتنى مواهبه ، واطال ذيلى ذهبه ، تلطفت فى الارتحال ، على ماترى من حسن الحال ، قال الحارث بن هام ، فقلت له شكرا لمن اتاح لك لقيان السمح الكريم ، وانقذك به من ضغطة الغريم ، فقال الحمد لله على سعادة الجد ، والخلوص من الخصم الالد ، ثم قال ايها احب اليك ، ان احذيك بالعطاء ، ام اتحفك بالرسالة الرقطاء ، قلت املاء الرسالة احب الى ، فقال هو وحقك احق على ، فان نحلة ما يلج فى الاذان ، اهون من نحلة ما يخرج من الاذان ، ثم

ثم كانّه أنِف واستحيى ، فجمع لى بين الرسالة والحُذيا ، ففزْتُ منه بسهمين ، وفصلت عنه بغُنمين ، وأُبتُ الى وطنى قرير العين ، بما حُزت من الرسالة والعين *

المقامة السابعة والعشرون البدّيّة

حكى الحارث بن همام قال ، مِلت فى ريِّق زمانى الذي غبر ، الى مجاورة اهل الوبر لآخذ اخْذ نفوسهم الابيّة ، والسِنتهم العربيّة ، فشمّرت تشميرَ من لا يألو جهدا ، وجعلت اضرب فى الارض غورًا ونجدا ، الى ان اقتنيت هَجْمةً من الراغية ، وثلّة من الثاغية ، ثم أوبت الى عربٍ ارداف اقيال ، وابناء اقوال ، فاوطنونى امنع جناب ، وفلّوا عنى حدّ كل ناب ، فما تأوّبنى عندهم همٌّ ، ولا قرع صفاتى سهم ، الى ان اضللت فى ليلة منيرة البدر ، لِقحة غزيرة الدرّ ، فلم اطِب نفسًا بالغاء طلبها ، والقاء حبلها على غاربها ، فتدثرت فرسًا مِحضارًا واعتقلت لدنا خطّارًا ، وسريت ليلتى جمعاء اجوب البيداء ، واقري كل شجراء ومرداء ، الى ان نشر الصُبح راياته ، وحيعل الداعى الى صلاته ، فنزلت عن متن الركوبة ، لادآ المكتوبة ، ثم حُلت فى صهوتها ، وفررت عن شحوتها ، وسِرت لا اري اثرًا الّا قفوته ، ولا نشزًا الّا علوته ، ولا واديًا الّا جزعته ، ولا راكبًا الّا استطلعته ، وجِدّي مع ذلك يذهب هدرا ، ولا يجد وِردُه صدرًا ، الى ان حانت صكّة عُمَيّ ، ولفْح هجير يُذهل غيلانَ عن مَىّ ، وكان

Digitized by Google

وكان يوم اطول من ظلّ القناة ، واحرّ من دمع المقلات ، فايقنت انى ان لم استكنّ من الوقدة ، واستجمّ بالرقدة ، ادنفنى اللغوب ، وعلقمت بى شَعُوب ، فعُجت الى سرحةٍ كثيفة الاغصان ، وَريقة الافنان لاُغوِّر تحتها الى المُغيربان ، فوالله ما استروح نفسى ، ولا استراح فرسى ، حتى نظرت الى سانح ، فى هيئة سايح ، وهو ينتجع نُجعتى ، ويستن الى بُقعتى ، فكرهت انعياجه الى معاجى ، واستعذت بالله من شرّ كل مفاجى ، ثم ترجّيت ان يتصدّي مُنشدًا ، او يتبدّى مرشدًا ، فلما اقترب من سرحتى ، وكاد يحلّ بساحتى ، الفيته شيخنا السرّوجى متشحًا بجرابهِ ، ومضطغنًا اُهبة تجوابه ، فآنسنى اذ ورد ، وانسانى ما شرد ، ثم استوضحته من اين اثره ، وكيف عُجَره وبُجَره ، فانشد بديهاً ، ولم يقل ايهاً *

قُل لمستطلع دخيلةَ امري ... لك عندي كرامةٌ وعزازه
انا ما بين جوب ارضٍ فارض ... وسُرَي فى مفازةٍ فمفازه
زادي الصيد والمَطيَّة نعلى ... وجهازي الجراب والعُكّازه
فاذا ما هبطت مصراً فبيتى ... غُرفةُ الخان والنديم جُزازه
ليس لى ما اُساءُ ان فات او ... اُحزَن ان حاول الزمان ابتزازه
غير انى اَبيتُ خِلوًا من الهمّ ... ونفسى من الاسى مُنحازه
ارقد الليل ملأ جفنى وقلبى ... بارِدٌ عن حرارةٍ وحزازه
لا اُبالى من اي كاسٍ تفوّ ... قت ولا ما حلاوة من مزازه
لا ولا استجيز ان اجعل ال ... ذلّ مجازًا الى تسنّى اجازه
واذا مطلبٌ كسا حُلّةَ العا ... رِ فبُعْدًا لمن يروم نجازه

ومتى

ومتى اهتزّ للدناءة نكسٌ عافَ طبعي طباعه واهتزازه
فالمنايا ولا الدفايا وخيرٌ من ركوب الخنا ركوب الجنازه

ثم رفع الىّ طَرفه ، وقال لامرٍ ما جدع قصير انفه ، فاخبرته خبر ناقتى السارحة ، وما عانيتُهُ فى يومى والبارحة ، فقال دع الالتفات الى ما فات ، والطماح الى ما طاح ، ولا تاسَ على ما ذهب ، ولو انه وادٍ من ذهب ، ولا تستهل من مال عن ريحك ، واضرم نار تباريحك ، ولو كان ابن بوحك ، او شقيق روحك ، ثم قال هل لك فى ان نقيل ، ونتحامَى القال والقيل ، فان الابدان انضاءُ تعب ، والهاجرة ذات لَهَب ، ولن يصقل الخاطرَ ، وينشّط الفاترَ كقائلة الهواجر ، وخصوصاً فى شهري ناجر ، فقلت ذاك اليك ، وما اريد ان اشُقّ عليك ، فافترش الترب واضطجع ، واظهر ان قد هجع ، وارتفقت على ان احرُس ، ولا انعس ، فاخذتنى السِنة ، لما زُمّت الالسنة ، فلم أُفِق الاّ والليل قد تولّج ، والصُبح قد تبلّج ، ولا السروجى ولا المُسرَج ، فبِتُّ بليلةٍ نابغيّة ، واحزان يعقوبيّة ، اساور الوجوم ، واساهر النجوم ، افكر تارةً فى رُجلتى ، واخري فى رَجعتى ، الى ان وضح لى عند افترار ثغر الضوّ ، فى وجه الجوّ ، راكبٌ يخدّ فى الدوّ ، فالمعت اليه بثوبى ، ورجوت ان يعرّج الى صوبى ، ولم يعبأ بالماعى ، ولا اوبَى لالتياعى ، بل سار على هِينته ، واصمانى بسهم اهانته ، فاوفضت اليه لاسترفده ، واحتمل تغطرفه ، فلما ادركته بعد الاين ، واجلت فيه مسرح العين ، وجدت ناقتى مطيّته ، وضالّتى لُقطته ، فهاكذبت ان اذريته عن سنامها ، وجاذبته طرف زمامها ، وقلت له انا صاحبها ومضلّها ، ولى رِسلها ونَسلها ، فلا تكن كاشعب ، فتُتعِب وتتعب ،

Digitized by Google

وتتْعَب ، فاخذ يلدغ ويصى ، ويتّقح ولا يستحى ، وبينا هو ينزو ويلين ، ويستناسد ويستكين ، غشِيَنا ابو زيد لابسًا جلد النمر ، هاجمًا هجوم السيل المُنهمر ، فخِفت ان يكون يومه كامسه ، وبدره مثل شهسه ، فالحق بالقارظَيْن ، واصير خبرا بعد عين ، فلم ارَ الاَّ ان اذكرته العهود المنسيّة ، والفعلة الامسية ، وناشدته الله اوا فَى اليوم للتلافى ، ام لما فيه اتلافى ، فقال معاذ الله ان اُجهز على مكلومى ، او اصل حروري بسهومى ، بل وافيتك لاخبر كُنْهَ حالك ، واكون يمينًا لشمالك ، فسكن عند ذلك جاشى ، وانجاب استبحاشى ، واطلعته طلع اللقحة ، وتبرقع صاحبى بالقحة ، فنظر اليه نظرة ليث العريسة ، الى الفريسة ، ثم اشرع قبله الرُمحَ واقسم له بمن انار الصبح ، لين لم ينجُ منجا الذَّباب ، ويرضَ من الغنيمة بالاِياب ، ليوردنّ سنا نه وريده ، وليفجعنّ به وليدَه ووديدَه ، فنبذ زمام الناقة وحاص ، وافلت وله حُصاص ، فقال لى ابو زيد تسلَّمها وتسنّمها ، فانها احدَي الحُسنيين ، وويل امون من ويلين ، قال الحارث بن همام ، فحِرت بين لوم ابى زيد وشكره وزِنة نفعه بضرّه ، فكانه نوجى بُذات صدرى ، او تكهّن ما خامر سرّي ، فقابلنى بوجهٍ طليق ، وانشد بلسان ذليق *

يا اخى الحامل ضيْمى ... دون اِخوانى وقومى
ان يكن ساءك امسى ... فلقد سرّك يومى
فاغتفر ذاك لهذا ... واَطرح شكري ولومى

ثم قال انا تَيِّق ، وانت مَيِّق ، فكيف نتّفق ، وولّى يفري اديم الارض ، ويركض طِرفه ايّما ركض ، فما عدوت ان اقتعدت مطيَّتى وعُدتُ لطيّتى حتى

Digitized by Google

حتى وصلت الى حلّتى ، بعد اللّتيّا والتّى *

تفسير ما اودع هذه المقامة من الالفاظ اللغويّة والامثال العربيّة

قوله رَيق زمانى ، يعنى اوله ورايقه ، وقد يشدّد فيقال ريّق ، وقوله أَخْذ أَخْذ نفوسهم يعنى اقتدي بهم ، يقال منه أَخَذ إخذهُ وأَخذهُ بكسر الهمزة ، وفتحها ، والهجّة نحو الماية من الابل ، والثّلّة القطيع من الغنم ، والراغية الابل ، والثاغية الشاء ومنه قولهم ما له راغيةٌ ولا ثاغيةٌ ، اي لا ناقةٌ ولا شاة ، وقوله ارذاف اقيال ، اي يخلفون الملوك اذا غابوا ، وقوله ابناء اقوال ، اي فصحآء يقال للهنطيق انه ابن اقوال ، وقوله فتدثرت فرسًا محضارا ، التّدثر الوثوب على ظهر الفرس ، والمحضار والمحضير الشديد العدو ، ماخوذ من الحضر وهو العدو ، وقوله اقتري كل شجرآ ومرداء ، الاقترآء تتبّع الارض والشجرآ ، ذات الشجر ، والمردآ الخالية من النبات ، ومنه اشتقاق الامرد لخلو وجهه من الشعر ، وقوله حيعل الداعى الى صلاته ، يعنى قوله المؤذن حَيَّ على الفلاح ، والمصدر منه الحيعلة ، ومثله من المصادر الهيْللة ، والحولقة ، والبسملة ، والحسبلة ، والسبحلة ، والجعلفة ، فالهيللة حكاية قول لا آله الاّ الله ، والحولقة حكاية قول لا حولَ ولاقُوّةَ الاّ بالله ، والبسملة حكاية قول بسم الله ، والحسبلة حكاية قول حسبنا الله ، والسبحلة حكاية قول سبحان الله ، والجعلفة حكاية قول جعلت فداك ، وقوله فنزلت عن متن الركوبة ، يعنى المركوبة ، يقال ناقة ركوبٌ و ركوبةٌ ، وحلوبٌ وحلوبةٌ ، وقد قُري فهنها ركوبتهم ، والصهوة مَقعد الفارس ، والسحوة الخطوة ، والجزع قطع الوادي عرضا ، وقوله صكة عُمّى يعنى قايم

Digitized by Google

قايم الظهيرة ، وقد اختلف فى اصله فقيل كان عمىٌّ رجلًا مغوارًا ، فغزا قومًا عند قايم الظهيرة وصكهم صكة شديدة ، فصار مثلًا لكل من جآ فى ذلك الوقت ، وقيل المراد به الظبى لانه يسدر فى الهواجر ، فيصطكّ بها يستقبله كاصطكاك الاعمى ، ثم صُغِّر الاعمى تصغير الترخيم فقيل عُمىّ ، كما صغّروا اسود وازهر ، فقالوا سُويد وزُهير ، وقوله وكان يومًا اطول من ظل القناة ، يوصف اليوم الطويل بظلّ القناة ، كما يوصف اليوم القصير بانهام القطاة ، والعرب تزعم ان ظلّ الرُمح اطول ظلّ ، ومنه قول الشاعر هو شبْرمة بن الطفيل *

ويوم كظل الرمح قصر طوله دَمُ الزقّ عنا واصطفاق المزاهر *

وقوله احر من دمع المقلات ، المقلات التى لا يعيش لها ولد ، فدمعها ابدا حارٌّ لحزنها ، لانه يقال ان دمعة الحزن حارّة ، ودمعة السرور باردة ، ولهذا قيل للمدعو له اقرّ الله عينه ، ماخوذ من القر وهو البرد ، وقيل للمدعو عليه اسخن الله عينه ، ملخوذ من السخنة ، وهى الحرارة ، وقيل ان اقرار العين ماخوذ من القرار ، فكانه دعا له ان يُرزق ما يقر عينَه ، حتى لا تطمح الى مال غيره ، وكانت الجاهليّة تزعم ان المقلات اذا وطئت على قتيل شريف عاش ولدُها ، والى هذا اشار بشر بن ابى حازم فى قوله *

تظلّ مقاليت النسا يطأنه يقُلنَ الا يُلقَى على المرء مئزر *

وقوله وعلقت بى شعوب يعنى المنيّة ، ولا يدخل هذا الاسم اداة التعريف مثل دجْلة وعَرفة ، وقوله لاغور تحتها الى المغيربان ، التغوير النزول للقايلة ، كما ان التعريس النزول اخر الليل للتهويم والاستراحة والمغيربان

Digitized by Google

والمغيربان تصغير المغرب ، وكان قياس تصغيره المغيرب ، الاَّ ان العرب الحقت اخره الفًا ونونًا على طريق الشذوذ ، وقوله مضطغنا اهبة تجوابه ، الاضطغان ان يحمل الشى تحت حضنه ، والاضطبان ان يجعله تحت ضبنه ، والضبن مابين الابط والكشح ، ويقال ان اول مراتب الحمل الإبط ثم تحته الضَّبْنُ ، وهو اسفل الإبط ، ثم تحته الحضن وهوعند الجنب ، والتَّجواب مصدر جاب ، وجميع المصادر التى جآت على تفعال ، هى بفتح التاء الاَّ قولهم تِبيانٌ ، وتِلقآء وقال بعضهم وتنضال ايضًا ، وقوله عُجري وبُجري ، يريد به جميع امري الباطن والظاهر ، واصل العجر ، العُقَد الناتية فى العصب ، والبجر العقد الناتية فى البطن ، وقوله لم يقل ايها ، اي لم يامرنى بالكفّ يقال للمستزاد ايهٍ ، وللمستكف ايهًا ، وقوله لامر ما جدع قصير انفه ، قصير هذا هو مولى جذيمة الابرش ، وكان جدع انفه بيده حين قتلت الزبا مولاه ، ثم اتاها فاوهمها ان عمرو بن عَدِيّ ابن اخت جذيمة هو الذي جدع انفه ، اتّهامًا له بانه غشّ خاله جذيمة إذ أشار عليه بقصدها ، فحظى قصير بهذا القول عندها ، حتى جهّزته مرارًا الى العراق ، فكان ياتيها بالطرف منه الى ان استصحب فى اخر نوبة الرجال ، فى الصناديق وتوصل الى قتلها ، والاخذ بثار مولاه منها وقصته مشهورة ، واما قوله ابن بوحك ، يعنى ولد الصلب اشارة الى انه ولد فى باحة داره وهى عرصتها وجمعها بُوحٌ ، وقيل ان البوح اسم من اسما الذكر ، وقوله فى شهري ناجر ، شهرا ناجر هما شهرا الحرّ ، وقيل انهما حزيران وتموز وانكر ابو بكر محمد بن دريد هذا القول ، وقال هما طلوع نجمين ، وقوله

وقوله بتّ بليلة نا بغيّة ، اوما به الى قول النابغة *
وبتُّ كاني ساورتني ضئيلة من الرُّقش في انيابها السُمُّ ناقع *
وقوله المعت اليه بثوبي يعني اشرت ، يقال منه لمَعَ ، وألمع ، بمعنى ،
وقوله يلدغ ويصي هذا مثل يَضرِبُ لمن يظلم ثم يشكو ، يقال صأت
العقرب تصئ صَئيًا وصِئيًا بفتح الصاد وكسرها ، اذا صوتت وهكذا الفرخ ،
وما احسن قول ابن الرومي في هذا المعنى *
تُشكى المُحب وتَشكو وهي ظالمةٌ كالقوس تُصمى الرمايا وهي مرنانُ *
وقوله ينزو ويلين هذا المثل يضرب لمن يتعزَّز ثم يذلّ ، ويقال ان
اصله الجدي ينزو وهو صغير ، فاذا كبُر لان ، وقوله لابسًا جلد النمر ،
هذا المثل يضرب للمتّقع الجربّي ، لان النمر اجربي سبُع واقلّه احتمالاً
للضيم ، ومن هذا اشتقاق قولهم تنمَّر اي صار مثل النمر ، وقوله فالحق
بالقارظين ، الاصل في القارظ الذي يجني القرظ ، وهو النبات
المدبوغ به ، والقارظان المشار اليهما احدهما من عنزة والاخر من النمر بن
قاسط ، وكانا خرجا يجنيان القارظ ، فلم يرجعا ولا عرف لهما خبر ،
فضرب بهما المثل لكل غايب لا يرجى ايابه ، واليهما اشار ابو
ذُويب بقوله
وحتى يؤوب القارظان كلاهما وينشر في القتلى كليبٌ لوائل *
وقوله واصل حَروري بسمومي الحرور الريح الحارّة ليلاً ، والسَّموم الريح
الحارّة نهارًا ، وقد تُقام احداهما مقام الاخرى مجازًا ، وقال بعضهم
الحرور تكون ليلاً ونهارًا ، والسموم تختص بالنهار ، وقوله ليث العريسة
يعني ملوي النسبع ، يقال فيه عريفٌ وعريسةٌ باثبات الهآ وحذفها ،
كما

كما يقال غابٌ وغابةٌ ، وعَرِين وعَرِينةٌ واما الفيل والخيس فلم يلحقوا بهما الهاء ، واما قوله افلت ولد حصام ، هذا المثل يُضربُ لمن نجا من هلكةٍ اشفى عليها بعدما كاد يهوي فيها ، والحُصام العدو ، وقيل انه الضراط فكانه لفرعه يعدو ويضرط ، وقوله ويلٌ اهون من ويلين ، هذا المثل يضرب لمن ناله بعض المكروه ومثله قول الشاعر *

ابا مُنذرٍ افنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشرّ اهون من بعضِ *

وقوله انا تيّق وانت ميّق ، فكيف نتّفق ، هذا المثل يضرب لمتنافيين في الخلق ، لان التيّق هو الممتلئ غيظًا ، ماخوذ من اتّأقت الآنآ ، اذا ملاته ، والميّق هو الباكي ، فكان التيّق ينزع الى الشرّ لغيظه ، والميّق يضيق ذرعًا باحتماله وقوله لطيّتي لقصدي ووجهتي ، وقد يقال فيه طيةٌ بالتخفيف ، وقوله بعد اللّتيا والّتي واللتيا تصغير التي ، وهو على غير قياس التصغير المطرد ، لان القياس ان تضمّ اول الاسم اذا صغر ، وقد اقرّ هذا الاسم على فتحته الاصلية عند تصغيره ، الّا ان العرب عوّضته عن ضم اوله ، بان زادت الفًا على اخره ، واجرت اسمها الاشارة عند تصغيرها على لحكه ، فقالت في تصغير الذي والتي ، اللّذيّا واللتيا ، وفي تصغير ذا وذاك ، ذيّا وذيّاك ، وقد اختلف في معنى قولهم اللتيا والتي ، فقيل هما من اسما الداهية ، وقيل المراد بهما بعد صغير المكروه وكبيره *

المقامة الثامنة والعشرون السمرقندية

اخبر الحارث بن همام قال ، استبضعت فى بعض اسفاري القنند ، وقصدت به سمرقند ، وكنت يومئذٍ قويم الشطاط ، جهوم النشاط ، ارمى عن قوس المراح ، الى غرض الافراح ، واستعين بهاء الشباب على ملامح السراب ، فوافيتها بكرة عروبة ، بعد ان كابدت الصعوبة ، فسعيت وما ونيت ، الى ان حصل البيت ، فلما نقلت اليه قندى ، وملكت قول عندي ، عجت الى الحمّام على الاثر ، فحططت عنى وعثآء السفر ، اخذت فى غسل الجُمعة بالاثر ، ثم بادرت فى هيئة الخاشع ، الى مسجدها الجامع ، لالحق بمن يقرب من الامام ، ويقرّب افضل الانعام ، فحظيت بان جلّيت فى الحلبة ، وتخيّرت المركز لاستماع الخطبة ، ولم يزل الناس يدخلون فى دين الله افواجا ، ويردون فرادى وازواجا ، حتى اذا اكتظ الجامع بحفله ، وظلّ تسلوبي الشخص وظلّه ، برز الخطيب فى اهبته ، متهاديا خلف عصبته ، فارتقى فى منبر الدعوة ، الى ان مثل بالذروة ، فسلم مشيرًا باليمين ، ثم جلس حتى ختم التلاذين ، ثم قام ، وقال

الحمد لله الممدوح الاسمآء ، المحمود الآلاء ، الواسع العطآء ، المدعو لجسيم اللأوا ، مالك الامم ومصور الرمم ، واهل السماح والكرم ، ومُهلك عادٍ وارم ، ادرك كل سرّ علمُه ، ووسع كل مُصّر حلمه ، وعمّ كل عالَم طوله ، وهدّ كل مارد حوله ، احمده حمدَ موحّدٍ مُسلم ، وادعوه دُعاء مؤمّل مُسلّم ، وهو الله

Digitized by Google

الله لا اله الا هو الواحد الاحد ، العادل الصمد ، لا ولد له ولا والد ، ولا
ردّ معه ولا مساعد ، ارسل محمّدا للاسلام مهّدا ، وللهلة موطّدا ، ولادلة
الرُسل موكّده ، وللاسوة والاحمر مسدّدا ، وصل الارحام ، وعلم الاحكام ،
ووسم الحلال والحرام ، ورسم الاحلال والاحرام ، كرّم الله محلّه ، وكمّل
الصلاة والسلام له ، ورحم آله الكرماء ، واهله الرحماء ، ما همر ركام ، وهدر
حمام ، وسرح سوام ، وسطا حُسام ، اعملوا رحمكم الله عمل الصلحاء ،
واكدحوا لمعادكم كدح الاصحّاء ، وارفضوا اهواءكم رفض الاعداء ، واعدّوا
للرحلة اعداد السعداء ، وادّرعوا حُلل الورع ، وداووا علل الطمع وسوّوا
اود العمل ، وعاصوا وساوس الامل ، وصوّروا لانفسكم حؤول الاحوال ،
وحلول الاهوال ، ومساورة الاعلال ، ومصارعة المنايا والآجال ، واذكروا الحمام
وسكرة مصرعه ، والرمس وهول مُطّلعه ، واللحد ووحدة موضعه ، والملك
ورواعة سؤاله ومطلعه ، واعدوا الدهر ولؤم كرّه ، وسوء محاله ومكره ، كم
طحس معها من امرّ قطعها ، وطخطخ عرمرما ، ودمّر ملكا مكرّما ، همّه سلّ
المسامع ، وسحّ المدامع ، واكداء المطامع ، وارداء المسمع والسامع ، عمّ حكمه
الملوك والرعاع ، والمسود والمُطاع ، والمحسود والحساد ، والاسود والاساد ،
ما موّل الا مال ، وعكس الامال ، ولا وصل الا صال ، وكلم الاوصال ، ولا
سرّ الا ساء ولؤم واساء ، ولا اصحّ الّا ولّد الداء ، وروّع الادوّاء ، الله الله رعاكم
الله ، الامّ مداواة اللهو ، ومواصلة السهو ، وطول الاصرار ، وحمل الأصار ،
واطّراح كلام الحكما ، ومعاصاة الدّ السما ، اما الهرم حصادكم ، والمدر
مهادكم ، اما الحمام مدرككم ، والصراط مسلككم ، اما الساعة موعدكم ،
والساهرة موردكم ، اما اهوال الطامة لكم مرصدة ، اما دار العُصاة الحطمة
الموصدة

الموصدة ، حارسهم مالك ، ورواوهم حالك ، وطعامهم السّموم ، وهواوهم السّموم ، لا مال اسعدهم ، ولا ولد ، ولا عَدَد حماهم ، ولا عُدَد ، الاّ رحم الله امرًا ملك هواه ، وامّ مسالك هُداه ، واحكم طاعة مولاه ، وكدح لروح ماواه ، وعمل ما دام العمر مطاوعا ، والدهر موادعا ، والصحّة كاملة ، والسلامة حاصلة ، والاّ دهمه عدم المرام ، وحصر الكلام ، والمام الالام ، وحموم الحمام ، وهدوّ الحواسّ ، ومراس الارماس ، اهًا لها حسرةً المُمّها موكد ، وامدها سرمد ومبارسها مكمد ، ما لولهه حاسم ، ولا لسدمه راحم ، ولا له ما عراه عاصم ، الهمكم الله اصلح الالهام ، ورداكم رداء الاكرام ، واحلكم دار السلام ، واسئله الرحمة لكم ولاهل ملّة الاسلام ، وهو اسمح الكرام ، والمُسَلِّم والسلام ، قال الحارث بن همام ، فلما رايت الخطبة نخبةً بلا سقط ، وعروسًا بغير نقط ، ادعاني الاعجاب بنظمها العجيب ، الى استجلاء وجه الخطيب ، فاخذت اتوسمه جدًا ، واقلّب الطرف فيه مُجِدًا ، الى ان وضح لي بصدق العلامات ، انه شيخنا ذو المقامات ، ولم يكن بدّ من الصمت في ذلك الوقت ، فامسكت حتى تحلل من النفل والفرض ، وحلّ الانتشار في الارض ، ثم واجهت تلقاه ، وابتدرت لقاه ، فلما لحظني خفّ في القيام ، واحفى في الاكرام ، ثم استصحبني الى داره ، واودعني خصايص اسراره ، وحين انتشر جناح الظلام ، وحان ميقات المنام ، اخصر اباريق المدام ، معكومة بالفدام ، فقلت اتحسوها امامُ النوم ، وانت إمام القوم ، فقال مَه انا بالنهار خطيب ، وبالليل اطيب ، فقلت والله ما ادري اعجب من تسليك عن اناسك ، ومسقط راسك ، ام من خطابتك مع اداسك ، ومدار كاسك ، فاشاح بوجهه عني ، ثم قال اسمع مني *

لا

لا تبـــكِ القـا نـائ ولا دار ودُر مـع الدهر كيفـــما دارا
واتّخذ النـاس كُلهم سَكنا ومثّـــل الارض كلهـــا دارا
واصبِـر على خُلق من تعاشـرهُ ودارِه فـاللبـيب مـــن دارا
ولا تُضِع فُـــرصة السرور فمـا تدري ايـومًا تعيش ام دارا
فا علـم بان المنـــون جـايلةٌ وقد ادارت على الـــورى دارا
واقسمـتْ لا تـــزال قا نصـــةً ما كَر عصرُ المَحْيا ومـا دارا
فكيف تُرجَى النجاة من شـركٍ لم ينج منه كســـري ولا دارا

قال فلما اعتورتنا الكـؤوس ، وطربت النـفوس ، جرعنى اليميـــن الغموس ، على ان احفظ عليه النـاموس ، فاتبعت مرامه ، ورعيت ذِمامه ، ونزّلته بين الملا منزلة الفُضيل ، وسدلت الذيل على مخازي الليل ، ولم يزل ذلك دأبه ودابى ، الى تهيّأ إيَابى ، فودعته وهومُصِرٌّ على التدليس ، ومُسِرٌّ حسو الخندريس

المقامة التاسعة والعشرون الواسطيّة

حكى الحارث بن همام قال ، الجانى حكم دهر قاسط ، الى ان انتجع ارض واسط ، فقصدتها وانا لا اعرف بها سكنا ، ولا املك فيها مسكنا ، ولما حللتها حلول الحوت بالبيدآ ، والشعرة البيضآ ، فى الهة السودآ ، قادنى الحظ الناقصُ ، والجدّ الناكصُ ، الى خان ينزله شُذاذ الافاق ، واخـــلاط الرفاق ، وهو لنظافة مكانه ، وظرافة سُكّانة يُرغّب الغريبَ فى ايطانـــه ، ويُنسيه

ويُنسيه هوي اوطانه ، فاستفردت منهُ بحجرة ، ولم انافس في أُجرة ، فما كان إلَّا كلمح طرف ، او خطّ حرف ، حتى سمعت جاري بيتَ بيتَ ، يقول لنزيله في البيت ، قم يا بُنيَّ لا قعد جَدُّك ، ولا قام ضِدك ، واستصحب ذا الوجه البدري ، واللون الدُرى ، والاصل النقيّ ، والجسم الشقيّ ، الذي قُبض ، ونشر وسجن وشهر ، وسُقي وفطم وادخل النار بعد ما لطم ، ثم اركض الى السوق ، ركض المَشوق ، فقابض بهِ اللاقح المُلقح ، المفسِد المُصلح ، المُكمِد المُفرح المُعنّى المُروِّح ، ذا الزفير المحرق والجنين المشرق ، واللفظ المقنع والنيل المُمتع ، الذي اذا طرق رَعَدَ وبرق ، وباح بالحُرق ونفث في الخِرَق ، قال فلما قَرَّت شقشقة الهادر ، ولم يبق الَّا صدر الصادر ، برز فتى يهيس ، وما معه انيس ، فرايتها عضلة تلعب بالعقول ، وتُغري بالدّخول في الفُضول ، فانطلقت في اثر الغُلام ، لاخبر فحوي الكلام ، فلم يزل يسعى سعى العفاريت ، ويتفقد نضايد الحوانيت ، حتى انتهى عند الرواح ، الى حجارة القداح ، فناول بايعها رغيفا ، وتناول منه حجرًا لطيفًا ، فعجبت من فطانه المُرسِل والمُرسل ، وعلمت انها سروجيَّةٌ وان لم اسأل ، وما كذبت ان بادرت الى الخان ، منطلق العنان ، لانظر كنه فهمى ، وهل قرطس في التكهن سهمى ، فاذا انا في الفراسة فارس ، وابو زيد بوصيد الخان جالس ، فتهاديا بشري الالتقا ، وتقارضا تحية الاصدقا ، ثم قال ما الذى نابك ، حتى زايلت جنابك ، فقلت دهرٌ هاضَ ، وجور فاضَ ، فقال والذي انزل المطر من الغمام ، واخرج الثمر من الاكمام ، لقد فسد الزمان وعمّ العدوان ، وعُدم المِعْوان ، والله المستعان ، فكيف افلتّ ، وعلى اي وصفيك اجفلت

اجفلت ، فقلت اتخذت الليل قميصا ، وادلجت فيه خميصا ، فاطرق ينكث فى الارض ، ويفكر فى ارتياد القرض والفرض ، ثم اهتز هزة من اكثبه قنصر ، او بدت له فُرص ، وقال قد علق بقلبى ان تصاهر من ياسو جراحك ، ويريش جناحك ، فقلت وكيف اجمع بين غُلّ وقُلّ ، ومن الذى يرغب فى ضُلٍّ بن ضُلّ ، فقال انا المشير بك واليك ، والوكيل لك وعليك ، مع ان دين القوم جبر الكسير ، وفكّ الأسير ، واحترام العشير ، واستنصاح المشير ، إلّا انهم لوخطب اليهم ابرهيم بن ادهم ، اوجبلة بن الايهم ، لما زوّجوه إلّا على خمسمائة درهم ، (٢) على انك لن تطالب بصداق ، ولا تُلجا الى طلاق ، ثم انى ساخطب فى موقق عقدك ، ومجمع حشدك ، خطبةً لم تفتق رتق سمع ، ولا خُطب بمثلها فى جمع ، قال الحارث بن همام ، فازدهانى بوصف الخطبة المتلوّة ، دون الخطبة المجلوّة ، حتى قلت له قد وكلت اليك هذا الخطب ، فدبره تدبير من طبّ لمن حبّ ، فنهض مُهرولاً ثم عاد مُتهلّلاً ، وقال ابشر باعتاب الدهر ، واحتلاب الدرّ قد وُلّيت العقد ، واكفلت النقد ، وكان قد ، ثم اخذ فى مواعدة اهل الخان ، واعداد حلوآ الخوان ، فلما مدّ الليل اطنابه ، واعلق كل ذي باب بابه ، اذّن فى الجماعة ، الا احضروا فى هذه الساعة ، فلم يبق فيهم إلّا من لبّى صوته ، وحضر بيته ، فلما اصطفّوا لديه ، واجتمع الشاهد والمشهود عليه ، جعل يرفع الاصطرلاب ويضعه ، ويلحظ التقويم ويدعه ، الى ان نعس القوم ، وغشى النوم ، فقلت له يا هذا ضع الفأس فى الراس ، وخلّص الناس ، من النُعاس ، فنظر نظرة فى النجوم ، ثم انتشط من عُقلة الوجوم ، واقسم بالطور ، والكتاب المسطور ، لينكشفن

(٢) اقتداء بما مهر الرسول زوجاته وعقد به انكحة بناته

سرُّ هذا الامر المستور ، ولينشرن ذكره الى يوم النشور ، ثم انه جثا على ركبته ، واسترعى الاسماع لخطبته ، وقال ، الحمد لله الملك المحمود ، المالك الودود ، مصوِّر كل مولود ، ومآل كل مطرود ، ساطح المهاد ، وموطد الاطواد ، ومرسل الامطار ، ومسهل الاوطاز ، عالم الاسرار ومُدركها ، ومُدمِّر الاملاك ومهلكها ، ومكوِّر الدهور ومكرِّرها ، ومورد الامور ومصدرها ، عمّ سماحه وكمل ، وهطل رُكامه وهمل ، وطاوع السؤل والامل ، واوسع المُرمل والارمل ، احمده حمدًا مهدودًا مداه ، واوحّده كما وحَّده الاوّاه ، وهو الله لا اله للامم سواه ، ولا صانع لما عدَّله وسوَّاه ، ارسل محمّدا علما للاسلام ، واماما للحُكام ، ومسدّدًا للزعاع ، ومعطّلا احكام وُدٍّ وسُواع ، اعلم وعلّم ، وحكم واحكم ، واصّل الاصول ومهّد ، واكد الوعود واوعد ، واصل الله له الاكرام ، واودع روحه دار السلام ، ورحم آله واهله الكرام ، ما لمع آل ، وملع رأل ، وطلع هلال ، وسمع اهلال ، اعملوا رعاكم الله اصلح الاعمال ، واسلكوا مسالك الحلال ، واطرحوا الحرام ودعوه ، واسمعوا امر الله وعوه ، وصلوا الارحام وراعوها ، وعاصموا الاهوآ واردعوها ، وصابروا لحُمَ الصلاح والورع ، وصارموا رهط اللهو والطمع ، ومصاهركم اطهر الاحرار مولدا ، واسراهم سُودَدا واحلاهم مَوردا ، واصحّهم موعدا ، وها هو امّكم ، وحلّ حرمكم ، مُهلكا عروسكم المكرمة ، وماهرا لها كما مهر الرسول ام سلمة ، وهو اكرمُ صِهرٍ اُودع الاولاد ، وملك ما اراد ، وما سمها مُهلكه ولا وهم ، ولا وكس ملاحمه ولا وصم ، اسأل الله لكم احهادَ وصاله ، ودوام اسعاده ، والهم كلاّ اصلاح حاله ، والاعداد لمعاده ، وله الحمد السرمد ، والمدح لرسوله محمّد ، فلما فرغ من خطبته البديعة النظام

النظام ، العريّة من الاعجام ، عقد العقد على الخمس المئين ، وقال بالرفاء والبنين ، ثم احضر الحلوآ التى كان اعدّها ، وابدي الإبدة عندها ، فاقبلت اقبال الجماعة عليها ، وكدت أهْوي بيدى اليها ، فزجرنى عن المواكلة ، وانهضنى للمناولة ، فوالله ما كان باسرع من تصافح الاجفان ، حتى خرّ القوم للاذقان ، فلما رايتهم كاعجاز نخلٍ خاوية ، او صرعى بِنت خابية ، علمت انها احدي الكبَر وأمّ العِبَر ، فقلت له يا عُدَيّ نفسه وعُبيد فلسه ، اعددت القوم حلوي ام بلوي ، فقال لم اعدُ خبيص البنج ، فى صحاف الخلنج ، فقلت أُقسم بهن اطلعها زُهرا ، وهدي بها السارين طُرًّا ، لقد جئت شيا نكرا ، وابقيت لك فى المُخزيات ذِكرا ، ثم حِرت فكرةً فى صيَّور امرة ، وخيفة من عدوى عَرّه ، حتى طارت نفسى شعاعا ، وأرعِدت فرايصى ارتياعا ، فلما رآني استطارة فَرَقى ، واستشاطة قلقى ، قال ما هذا الفكر المرمض ، والروع المومض ، فان يكن اهتمامك فى أجلى ، من اجلى ، فانا الان ارتع واطفر ، واقوي هذه البقعة منى واقفِر ، وكم مثلها فارقتها وهى تصفِر ، وان يكن نظَرًا لنفسك ، وحذرًا من حبسك فتناول فضالة الخبيص ، وطِب نفسا عن القميص ، حتى تامن المستعدِيَ والمعدِي ، وينتهد لك المقام بعدي ، والاّ فالمفرّ المفرّ قبل ان تُسحَب وتجرّ ، ثم عمد لاستخراج ما فى البيوت ، من الاكياس والتخوت ، وجعل يستخلص خالصة كل مخزون ، ونخبة كل مذروعٍ وموزون ، حتى غادر ما الفاه فخّه ، كعظم اُستُخرج مُخّه ، فلما همّن ما اصطفاه ورزَّم ، وشمر عن ذراعه وتحزم ، اقبل علىّ اقبال مَن لبس الصفاقة ، وخلع الصداقة ، وقال هل لك فى المصاحة

المصاحبة الى البطيحة ، لاصلة باخرى مليحة ، فاقسمت له بالذي جعله مباركاً اينما كان ، ولم يجعله من خان فى خان ، انهُ لا قبل لى بنكاح حُرّتين ، ومعاشرة ضَرَّتين ، ثم قلت له قول المتطبع بطباعه ، الكايل له بصاعه ، قد كفتنى الاولى فخرا ، فاطلب اخر للاخري ، فتبسّم من كلامى ، ودلق لالتزامى فلويت عنه عذاري ، وابديت له ازوراري ، فلما بَصُرَ بانقباضى ، وتجلى له اعراضى ، انشد ❊

يا صارفا عنى المودّة والزمان له صروف
ومعنفى فى فضح من جاورتُ تعنيفَ العسوفْ
لا تلحَنى فيها اتيت فاننى بهم عروفْ
ولقد نزلت بهم فلم ارهم يراعون الضيوفْ
وبلوتهم فوجدتهم لما سبكتهم زيوفْ
ما فيهم الاَّ مُحيفٌ ان تهكن او مخوفْ
لا بالصفىّ ولا الوفىّ ولا الحفى ولا العطوفْ
فوثبت فيهم وثبة ال ذيب الضري على الخروف
وتركتهم صرعَى كانهم سقوا كاس الحتوف
وتحكمت فيها اقتنوه يدي وهم رُغم الانوف
ثم انثنيت بهفنم حُلو المجانى والقطوف
ولطالما خَلَّفت مكلوم الحشَى خَلْفى يطوف
ووثرت ارباب الارا يُدَ والدراهم والسجوف
ولكم بلغت بحيلتى ماليس يُبلغ بالسيوف
ووقفت فى هول تُراع الاسْد فيه من الوقوف

ولكم

ولكم سفكت وكم فتكت وكم هتكت حمى انوف
وكم ارتكاض موبق لى فى الذنوب وكم خفوف
لكننى اعددت حُسن ال ظنّ بالمولى الرؤف

قال فلما انتهى الى هذا البيت لجّ فى الاستعبار ، والظّ بالاستغفار ، حتى استهال هوي قلبى المنحرف ، ورجوت له ما يُرجى للمقترف المعترف ، ثم انه غيّض دمعه المنهلّ ، وتابّط جرابه وانسلّ ، وقال لابنه احتمل الباقى والله الواقى ، قال المخبر بهذه الحكاية ، فلما رايت انسياب الحيّة والحُيَيّة ، وانتهاء الدآء الى الكيّة ، علمت ان تربثى بالخان ، مجلبة للهوان ، فضممت رُحيلى ، وجمعت للرحلة ذيلى ، وبتُّ ليلتى اسري الى الطِيب ، واحتسب الله على الخطيب *

المقامة الثلثون الصوريّة

حكى الحارث بن همام قال ، ارتحلت من مدينة المنصور ، الى بلدة صور ، فلما حصلت بها ذا رفعةٍ وخفض ، ومالٍ رفع وخفض ، تُقت الى مصر توقان السقيم الى الاساة ، والكريم الى المُواساة ، فرفضت علايق الاستقامة ، ونفضتُ عوايق الاقامة ، واعْرَوْريت ظهرَ ابن النّعامة ، واجفلت نحوها اجفال النّعامة ، فلما دخلتها بعد معاناة الاين ، ومداناة الحين ، كلِفت بها كلَف النَشوان بالاصطباح ، والحيران بتنفّس الصباح ، فبينما انا يومًا بها اطوف ، وتحتى فرس قطوف اذ رايت على جُرد من الخيل ،

Digitized by Google

الخيل ، عُصبة كمصابيح الليل ، فسالت لانتجاع النُزهة ، عن العصبة والوجهة ، فقيل اما القوم فشهود ، واما المَقصَد فاملاك مشهود ، فحدتني ميْعة النشاط ، على ان سرت مع الفُرّاط ، لافوز بحلاوة اللقاط ، واحوز حلوآ السماط ، فافضينا بعد مكابدة العنآ ، الى دار رفيعة البنآ وسيحة الفِنآ ، تشهد لبانيها بالثرآء والسناء فلما نزلنا عن صهوات الخيول ، وقدّمنا الاقدام للدخول ، رايت دهليزًا مجللاً باطمار مُخرَّقة ، ومكلّلاً بمخارفٍ معلقة ، وهناك شخصٌ على قطيفة ، فوق دكّةٍ لطيفة ، فرابني عُنوان الصحيفة ومرأي هذه الطريفة ، ودعاني التطير بتلك المناحس ، الى ان عمدت لذلك الجالس ، فعزمت عليه بصرّف الاقدار ، ليعرفني من ربُّ هذه الدار ، فقال ما لها مالك معيَّن ، ولا صاحب مبيَّن ، انما مصطبة المقيِّفين والمُدْرِوزين ، ووليجة المشقشقين والمُجَلْوزين ، فقلت في نفسي انا لله على ضلّة المسعى ، وامحال المرعى ، وهممت في الحال بالرجعى ، لكني استهجنت العَود من فوري ، والقهقرة دون عيري ، فولجت الدار متجرعًا الغُصص ، كما يلج العصفور القفص ، فاذا فيها ارايكٌ منقوشة ، وطنافسُ مفروشة ، ونمارقُ مصفوفة ، وسجوفٌ مرصوفة ، وقد اقبل المهلك يهيس في بردته ، ويتبهنس بين حفدته فحين جلس كانه ابن مآ السما ، نادي منادٍ من قبل الاحمآ ، وحرمة ساسان استاذ الاستاذين ، وقدوة الشحّاذين ، لا عقد هذا العقد المبجّل ، في ذا اليوم الاغرّ المُحجَّل ، إلّا الذي جال وجاب ، وشب في الكدْية وشاب ، فاعجب رهط الصهر ما اشاروا اليه ، واذِنوا في احضار المنصوص عليه ، فبرز حينيذٍ شيخٌ قد امال الملوان قامته ، ونوّر الفتيان ثغامته ، فتباشرت الجماعة

الجماعة باقباله ، وتبادرت الى استقباله ، فلما جلس على زربيّته ، وسكنت الضوضا لهيبته ، ازدلف الى مسنده ، ومسح سبْلته بيده ، ثم قال ، الحمد لله المبتدي بالافضال ، المبتدع للنوال ، المتقرب اليه بالسوال ، المؤمّل لتحقيق الامال ، الذي شرع الزكوة فى الاموال ، وزجر عن نهر السّوال ، وندب الى مواساة المضطرّ ، وامر باطعام القانع والمعتـرّ ، ووصف عباده المقرّبين ، فى كتابه المبين ، فقال وهو اصدقُ القايلين ، والذين فى اموالهم حقٌ معلوم ، للسايل والمحروم ، احمده على ما رزق من طعمةٍ هنيّة ، واعوذ بهِ من استماع دعوةٍ بلا نيّة ، واشهد ان لا اله الاّ الله وحده لا شريك له ، اله يجزي المتصدّقين والمتصدّقات ، ويمحق الربا ويُربى الصدقات ، واشهد ان محمدا عبده الرحيم ، ورسوله الكريم ، ابتعثه لينتسخ الظلمة بالضيا ، وينتصف للفقراء من الاغنياء ، فرفق صلى الله عليه وسلم بالمسكين ، وخفض جناحه لهستكين ، وفرض الحقوق فى اموال المثرين ، وبيّن ما يجب للمُقلّين على المُكثرين ، صلى الله عليه صلاةَ تُحظيه بالزلفة ، وعلى اصفيايه اهل الصُفّة ، اما بعد فان الله شرع النكاح لتعفّفوا ، وسنّ التناسل لكى تتضاعفوا ، فقال سبحانه لتعرفوا يا ايّها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شعوباً وقبايل لِتعارفوا ، وهذا ابو الدرّاج ولاّج بن خرّاج ، ذو الوجه الوقاح ، والافك الصُّراح ، والهرير والصياح ، والابرام والالحاح ، يخطب سليطة اهلها ، وشريطة بعلها ، قنبس بنت ابى العنبس ، لما بلغه من التحافها بالحافها ، واسرافها فى اسفافها ، وانكماشها على معاشها ، وانتعاشها عند هراشها ، وقد بذل لها من الصداق شلّاقا وعكّازا ، وصِقَاعًا وكَرّازا ، فانكحوه انكاح مثله ، وصِلوا حبلكم

حبلكم بحبله ، وان خِفتم عَيْلةً فسوف يُغنيكم الله من فضلهِ ، اقول قولى هذا واستغفر الله العظيم لى ولكم ، واسئله ان يكثّر فى المَصاطب نسلكم ، ويحرس من المعاطب شملكم ، فلما فرغ الشيخ من خُطبته ، وابرم للختن عَقْد خِطبته ، تساقط من النثار ، ما استغرق حد الاكثار ، واغريَ الشحيح بالايثار ، ثم نهض الشيخ يسحب ذلاذله ، ويقدم اراذله ، قال الحارث بن همام فتبعته لانظر عُرجة القوم ، واكحل بَهجة اليوم ، فعاج بهم الى سماطٍ زيّنته طُرفاته ، وتناصفت فى الحُسن جِهاته ، فحين رمق كل شخصٍ فى ربضته ، وطفِق يرتع فى رَوْضته ، انسللتُ من الصفّ ، وفررت من الزحف ، فحانت من الشيخ لفتةٌ الىّ ، ونظرةٌ هجم بها طرفهَ علىّ ، فقال لى الى اين يا برم ، هَلاَّ عاشرت معاشرة من فيه كرم ، فقلت والذي خلقها طباقا ، وطبَّقها اشراقا لا ذقت لماقا ، ولا لُسعت رُقاقا ، او تخبرنى اين مذبّ صِباك ، ومن اين مهبّ صَباك ، فتنفّس الصُعدا مِرارا ، وارسل البكا مِدرارا ، حتى اذا استنزف الدمعَ ، استنصت الجمعَ ، وقال لى اسمع وانشد *

مَسقط الراس سَروجُ ... وبها كنتُ اموجُ
بلدةٌ يوجد فيها ... كل شئٍ وبروجُ
وِردُها من سلسبيلٍ ... وصحاريها مروجُ
وبنوها ومغانيهم ... نجومٌ وبروجُ
حبّذا نفحة ريّاها ... ومرأها البهيجُ
وازاهير رُباها ... حين تنجاب الثلوجُ
من رأها قال مرسى ... جنة الدنيا سروجُ

ولن

Digitized by Google

ولمن ينزاح عنها زفراتٌ ونشيجْ
مثلَ ما لاقيت منذ زحزحنى عنها العُلوجْ
عَبرةٌ تهمى وشجوٌ كلما قرّ يهيجْ
وهمومٌ كل يوم خَطبُها خطبٌ مريجْ
ومساعٍ فى الترجّى قاصرات الخطو عُوجْ
ليت يومى حُمّ لمّا حُمَّ لى منها الخروجْ

قال فلما بيّن بلده ووعيت ما انشده ، ايقنت انه علّامتنا ابو زيد ، وان كان الهرم قد اوثقه بقيد ، فبادرت الى مصافحته ، واغتنمت مواكلته من صحفته ، وظلت مُدّةَ مقامى بمصر اعشو الى شواظه ، واحشو صدفتى من دُرر الفاظه ، الى ان نعب بيننا غراب البين ، ففارقته مفارقة الجفن للعين *

المقامة الحادية والثلثون الرمليّة

حدث الحارث بن همام قال ، كنت فى عنفوان الشباب ، وريّعان العيش اللُباب ، اقلى الاكتنان بالغاب ، واهوى الاندلاق من القِراب ، لعلمى انَ السَّفر ، ينفج السُّفَر ، وينتج الظَّفر ، ومعاقرة الوطن ، تعقِر الفِطن ، وتحقر من قطن ، فاجلت قداح الاستشارة ، واقتدحت زناد الاستخارة ، ثم استنجشت جاشًا اثبت من الحجارة ، واصعدت الى ساحل الشام للتجارة ، فلما خيّمت بالرملة ، والقيت بها عصا الرحلة ، صادفت

Digitized by Google

صادفت ركابًا تُعَدّ للسُرَي ، ورحالاً تشتدّ الى امّ القُرَي ، فعصفت بى ريحُ الغرام ، واهتاج لى شوق الى البيت الحرام ، فزممت ناقتى ، ونبذت عُلقى وعلاقتى *

وقلت للأيمى اقصِر فانى ساختار المقام على المُقام
وانفق ما جمعت بارض جمعٍ واسلو بالحطيم عن الحُطام

ثم انتظمت مع رُفقة كنجوم الليل ، لهم فى السير جرية السيل ، وفى الخير جرى الخيل ، فلم نزل بين ادلاج وتاويب ، وايجاف وتقريب ، الى ان حبتْنا ايدى المطايا بالتُحفة ، فى ايصالنا الى الجُحفة ، فحللناها متاهبّين للاحرام ، متباشرين بادراك المرام ، فلم يكن الا ان انخنا الركايب ، وحططنا الحقايب ، حتى طلع من بين الهضاب ، شخص ضاحى الاهاب ، وهو ينادي ، يا اهل ذا النادي ، هلمّ الى ما يُنجى يومَ التنادي ، فانخرط اليه الحجيج وانصلتوا واحتفّوا به وانصتوا ، فلما راي تاثفهم حوله ، واستعظامهم قوله ، تسنّم احدي الآكام ، ثم تنحنح مستفتحًا للكلام ، وقال يا معشر الحجاج الناسلين من الفجاج ، اتعقلون ما تواجهون ، والى من تتوجهون ، ام تدرون على من تقدمون وعلامَ تقدِمون ، اتخالون ان الحج هو اختيار الرواحل ، وقطع المراحل ، واتّخاذ المحامل وايقار الزوامل ، ام تظنّون ان النُسك هو نَضو الاردان ، وانضآ الابدان ، ومفارقة الولدان ، والتنائى عن البُلدان ، كَلّا بل هو اجتناب الخطيّة ، قبل اجتلاب المطية ، واخلاص النيّة ، فى قصد تلك البنيّة ، وامحاض الطاعة ، عند وجدان الاستطاعة ، واصلاح المعاملات ، امام اعمال البعملات ، فالذي شرع المناسك ، للناسك ، وارشد

وارشد السالك ، فى الليل الحالك ، ما يُنقى الاغتسالُ بالذنوب ، من الانغماس فى الذُنوب ، ولا تعدل تعريةُ الاجسام بتعبية الاجرام ، ولا تغنى لبسة الاحرام ، عن المتلبِّس بالحرام ، ولا ينفع الاضطباع بالازار ، مع الاضطلاع بالاوزار ، ولايُجدي التقرّب بالحلق ، مع التقلب فى ظُلم الخلق ، ولا يرخص التنسك بالتقصير ، دون التمسك بالتقصير ، ولا يسعد بعرفة ، غير اهل المعرفة ، ولا يزكو بالخيف ، من يرغب فى الحيف ، ولا يشهد المَقام ، الاَّ لمن استقام ولا يحظَى بقبول الحَجَّة ، من زاغ عن المَحَجَّة ، فرحم الله امرًا صفا قبل مسعاه الى الصفا ، وورد شريعة الرضا ، قبل شروعه على الاضا ، ونزع عن تلبيسه ، قبل نزوع ملبوسه ، وفاض بمعروفه قبل الافاضة من تعريفه ، ثم رفع عقيرته بصوتٍ اسمع الصم ، وكاد يزعزع الجبال الشُمّ وانشد *

ما الحجّ سيرُك تاويبًا وادلاجا ... ولا اعتيامُك اجمالاً واحداجا
الحج ان تقصد البيت الحرام على ... تجريدك الحج لا تقضى به حاجا
وتهتطى كاهل الانصاف متّخذا ... رِدَعَ الهوي هاديًا والحقّ منهاجا
وان تواسى ما اوتيت مَقدُرَةً ... من مَدَّ كفًّا الى جدواك محتاجًا
فهذه ان حوتها حَجَّةٌ كملت ... وان خلا الحج منها كان اخداجا
حسب المرائيين غبنا انهم غرسوا ... وما جنوا ولقوا كدًّا وازعاجا
وانهم حُرموا اجرًا ومحمدةً ... والحموا عرضهم من عاب او هاجا
اخىَّ فابغِ بها تبديه من قُرَبٍ ... وجهَ المُهَيْمن ولّاجا وخرّاجا
فليس تخفى على الرحمن خافيةٌ ... ان اخلص العبدُ فى الطاعات او داجا
وبادر الموت بالحُسنى تقدّمها ... فما يُنهنه داعى الموت ان فاجا

واقن

Digitized by Google

واقن التواضع خلقًا لا تزايله ... عند الليالى ولو البسنك التاجا
ولا تشم كل خالٍ لاح بارقه ... ولو تراءي هتونَ السكب ثجاجا
ما كل داعٍ باهل ان يُصاخ له ... كم قد اصمَّ بنعى بغضَ مَن ناجا
وما اللبيب سوي من بات مُقتنعًا ... ببُلغةٍ يُدرج الايامَ ادراجا
فكل كُثر الى قُلٍّ مَغِبَّتُهُ ... وكل نازالى لين وان هاجا

قال الراوى فلما القح عقم الافهام ، بسحر الكلام ، استروحت ريحَ ابى زيد ، وماد بى الارتياح اليه ايَّ ميد ، فمكثت حتى استوعب نثَّ حِكمته ، وانحدر من اكمته ، ثم دلفتُ اليه لاتصفح صفحات مُحَيَّاه ، واستشفُّ جوهر حُلاه ، فاذا هو الضالة التى انشُدها ، وناظم القلايد اللاتى انشدها فعانقته عناق اللام للالف ، ونزّلته منزلةَ البُرء عند الدنف ، وسالته ان يلازمنى فابى ، او يزاملنى فنبا ، وقال البيت فى حجتى هذه الا احتقب ، ولا اعتقب ، ولا اكتسب ، ولا انتسب ، ولا ارتفق ، ولا ارافق ، ولا أُوافق ، من يُنافق ، ثم ذهب يُهَرْول ، وغادرنى أُوَلْول ، فلم ازل اقربه نظري ، واودّ لو يمشى على ناظري حتى توقّل احد الاطواد ، ووقف للعجيج بالمرصاد ، فحين شاهد ايضاع الركبان فى الكثبان ، وقع بالبنان ، على البنان ، واندفع ينشد *

ليس من زار راكبًا ... مثل ساعٍ على القدم
لا ولا خادمٌ اطاعَ ... كعاصٍ من الخدم
كيف يا قوم يستوي ... سعْىُ بانٍ ومن هدم
سيُقيم المفرّطون ... غدًا مأثم الندم
ويقول الذى تقرَّ ... ب طوبَى لمن خدم

ويلا

وَيْلَهْ يا نفسِ قدّمي صالحًا عند ذي القِدم
وازدري زُخرف الحيا ةِ فوجدانه عدم
واذكري مَصرعَ الحِما م اذا خطبُه صدم
واندُبي فعلَهُ القبيح وسُمّي له بِدم
وادبُغيه بتوبةٍ قبل ان يعلَم الادم
فعسى الله ان يقيـ ـلَ السعير الذي احتدم
يومَ لا عثرة تُقا ل ولا ينفع السدم

ثم انه اغمد عضب لسانه ، وانطلق لشأنه ، فما زلت فى كل موردٍ نَرده ومعرّس نتوسده ، اتفقّده ، فافقده ، واستنجد بمن ينشُده فلا يجِده ، حتى خلت ان الجن قد اختطفته ، او الارض اقتطفته ، فما كابدتُ فى الغُربة كهذه الكُربة ، ولا مُنيت فى سفرة ، بمثلها من زفرة *

المقامة الثانية والثلثون الحربيّة

حكى الحارث بن همام قال ، اجمعت حين قضيت مناسك الحجّ ، واقمت وظايف العجّ والثجّ ان اقصد طيبة ، مع رُفقةٍ من بنى شيبة ، لازور قبر المصطفى ، واخرج من قبيل من حجّ وجفا ، فارجف بان المسالك شاغرة ، وعرب الحرمين متشاجرة فحرت بين اشفاق ، يثبّطنى واشواقٍ تنشّطنى ، الى

الى ان ألقى فى روعى الاستسلامُ ، وتقليب زيارة قبره عليه السلام ، فاعتمت القُعدةَ ، واعددت العُدَّة ، وسِرت والرفقة لا نلوى على عُرجة ، ولا ننى فى تاويبٍ ودلجة ، حتى وافينا بنى حَرِبٍ ، وقد آبوا من حَرْبٍ ، فازمعنا ان نقضّى ظِل اليوم ، فى حِلّة القوم ، وبينما نحن نتخيَّر المناخ ، ونرود الورد النُّقاخ ، اذ رايناهم يركضون ، كانهم الى نصبٍ يوفضون ، فرابنا انثيالهم ، وسألنا ما بالهم ، فقيل قد حضر ناديهم فقيه العرب ، فاهراعُهم لهذا السبب ، فقلت لرُفقتى الا نشهد مجمع الحىّ ، لنتبين الرُشد من الغىّ ، فقالوا لقد اسمعت اذ دعوت ، ونصحت وما الوت ، ثم نهضنا نتبع الهادي ، ونؤمّ النادي ، حتى اذا اظللنا عليه ، واستشرفنا الفقيه المنهود اليه ، الفيته ابا زيدٍ ذا الشَّقَر والبُقَر ، والفواقر والفِقَر ، وقد اعتمَّ القَفدآ ، واشتمل الصمّآ ، وقعد القرفصآ ، واعيان الحىّ به محتفّون ، واخلاطهم عليه ملتفّون ، وهو يقول ، سلونى عن المُعضلات ، واستوضحوا منى المُشكلات ، فوالذى فطر السمآ ، وعلّم ادم الاسمآ ، انى لفقيه العرب العربآ ، واعلم من تحت الجربآ ، فصمد له فتى فتيق اللسان ، جرىّ الجنان ، وقال انى حاضرت فقهآ الدنيآ ، حتى انتخلت منهم مايةَ فَتيا ، فاذ كنت ممن يرغب عن بنات غير ، ويرغب منّا فى مير ، فاستمع واَجب ، لنُقابَل بما يجب ، فقال الله اكبر ، سيبين المحبر وينكشف المُضمَر ، فاصدع بما تُؤمَر

فقال ما تقول فيمن توضّا ثم لمس ظهر نعله ، قال انتقض وضوءه بفعله

(النعل الزوجة)

قال فان توضّا ثم اتكاه البرد ، قال يجدّد الوضوء من بعد (البرد النوم)

قال

Digitized by Google

قال ايمسح المتوضى انثييه ، قال قد ندب اليه ولم يوجب عليه (الأُنثيان الأُذنان)

قال ايجوز الوضو بما يقذفه الثعبان ، قال واي ماء انظف منه للغربان (الثُعبان جمع ثَعب وهو مسيل الوادي)

قال ايجوز ان يُستباح ما الضرير ، قال نعم ويجتنب ما البصير (الضرير حرف الوادي والبصير الكلب)

قال ايحلّ الطوف فى الربيع ، قال يُكرَه ذلك للحدث الشنيع (الطوف التغوُّط والربيع النهر الصغير)

قال ايجب الغسل على من امنى قال لا ولو ثنّى (امنى نزل منى يقال منه منى وامنى وامتنى)

قال فهل يجب على الجُنُب غسل فروته ، قال اجل وغسل ابرته (الفروة جلد الراس والابرة عظم المَرفق)

قال فان اخلّ بغسل فأسه ، قال هو كما لو الغى غسل راسه (الفأس العظم المشرف على نقرة القفا)

قال ما تقول فيمن تيمم ثم راي روضا ، قال بطل تيممه فليتوضّا (الروض هاهنا جمع روضة وهى الصُّبابة تبقا فى الحوض)

قال ايجوز ان يسجد الرجل فى العَذرة ، قال نعم ويجانب القذرة (العذرة فناء الدار)

قال فهل له السجود على الخِلاف ، قال لا ولا على احد الاطراف (الخِلاف الكمّ)

قال فان سجد على شمالِه ، قال لا بلس بفعاله (الشمال جمع شَمْلة)

قال

قال فهل يجوز السجود على الكراع ، قال نعم دون الذراع (الكراع ما استطال من الحرّة)

قال ايصلّى على راس الكلب ، قال نعم كساير الهضب (راس الكلب ثنيّة مقروفة)

قال ما تقول فيمن صلّى وعانته بارزة ، قال صلاته جايزة (العانة الجماعة من حُمُر الوحش)

قال فان صلّى وعليه صوم ، قال يعيد ولو صلى ماية يوم (الصوم ذرق النعام)

قال فان حمل جروًا ثم صلّى ، قال هو كما لو حمل باقلّى (الجرو الصغار من القثّا والرُّمّان)

قال اتصحّ صلوة حامل القروة ، قال لا ولو صلى فوق المروة (القروة مبلغة الكلب)

قال فان قطر على ثوب المصلى نجو ، قال يمضى فى صلاته ولا غرو (النجو السحاب الذى قد هراق ماءه)

قال ايجوز ان يؤمّ الرجال مقنّع ، قال نعم ومدرّع (المقنّع لابس المغفر والمدرع لابس الدرع)

قال فان امتهم من فى يده وقق ، يعيدون ولو انهم الف (الوقق السوار من العاج او الذبل واراد انه لا يجوز للرجال الايتمام بالنساء)

قال فان امتهم من فخذه بادية ، قال صلاته وصلاتهم ماضية (الفخذ العشيرة وبادية يسكنون البدو واختار بعضهم تسكين الخاء منها ليفرق بينها وبين الفخذ من الاعضاء)

قال

قال فان اسمهم الثور الاجمّ ، قال صلِّ وخلاك ذمّ (الثور السيد والاجمّ الذي لا رُمح معه)

قال ايدخل القصر في صلوة الشاهد ، قال لا والغايب الشاهد صلاة الشاهد صلاة المغرب سُمّيت بذلك لاقامتها عند طلوع النجم لان النجم يُسمّى الشاهد)

قال ايجوز للمعذور ان يفطر فى رمضان ، قال ما رُخّص فيه الاّ للصبيان (المعذور المختون وهوايضا المُعذر)

قال فهل للعرّس ان ياكل فيه ، قال نعم بملء فيه (المعرس المسافر الذي ينزل فى اخر ليلة ليستريح ثم يرتحل)

قال فان افطر فيه العُراة ، قال لا ينكر عليهم الوُلاة (العُراة الذين تاخذهم العُرواء وهى الحُمّى برعدة)

قال فان اكل الصايم بعد ما اصبح ، قال هو احوط له واصلح (اصبح اي استصبح بالمصباح)

قال فان عمد لان اكل ليلا ، قال ليشمّر للقضآ ذيلاً (الليل الانثى من فراخ الحبارى على ما ذكره ابن دُريد وقيل هو ولد الكروان والنهار ولد الحبارى)

قال فان اكل قبل ان تتوارى البيضآ ، قال افطر وعليه القضآ (البيضا من اسما الشمس)

قال فان استثار الصايم الكيد ، قال افطر ومن احلّ الصيد (الكيْد القيء واستثاره استدعاه)

قال فهل يفطر بالحاجم الطابخ ، قال نعم لا يطاهى المطابخ (الطابخ الحُمّى الصالب)

قال

قال فان ضحكت المراة فى صومها ، قال بطل صوم يومها (ضحكت هاهنا اي حاضت ومنه قوله تعالى فضحكت فبشرناها باسحاق)

قال فان ظهر الجُدَري على ضرّتها ، قال تفطران اذن بهضرّتها (الضرّة اصل الابهام وهى اصل الثدي ايضا)

قال ما يجب فى ماية مصباح ، قال حِقّتان يا صاح (المصباح الناقة التى تصبح فى المبرك)

قال فان ملك عشر خناجر ، قال يخرج شاتَيْنِ ولا يشاجر (الخناجر النوق الغزار واحدتها خنجار وخُنجُور)

قال فان سمح للساعى بحميمته ، قال يا بُشري له يوم قيامته (الساعى جابى الصدقة والحميمة خيار المال)

قال ايستحقّ حملة الاوزار من الزكوة جُزءًا ، قال نعم اذا كانوا غُزّا (الاوزار السلاح وغُزّى جمع غاز)

قال ايجوز للحاجّ ان يعتمر ، قال لا ولا ان يختمر (الاعتمار لبس العَمارة وهى العمامة والاختمار لبس الخمار)

قال فهل له ان يقتل الشجاع ، قال نعم كما يقتل السباع (الشجاع الحيّة)

قال فان قتل زمّارة فى الحرَم ، قال عليه بدنة من النعم (الزمارة النعامة واسم صوتها الزِمار)

قال فان رمى ساق حُرّ فجدّله ، قال يُخرج شاة بدله (ساق حُرّ ذكر القُماري)

قال فان قتل امّ عوفٍ بعد الاحرام ، قال يتصدق بقبضةٍ من طعام (امّ عوف الجرادة)

قال

قال ايجب على الحاجّ استصحاب القارب ، قال نعم ليسوقهم الى المشارب (القارب طالب الماء بالليل والحاجّ اسم لجميع والواحد)

قال ما تقول فى الحرام بعد السبت ، قال قد حل فى ذلك الوقت (الحرام المحرم والسبت حلق الراس وحلّ من تحليل الحج)

قال ما تقول فى بيع الكميت ، قال حرامٌ كبيع الميت (الكميت الخمر)

قال ايجوز بيع الخَلّ بلحم الجمل ، قال لا ولا يلحم الجمل (الخلّ ابن المخاض ولا يحلّ بيع اللحم بالحيوان سواء كان من جنسه او من غير جنسه)

قال ايحلّ بيع الهدّيّة ، قال لا ولا بيع السبّيّة (الهدية بالتشديد ما يُهدي الى الكعبة ويقال فيها هَدْية بتسكين الدال وتخفيف الياء)

قال ما تقول فى بيع العقيقة ، قال محظور على الحقيقة (العقيقة ما يُسبح عن المولود فى اليوم السابع من ولادته)

قال ايجوز ابيع الداعى على الراعى ، قال لا ولا على الساعى (الداعى بقيّة اللبن فى الضرع والساعى جابى الصدقة)

قال ايباع الصقر بالثمر ، قال لا ولا العنب بالخمر (الصقر الدِبْس)

قال ايشتري المُسلِم سلب المسلمات (قال نعم ويورث عنه اذا مات السَلَب لحاء الشجر وهو ايضا خُوص الثمام)

قال فهل يجوز بيع الشافع ، قال ما لجوازه من دافع (الشافع الشاة التى معها سخلها)

قال ايباع الابريق على بنى الاصفر ، قال يكره كبيع المغفر (الابريق السيف الصقيل الكثير الماء وبنو الاصفر الروم)

قال

Digitized by Google

قال ايجوز ان يبيع الرجل صَيْفيَّه ، قال لا ولكن يبيع صَفيَّه (الصيْفيّ الولد على الكبر والصفيّ الناقة الغزيرة الدرّ)

قال فان اشتري عبدًا فبان بامّه جراح ، قال ما فى رِدّه مِن جُناح (الام مجتمع الدماغ)

قال اتثبت الشُفْعة للشريك فى الصحرا ، قال لا ولا للشريك فى الصفرا (الصحراء الاتان التى تمازج بياضَها غُبْرة والصفراء الناقة والاتان)

قال ايحلّ ان يُحمَى ماء البير والخلا ، قال ان كان فى الفلا فلا (يُحمى يمنع والخلا الكلا)

قال ما تقول فى ميتة الكافر ، قال حِلّ للمقيم والمسافر (الكافر البحر وميتته السمك الطافى فوق ماءه)

قال ايجوز ان يُضَحّى بالحول ، قال هو اجدَر بالقبول (الحول جمع حايل)

قال فهل يُضَحّى بالطالق ، قال نعم ويقري منها الطارق (الطالق الناقه التى ترعى حيث شأت)

قال فان ضحّى قبل ظهور الغزالة ، قال شاة لحم بلا محالة (الغزالة الشمس وقال بعضهم طلعت الغزالة ولا يقال غربت)

قال ايحلّ الكسب بالطرق ، قال هو كالقمار بلا فرق (الطرق الضرب بالحصا وهو من افعال الكهنة)

قال ايسلّم القايم على القاعد ، قال لا اذا كان من الاباعد (القاعد التى قعدت عن الحيض او عن الازواج)

قال اينام العاقل تحت الرقيع ، قال احبب به فى البقيع (الرقيع السماء وعنى بالبقيع بقيع المدينة)

قال

Digitized by Google

قال ايمنع الذمّي من قتل العجوز ، قال معارضته في العجوز لا تجوز (العجوز الخمر وقتلها مزجها)

قال ايجوز ان ينتقل الرجل عن عمارة ابيه ، قال ما جُوِّز لخامل ولا نبيه (العمارة القبيلة)

قال ما تقول في التهوّد ، قال هو مفتاح التزهّد (التهوّد التوبة ومنه قوله تعالى انا هُدنا اليك)

قال ما تقول في صبر البليّة ، قال خطبة واي خطبة (الصبر الحبس والبلية الناقة تحبس عند قبر صاحبها فلا تُسقى ولا تُعلَف الى ان تموت وكانت الجاهليّة تزعم انّ صاحبها تُحشَر عليها)

قال ايحلّ ضرب السفير ، قال نعم والحمل على المستشير (السفير ما تساقط من ورق الشجر والمستشير الجمل السمين وهو ايضا الجمل الذي يعرف اللاقح من الحائل)

قال أيعزّ الرجل اباه ، قال يفعله البرّ ولا ياباه (التعزير التعظيم والنُصرة)

قال ما تقول فيمن افقر اخاه ، قال حبّذا ما توخاه (افقره اعاره ناقة يركب فقارها)

قال فان اعرى ولده ، قال يا حسن ما اعتمده (اعراه اعطاه ثمرة نخلة عاما)

قال فان اصلى مملوكه النار ، قال لا اثم عليه ولا عار (المملوك العجين الذي قد أُجيد عجنُه حتى قوي)

قال فهل للمرأة ان تصرم بعلها ، قال ما حظر احد فعلها (البعل النخل الذي يشرب بعروقه من الارض)

قال

Digitized by Google

قال فهل توذّب المراة على الخجل ، قال اجل (الخجل سوء احتمال الغنى)

قال ما تقول فيمن نحت اثلة اخيه ، قال اثم ولو اذن له فيه (نحت اثلته اذا اغتابه وقدح فى عرضه)

قال ايحجرُ الحاكم على صاحب الثور ، قال نعم ليامن غايلة الجور (الثور الجُنون)

قال فهل يجوز ان يضرب على يد اليتيم ، قال نعم الى ان يرشد ويستقيم (يقال ضرب على يده اذا حجر عليه)

قال فهل يجوز ان يتخذ له ربضا ، قال لا ولو كان له رضا (الرَبَضُ الزوجة)

قال فمتى يبيع بدن السفيه ، قال اذا راي له الحظّ فيه (البدن الدِرْع القصيرة)

قال فهل يجوز ان يبتاع له حَشًّا ، قال نعم ولكن غير مغشًّا (الحشّ النخل المجتمع)

قال ايجوز ان يكون الحاكم ظالما ، قال نعم اذا كان عالما (الظالم الذي يشرب اللبن قبل ان يروب ويخرج زبده)

قال أيستقضى من ليست له بصيرة ، قال نعم اذا احسنت منه السيرة (البصيرة هاهنا الترْس)

قال فان تعرّي من العقل ، قال ذاك عنوان الفضل (العقل ضرْب من الوشى)

قال فان كان له زهو جبّارٍ ، قال لا انكار ولا إكبار (الزهو البُسر المتلوّن والجبّار

والجبّار النخل الذي قد فات اليد وضدّه القاعد)

قال ايجوز ان يكون الشاهد مريباً ، قال نعم اذا كان اريبا (المريب الذي يكثر عنده اللبن الرايب)

قال فان بان بانه لاط ، قال هو كما لو خاط (لاط الحوض اذا طيّنه)

قال فان عثر على انه غربل ، قال تردّ شهادته ولا تقبل (غربل اي قتل)

قال فان وضح انه مابن ، قال هو وصفٌ له زابن (المابن هاهنا الذي يعول ويكفي المونة من مان يمون)

قال ما يجب على عابد الحقّ ، قال يُحلَّف باله الخلق (العابد هاهنا الجاحد والحقّ الدّين)

قال ما تقول فيمن فقأ عين بلبل عامدًا ، قال تفقا عينه قولاً واحدًا (البلبل الرجل الخفيف)

قال فان جرح قطاة امراة فماتت ، قال النفس بالنفس اذا فاتت (القطاة ما بين الوركين)

قال فان القت الحامل حشيشاً من ضربه ، قال ليكفّر بالاعتاق عن ذنبه (الحشيش الجنين المُلقَى ميتا)

قال ما يجب على المختفي في الشرع ، قال القطع لاقامة الردع (المختفي نبّاش القبور)

قال فان سرق ثمينًا من ذهب ، قال لا قطع عليه كما لو غصب (الثمين الثمن كما يقال النصيق في النصف والسديس في السُدس)

قال فان بان على المراة السرق ، قال لا حرج عليها ولا فرق (السَرَق الحرير الابيض)

قال

قال اينعقد زواج لم تشهده القواري ، قال لا والخالق البارى (القواري الشهود لانهم يقرون الاشياء اي يتبعونها)

قال ما تقول فى عروس باتت بليلة حُرّة ، ثم عادت على حافرتها بسُحرة

قال يجب لها نصف الصداق ، ولا تلزمها عِدّة الطلاق (يقال باتت العروس بليلةٍ حُرّة اذا امتنعت على زوجها فان اغتضّها قيل باتت بليلة شيباء والردّ فى الحافرة بمعنى الرجوع فى الطريق الاوّل وكنّى به عن طلاقها وردّها الى اهلها)

فقال له السايل لله درّك من بحرٍ لا يغضغضه الماتح ، وحبر لا يبلغ ، مدحه المادح ، ثم اطرق اطراق الحيىّ ، وارمّ ارمام العيى فقال له ابو زيد ابدٍ يا فتى ، فالى متى والى متى ، فقال انه لم يبق فى كنانتى مرماة ، ولا بعد اشراق صبحك مراماة ، فبالله اي ابن ارحِ انت فيا احسن ما ابنت ، فانشد بلسان ذلق ، وصوتٍ مهصلق *

انا فى العالم مُثله ولاهل العلم قِبله
غير انى كل يوم بين تعريسٍ ورحله
والغريب الدار لو حلّ بطوبى لم تطب له

ثم قال اللهمّ كما جعلتنا من هُدي ويُهدي ، فاجعلهم من يهتدي ويُهدي ، فساق القوم اليه ذودًا مع قينة ، وسألوه ان يزوّدهم القينة بعد القينة ، فنهض يهنّيهم العود ، ويزجى الاتن والزود ، قال الحارث بن همام فاعترضته وقلت له ، هلمّ بنا نغنيها ، فمتى صرت فقيها ، فظلّ هُنيّة يجول ثم انشا يقول *

لبست لكل زمان لبوسا ولابست صرفيه نعمى وبوسا

وعاشرت

Digitized by Google

وعاشرت كل جليس بها ... يلائمه لا روق الحليسا
فعند الرواة اُدير الكلام ... وبين السُقاة ادير الكؤوسا
فطورًا بوعظي اُسيل الدموع ... وطورًا بلهوي اسرّ النفوسا
واقري المسامع امّا نطقتَ ... كلامًا يقود الحَرون الشَموسا
وان شيت ارعف كفّي اليراع ... فساقط دُرًّا يحلى الطروسا
وكم مشكلاتٍ حكين السُها ... خفآ فصِرنَ بكشفي شموسا
وكم مُلَح لي خلبن العقول ... وأسأرن في كل قلبٍ رسيسا
وعذرآ فُهت بها فانثنى ... عليها الثنا طليقًا حبيسا
على انني من زماني خُصصتُ ... بكيدٍ ولا كيد فرعون موسى
يسعِّرُ لي كل يوم وغىً ... اطأ من لظاها وطيسًا وطيسا
ويطرُقني بالخطوب التي ... يذبن القوي ويشِبن الرؤوسا
ويُدنني الىّ البعيد البغيض ... ويُبعد عني القريب الانيسا
ولو لا خساسة اخلاقهِ ... لما كان حظي منه حسيسا

فقلتِ له خفِّض الاخران ، ولا تلم الزمان ، واشكر لمن نقلك عن مذهب ابليس ، الى مذهب ابن ادريس ، فقال دع الهتار ، ولا تهتك الاستار ، وانهض بنا لنضرب ، الى مسجد يثرب ، فعسى ان نرحض بالمزار ، درن الاوزار ، فقلت هيهات ان اسير ، او افقه التفسير ، فقال تالله لقد اوجبت ذمها ، وطلبت اذ طلبت امها ، فهاك ما يشفي النفس ، وينفي اللبس ، قال فلما اوضح لّي المعمّى ، وكشف عني الغمّى ، شددنا الاكوار ، وسِرت وسار ، ولم ازل من مسامرته ، مدة مسايرته ، فيما انساني طعم المشقة ، ووددت معه بُعد الشُقّة ، حتى اذا دخلنا مدنية

مدنية الرسول ، وفزنا من الزيارة بالسؤل ، اشأم واعرقت ، وغرّب وشرقت *

المقامة الثالثة والثلثون التفليسيّة

XXXIII.

اخبر الحارث بن همام قال ، عاهدت الله تعالى مذ يفعت ، ألّا اوخّر الصلوة ما استطعت ، فكنت مع حوب الفلوات ، ولهو الخلوات ، اراعى اوقات الصلوات ، واحاذر من ماثم الفوات ، واذا را فقت فى رحلة ، او حللت بحلّة ، مَرْحبت بصوت الداعى اليها ، واقتديت بمن يحافظ عليها ، فاتّفق حين دخلت تفليس ، ان صليت مع عصبة مفاليس ، فلما قضينا الصلوة ، وازمعنا الانفلات ، برز شيخٌ بادي اللّقوة ، بالى الكِسوة والقُوّة ، فقال عزمت على من خُلِق من طينة الحُرّيّة ، وتفوّق درّ العصبيّة ، إلّا ما تكلفّ لى لبثة ، واستمع منى نفثة ، ثم له الخيار من بعد ، وبيده البذل والرّدّ ، فعقد القوم له الحُبا ، ورسوا امثالَ الرُبا ، فلما انس حُسن انصاتهم ، ورزانة حَصاتهم ، قال يا اولى الابصار الرامقة ، والبصاير الرايقة ، اما يُغنى عن الخبر العيانُ ، وينبى عن النار الدخان ، شيبٌ لايح وضعفٌ بايح ووهن فاضح ، وداءٌ واضح ، والباطن ففاضح ، ولقد كنت والله من ملك ومال ، وولى وال ، ورفد ونال ، ووصل وصال ، فلم تزل الجوايح تسحَت ، والنوايب تنحت ، حتى الوكرُ قفرٌ ، والكفّ صِفر ، والشعار ضُرّ ، والعيش مُرّ ، والصِبْيَة يتضاغون من الطوى ، ويتهنون

ويتهنون مُصاصة النَوي ، ولم اقُم هذا المقام الشايـن ، واكشف لكـم الدفايـن ، الاَّ بعد ما شقِيت ولُقِيت ، وشِبت فيها لَقِيت ، فليتـنى لم اكُن بقيت ، ثم تاوَّه تاوُّه الاسيف ، وانشد بصوتٍ ضعـيف *

اشكو الى الـرحمن سبحانـه تقلّـب الدهـر وعُدوانـه
وحـادثاتٍ قـرعت مَرْوَتـى وقوّضت مجـدي وبُنيانـه
واهتـصرت عودي ويا ويلَ من تهتصر الاحـداث اغصانـه
وامحلت ربعى حتى جلـت من ربعى المحـل جُردانـه
وغـادرتـنى حايـرا بـايرا اكابـد الفـقر واشجا نـه
من بعـد ما كنت اخا ثـروةٍ يسحب فى النعمـة اردانـه
يختبـط العافـون اوراقـه ويحمـد السـارون نيرانـه
فاصبـح اليوم كان لم يكن اعانـه الدهر الـذي عـانه
وازورَّ من كـان لـه زايـرًا وعاف عافى العُـرف عِرفانـه
فهل فتى يحـزنه ما يـري من ضُرِّ شيـخ دهـره خانـه
فيفـرج الهّـم الذي همَّـه ويُصلح الشانَ الذي شانـه

قال الراوي فصبت الجماعة الى ان تستثبته لتستنجش خُبأنه وتستنفض حقيبته فقالت له قد عرفنا قدر زنتك ، ورابنا درّ مُزنتك ، فعرِّفنا دوحة شُعْبتك ، واحسر اللثام عن نسبتك ، فاعرض اعراض من مُنِىَ بالاعنات ، او بُشِر بالبنات ، وجعل يلعن الضرورات ، ويتأفّف من تغيّض المروّات ، ثم انشد بلفظٍ صادع ، وجرس خادع *

لعمـرك ماكل فرع يـدل جناه اللذيـذ على اصلـهِ
فكُلُّ ما حلا حين توتـى بهِ ولاتـسال الشهْدَ عن نحلهِ

ومَيِّز

وميّز اذا ما اعتضرت الكرو ... م سلافة عصرك من خلّه
لتغلى وترخص عن حبرة ... وتشري ظلالاً شري مثله
فعارٌ على الفطن اللوذعيّ ... دخولُ الغميزة في عقله

قال فازدهى القوم بذكائه ودهائه ، واختلبهم بحسن ادائه مع دايه ، حتى جمعوا له خبايا الخبَن ، وخفايا الثُبَن ، وقالوا له يا هذا انك حُمت على رَكيّةٍ بكيّه ، وتعرَّضت لخليَّة خلية ، فخذ هذه الصُبابة ، وهبْها لا خطأ ولا اصابة ، فنزّل قُلهم منزلة الكثر ، ووصل قبوله بالشكر ، ثم تولى يجرّ شقّه ، وينهب بالخبط طُرقه ، قال المخبّر بهذه الحكاية ، فصُوِّر لي انه محيل لخليته ، متصنّع في مشيته ، فنهضت انهج منهاجه ، واقفو اداجه ، وهو يلحظني شزرًا ، ويوسعني هجْرا ، حتى اذا خلا الطريق ، وامكن التحقيق ، نظر اليّ نظر من هشّ وبشّ ، وماحضر بعد ما غشّ ، وقال اني لاخالك اخا غُربة ، وارى بك صحبة ، فهل لك في رفيق يَرفُق بك ويُرفق ، ويَنْفُق عليك ويُنفق ، فقلت له لو اتاني هذا الرفيق ، لآتاني التوفيق ، فقال لي قد وجدت فاغتبط ، واستكرمت فارتبط ، ثم ضحك مليًّا ، وتمثل لي بشرًا سويًّا ، فاذا هو شيخنا المروجي لا قلبة بجسمه ، ولا شُبهة في وسمه ، ففرحت بلقيته ، وكذّب لَقْوته ، وهممت بملامته ، على سوء مقامته ، فشحَا فاه وانشد قبل ان الحاه *

ظهرت برثٍّ لكيما يقال ... فقير يزجّى الزمان المزجّا
واظهرت للناس ان قد فُلجتْ ... فكم نال قلبي به ما ترجّا
فلو لا الرثاثة لم يُرثَ لسمي ... ولو لا التفالج لم التقَ فُلجا

ثم قال انه لم يبق بهذه الارض مرتع ، ولا في اهلها مطمع ، فان كنت الرفيق

الرفيق فالطريق الطريق فسرنا منها متجردين ، وافقته عاريين اجريين ، وكنت على ان اصحبه ما عشت ، فابى الدهر المشتت *

XXXIV.

المقامة الرابعة والثلثون الزبيدية

حكى الحارث بن همام قال ، لما جُبت البيد ، الى زبيد ، صحبنى غلام كنت ربّيته الى ان بلغ أشدّه ، وكمل رُشده ، وكان انس باخلاقى ، وخبر مجالب وفاقى ، فلم يتخطّى مَرامى ، ولا يُخطى فى المرامى ، لا جرم ان قُربه التاطت بصَفري ، واخلصته لحضَري وسفري ، فالوَي به الدهر المبيد ، حين ضمّتنا زبيد ، فلما شالت نعامته ، وسكنت نأمته ، بقيت عاريًا ، لا أُسيغ طعامًا ، ولا اريغ غلامًا ، حتى الجاتنى شوايب الوحدة ، ومتاعب القوة والقعدة ، الى ان اعتاض عن الدّر الخرز ، وارتاد من هو سدادٌ من عَوز ، فقصدت من يبيع العبيد ، بسوق زبيد ، وقلت اريد عبدا يعجب اذا قُلّب ، ويُحمد اذا جُرّب ، وليكن ممن خرّجه الاكياس ، واخرجَهُ الى السوق الافلاس ، فاهتزّ كل منهم لمطلبى ، ووثب ، وبذل تحصيله عن كثب ، ثم دارت الاهلة دورها ، وتقلبت كورها وحورها وما نجز من وعودهم وعد ، ولا سحّ لها رعد ، فلما رايت النخّاسين ، ناسين او متناسين ، علمت ان ليس كل من خلق يفري ، وان لن يحدّ جلدي مثل ظفري ، فرفضت مذهب التفويض ، وبرزت الى السُّوق بالصُّفر والبيض ، فانى لاستعرض الغلمان ، واستعرف الاثمان ، اذ عارضنى

عارضني رجل قد اختطم بلثام ، وقبض على زند غلام ، وقال *

اتشري مني غلامًا صنعا ... في خَلقه وخُلقه قد برعا
بكل ما نطت به مضطلعا ... يشفيك ان قال وان قلت وعا
وان تصبك عثرةٌ يقل لعا ... وان تسُمه السعي في النار سعا
وان تصاحبه ولو يومًا رعَا ... وان تقنّعهُ بظلفٍ قنعا
وهو على الكيْس الذي قد جمعا ... ما فاه قط كاذبًا ولا ادّعا
ولا اجاب مطمعًا حين دعا ... ولا استجاز نثَّ سِرّ اودعا
وطالما ابدع فيما صنعا ... وفاق في النظم وفي النثر معا
والله لولا ضنك عيش صدعا ... وصبيةٌ اضحوا عُراةً جُوَّعا

ما بعته بملك كسري اجمعا

قال فلما تأمّلت خلقه القويم ، وحسنه الصميم ، خلته من ولدان جنّة النعيم ، وقلت ما هذا بشرًا ان هذا إلّا ملك كريم ، ثم استنطقته عن اسمه ، لا لرغبةٍ في علمه ، بل لانظر اين فصاحته من صباحته ، وكيف لهجته من بهجته ، فلم ينطق بحلوة ولا مُرّة ، ولا فاه فوهة ابن امةٍ ولا حُرّة ، فضربت عنه صفحا ، وقلت قُبحًا لعيْك وشقحا ، فغار في الضحك ، وانجد ثم انفض راسه الي وانشد *

يا من تلهّب غيظه ان لم ابُح ... باسمي له ما هكذا من يُنصفُ
ان كان لا يرضيك الا كشفه ... فاصغ له انا يوسفٌ انا يوسفُ
ولقد كشفت لك الغطاء فان تكن ... فطنا عرفت وما اخالك تعرفُ

قال فسري عني بشعره ، واستبى لبّي بسحره ، حتى شُدهت عن التحقيق ، وانسيت قصة يوسف الصديق ، ولم يكن لي همٌّ الا مساومة

مولاه

مولاه فيه ، واستطلاع طلع الثمن لاوفيه ، وكنت احسب سينظر شزرًا الىّ ، ويغلى السيمة على ، فما حلّق الى حيث حلّقت ، ولا اعتلق بها به اعتلقت ، بل قال ان العبد اذا نزر ثمنه ، وخفّت مُؤنِه ، تبرّكَ به مولاه ، والتحف عليه هواه ، وانى لاوثر تحبيب هذا الغلام اليك ، بان اخفّق ثمنه عليك ، فزن مايتى درهم ان شيت ، واشكر لى ما حييت ، فنقدته المبلغ فى الحال ، كما ينقد فى الرخيص الحلال ، ولم يخطر لى ببال ان كل مرخصٍ غالٍ ، فلمّا تحقّقتْ الصفقة ، وحقّقت الفرقة ، هملت عينا الغلام ، ولا هُمول الغمام ، ثم اقبلَ على صاحبه وقال *

لحاك الله هل مثلى يباع ... لكيما يشبع الكرشُ الجِياع
وهل فى شرعة الانصاف انى ... اكلّف خطّة لا تستطاع
وان ابلى بروع بعد روع ... ومثلى حين يُبلى لا يراعُ
اما جربتنى فخبرتَ منى ... نصايح لم يهازجها خداعُ
وكم ارصدتنى شركا لصيدٍ ... فرحْت وفى حبايلى السباعُ
ونطتَ بى المصاعب فاستقادت ... مطاوعةً وكان بها امتناعُ
واي كريهةٍ لم ابلَ فيها ... وغُنم لم يكن لى فيه باعُ
وما ابدت لى الايام جُرمًا ... فيُكشفَ فى مصارمتى القناعُ
ولم تعثر بحمد الله منى ... على عيب يُكتّم او يُذاعُ
فانّى ساغ عندك نبذ عهدي ... كما نبذت برايتها الصناعُ
ولمْ سمحت قَرونك بامتهانى ... وان أُشرَي كما يُشرَي المتاعُ
وهَلاّ صُنت عرضى عنه صونى ... حديثك يومَ جدّ بنا الوداعُ

وقلت

Digitized by Google

وقلت لمن يساوم فيّ هـذا سكابٌ فما يُـعَـار ولا يـبـاعُ
فما انا دون ذاك الطِرف لـكـن طباعك فوقها تلك الـطـبـاع
على انى سانشد عنـد بيعـى اضاعونى وايُّ فتًى اضـاعـوا

قال فلما وعى الشيخ ابياته ، وعقل مناغاته ، تنفس الصعدا ، وبكى حتى ابكى البعدآ ، ثم قال لى انى احل هذا الغلام محل ولـدي ، ولا امّيزه عن افلاذ كبدي ، ولولا خُلوّ مراحى ، وخبوّ مصباحى ، لما درج عـن عشّى الى ان يشيّع نعشى ، وقد رايت ما نزل به من لوعة البين ، والمومنُ هـيِّنٌ ليّن ، فهل لك فى تسلية قلبه ، وتسرية كربه ، بان تعاهـدنـى على الاقالة عليه متى استقلت ، والا تستثقلنى متى ثقّلت ، ففـى الاخبار المنتقاة ، المدوّنة عن الثقات ، من اقال نادمًا بيعته ، اقاله اللـه عثرته ، قال الحارث بن همام ، فوعدتـه وعدا ابرزه الحياء وفى القلب اشيا ، فاستدنى جينيذٍ الغلام اليه ، وقبّل ما بين عينيه ، وانشـد والـدمـع يرفضّ من جفنيه *

خفّض فدتك النفس ما تـلاقـى من برحآ الوجد والاشـفـاق
فما تـطـول مـدة الـفـراق ولا تنى ركايب الـتـلاقـى

بحسن عون القادر الخلاق

ثم قال استودعتك نعم المولى ، وشمّر ذيله وولى ، فلبث الـغـلام فى زفير وعويل ، ريثما يقطع مَدي ميل ، فلما استفاق وكفكف دمعه المنهراق ، قال اتدري لمَ اعولت ، وعلامَ عولت ، قلت اظنّ فـراق مولاك ، هو الذي ابكاك ، فقال انك لفى وادٍ وانا فى واد ، ولكم بيـن مُريدٍ ومراد ، ثم انشد *

لم

لم ابدِ والله على الذي نزح ولا على فوت نعيم وفرح
وانما مدمع اجفاني سفح على غبيّ لحظه حين طمح
ورّطه حتى تغنّى وافتضح وضيّع المنقوشة البيض الوضح
ويلاه اما ناجته هاتيك المُلح بانني حرٌّ وبيعي لم يبح

اذ كان في يوسف معنى قد وضح

قال فتمثلت مقاله في مرآة المُداعب ، ومعرض الملاعب ، فتصلّب تصلب المحقّ وتبرّأ من طينة الرقّ ، فجلنا في مخاصمة اتّصلت بهلاكه وافضت الى محاكمة ، فلما اوضحنا للقاضي الصُّورة ، وتلونا عليه السُّورة ، قال الا انّ من انذر فقد اعذر ، ومن حذّر كمن بشّر ، ومن بصّر فما قصّر ، وانّ فيما شرحتماه لدليلاً على ان هذا الغلام قد نبّهك فيما ارعويت ، ونصح لك فيما وعيت ، فاستر دآبلهك واكتمه ، ولمُ نفسك ولا تلمه ، وحذار من اعتلاقه ، والطمع في استرقاقه ، فانه حُرّ الاديم ، غير معرّض للتقويم ، وقد كان ابوه لحضرة امس ، قُبَيل افول الشمس ، واعترف بانه فرعه الذي انشاه ، وان لا وارثٌ له سواه ، فقلت للقاضي او تعرف اباه ، اخزاه الله ، فقال وهل يُجهَل ابو زيد الذي جرّحه جبار ، وعند كل قاضٍ له إخبارٌ ، واخبار ، قال فتحرّقت حينئذٍ وحولقت ، وافقت ولكن حين فات الوقت ، وايقنت ان لثامه كان شرك مكيدته ، وبيت قصيدته ، فنكس طرفي ما لقيت ، واليت الا اعامل متلثّمًا ما بقيت ، ولم ازل اتلوه لحسر صفقتي واقتضاحي بين رفقتي ، فقال لي القاضي حين راي امتعاضي ، وحرّ ارتماضي ، يا هذا ما ذهب من مالك ما وعظك ، ولا اجرم اليدك من ايقظك ، فاتّعظ بما نابك ، وكانم اصحابك

ما

ما اصابك ، وتذكرابدا ما دهمك ، لتقى الذكري دراهمك ، وتخلّق بخلق من ابتلى فصبر ، وتجلّت له العبر فاعتبر ، قال فودّعته لابسًا ثوب الخجل والحزن ، ساحبًا ذيل الغبن والغبن ، ونوبت مكا شفة ابى زيد بالهجر ، ومصارمته يد الدهر ، فجعلت اتنكب عن ذراه ، واتجنّب ان اراه ، الى ان غشينى فى طريق ضيق ، فحيانى تحيّة شيِّق ، فما زدت على ان عبست ، وما نبست ، فقال ما بالك شمخت بانفك على الفك ، فقلت انسيت انك احتلت وختلت ، وفعلت فعلتك التى فعلت ، فاضرط بى متهازيا ثم انشد متلافيا *

يا من بدا منه صدو ذُ موحش وتجهّم
وغدا يريش مَلاومًا من دونهن الاسهُمُ
ويقول هل حرٌّ يباع كما يباع الادهمُ
اقصر فما انا فيه بِد عًا مثلما تتوهمُ
قد باعت الاسباط قبلى يوسفًا وهُم هُمُ
هذا واُقسم بالتى يسري اليها المُتهمُ
والطايفين بها وهلم شُعث النواصى سُقَّمُ
ما قمت ذاك الموقف المخزي وعندي درهم
فاعذر اخاك وكُنَّ عنه ملام من لا يفهم

ثم قال اما معذرتى فقد لاحت ، واما دراهمك فقد طاحت ، فان كان اقشعرارك منى ، وازورارك عنى ، لفرط شفقتك ، على غُبَّر نفقتك ، فلستُ ممن يلسع مرتين ، ويوطى على جمرتين ، وان كنت طويت كشحك ، واطعت شحّك ، لتستنقذ ما علق باشراكى ، فلتبكِ على عقلك البواكى ، قال

قال الحارث بن همام فاضطرّني بلفظه الخالب ، وسحره الغالب ، الى ان عُدتُ له صفيًّا ، وبه حفيًّا ، ونبذت فعلته ظهريًّا ، وان كانت شيئًا فريًّا *

XXXV.

المقامة الخامسة والثلثون الشرازيّة

حكى الحارث بن همام قال ، مررت فى تطوافى بشيراز ، على ناد يستوقف المجتاز ، ولو كان على اوفاز ، فلم استطع تعدّيه ، ولا خطت قدمى فى تخطّيه ، فعُجت اليه لاسبر سرّ جوهره ، وانظر كيف ثمره من زهره ، فاذا اهله افراد ، والعايج اليهم مُفاد ، وبينما نحن فى فكاهة اطرب من الاغاريد ، واطيب من حلب العناقيد ، اذ احتقّ بنا ذو طمرين ، قد كاد يناهز العمرين ، فحيّا بلسان طليق ، وابان ابانة منطيق ، ثم احتبى حبْوة المنتدبين ، وقال اجعلنا اللهُمَّ من المهتدين ، فازدراه القوم لطمريه ، ونسوا ان المرء باصغريه ، واخذوا يتداعون فصل الخطاب ، ويعتدّون عوده من الاحطاب ، وهو لا يفيض بكلمة ، ولا يبين عن سمة ، الى ان سبر قرايحهم ، وخبر شايلهم وراجحهم ، فحين استخرج دفاينهم ، واستنثل كناينهم ، قال يا قوم لو علمتم ان وراء الغدام ، صفو المُدام ، لما احتقرتم ذا اخلاق ، وقلتم ما له من خلاق ، ثم فجّر من ينابيع الادب ، والنكت النُخَب ، ما جلب به بدايع العجب ، واستوجب

ان

ان يكتب بذوب الذهب ، فلما غلب كل غلب ، وقلب اليه كل قلب ، تحلحل ليرحل ، وتأهب ليذهب ، فعلقت الجماعة بذيله ، وعاقت مسرب سيله ، وقالت له قد اربتنا وسم قدحك ، فخبرنا عن قيضك ومحك ، فصمت صموت من أفحم ، ثم اعول حتى رحم ، قال الراوي فلما رايت شوب ابى زيد وروبه ، واسلوبه الملوف وصوبه ، تاملت الشيخ على سهومة محيّاه ، وسهوكة ريّاه ، فاذا هو اياه ، فكتمت سرّه كما يكتم الدآ الدخيل ، وسترت مكره وان لم يكن يُخيل ، حتى اذا نزع عن اعواله ، وقد عرف عثوري على حاله ، رمقني بعين مضحاك ، ثم طفق يُنشد بلسان منباك

استغفر الله واخجل لهُ ... من فرطات اثقلت ظهريّه

يا قوم كم من عاشق عانس ... مهدوحة الاوصاف في الانديه

قتلتها لا اتّقي وارثًا ... يطلب مني قودًا او ديه

وكلما استذنبت في قتلها ... احلت بالذنب على الاقضيه

ولم تزل نفسي في غيّها ... وقتلها الابكار مستشريه

حتى نهاني الشيب لما بدا ... في مفرقي عن تلكم المعصيه

فلم أرق مذ شاب فودي دمًا ... من عاتق يومًا ولا مُصميه

وها انا اليوم على ما يُري ... مني ومن حرفتي المكديه

ارُبّ بكرًا طال تعنيسها ... وحجبها حتّى عن الاهويه

وهي على التعنيس مخطوبة ... كخطبة الغانية المغنيه

وليس يكفيني لتجهيزها ... على الرضا بالدون إلا ئيه

واليد لا توكى على درهم ... والارض قفرٌ والسما مُصحيه

فهل

فهل مُعين لى على نقلـهـا مصحوبةً بالقينة الملـهيـه
فيغسل الهمّ بصـابـونـه والقلب من افكاره المضنيـه
ويقتنى منى الثنـآ الـذي تضـوع ريّـاه مـع الاعـصـيـه

قال فلم يبق فى الجماعة إلّا من نديت له كفّه ، وانباع اليه عُرفه ، فلما نجحت بغيته ، وكملت مأثرته ، اخذ يُثنى عليهم بصالح ، ويشهر عن سلق سارح ، فتبعتُه لاستعرف ريبة خبره ، ومن قتل فى حدثان امره ، فكأنّ وشْذَ قيامى ، مثّل له مرامى ، فازدلق منى ، وقال افقدْ عنى *

قتلُ مثلى يا صاح مزجُ المدام ليس قتلى بلَهْذم او حُسام
والتى عنّست هى البكر بنت الـكَرْم لا البكر من بنات الكِرام
ولتجهيزها الى الكاس والطا سِ قيامى الذي ترَي ومقامى
فتفهّم ما قلته وتحكّم فى الـتفاضى ان شيت او فى الملام

ثم قال انا عربيد ، وانت رِعْديد ، وبيننا بونٌ بعيد ، ثم ودّعنى وانطلق ، وزوّدنى نظرةً من ذي علق *

المقامة السادسة والثلثون الملطيّة

اخبر الحارث بن همام قال ، انخت بملطيّة مطيّة البين ، وحقيبتى ملاى من العين ، فجعلت هِجّيراي ، مذ القيت بها عصاى ، ان اتورّد موارد المرح ، واتصيّد شوارد المُلح ، فلم يفتنى بها منظر ولا مسمع ، ولا خلا منى ملعب ولا مرتع ، حتى اذا لم يبق فيها مأربٌ ، ولا فى الثوا بها

بها مرغب ، عمدت لانفاق الذهب ، في ابتياع الأهب ، فلما اكملت الاعداد ، وتهيأ الظعن منها او كاد ، رايت تسعة رهط قد سبأوا قهوة ، وارتبأوا زبوة ، ودماثتهم قيد الالحاظ ، وفكاهتهم حلوة الالفاظ ، فنحوتهم طلبًا لمنادمتهم ، لا لمدامتهم ، وشغفا بممازجتهم ، لا بزجاجتهم ، فلما انتظمت عشرهم ، واضحيت معاشرهم ، الفيتهم ابنا علات ، وقذايف فلوات ، الا ان لحمة الادب ، قد الفت شملهم الفة النسب ، وساوت بينهم في الرتب ، حتى لاحوا مثل كواكب الجوزآ ، او كالجملة المتناسبة الاجزآ ، فابهجني الاهتدآ اليهم ، واحمدت الطالع الذي اطلعني عليهم ، وطفقت افيض بقدحي مع قداحهم ، واستشفي برياحهم ، لا براحهم ، حتى ادّتنا شجون المفاوضة ، الى التحاجي بالمقايضة ، كقولك اذا عنيت به الكرامات ، ما مثل النوم فات ، فانشانا نجلو السُها والقمر ، ونجني الشوك والثمر ، وبينا نحن ننشر القشيب والرثّ ، وننشل السمين والغثّ ، طلع علينا شيخ قد ذهب خبره وسبره ، وبقي خُبره وسَبره ، فمثل مثول من يسمع وينظر ، ويلتقط ما ننثر ، الى ان نُفضت الاكياس ، وحصحص اليأس ، فلما راي اجبال القرايح ، واكداآ المالح والمايح ، جمع اذياله ، وولّانا قذاله ، وقال ما كل سودا تمرة ، ولا كل صهباآ خمرة ، فاعتلقنا به اعتلاق الحربا بالاعواد ، وضربنا دون وجهته بالاسداد ، وقلنا لهُ انّ دواء الشقّ ان يحاص ، والّا فالقصاص القصاص ، فلا تطمع في ان تجرح ، وتُنهر الفتق وتسرح ، فلوى عنانه راجعًا ، ثم جثم بمكانه راصعًا ، وقال اما اذا استثرتموني بالبحث ، فساحكم حُكم سُليمن في الحرث ، اعلموا يا ذوي الشمايل الادبية ، والشمول الذهبية ، ان

وضع

وضع الاحجية لامتحان الالمعيّة ، واستخراج الخبية الخفية ، وشرطها ان تكون ذات مماثلة حقيقية ، والفاظ معنوية ، ولطيفة ادبية ، فمتى نافت هذا النمط ، ضاهت السقط ، ولم تدخل السّقَط ولم اركم حافظتم على هذه الحدود ، ولا ميزتم بين المقبول والمردود ، فقلنا له صدقت فكل لنا من لُبابك ، وافض علينا من عُبابك ، فقال افعل ليلاً يرتاب المبطلون ، ويظنّوا في الظنون ، ثم قابل ناطورة القوم وقال *

يا من سما بذكاء في الفضل وارى الزناد
ما ذا يماثل قولي جوع أُمدَّ بزاد (طوامير)

ثم ضحك الى الثاني وانشد

يا ذا الذي فاق فضلاً ولم يدنّسه شين
ما مثل قول المحاجي ظهرُ اصابته عين (مطاعين)

ثم لحظ الثالث وانشأ يقول

يا من نتايج فكره مثل النقود الجايزه
ما مثل قولك للذي حاجيت صادف جايزه (الفاصلة)

ثم اتلع جيده الى الرابع وقال

ايا مستنبط الغامض من لغز واضمار
الا اكشف لي ما مثل تناول الف دينار (هادية)

ثم رمى الخامس ببصره وقال

يا ايها ذا الالمعي اخو الذكا المنجلي
ما مثَل اهل حلية بيّن هُديت وعجّلِ (الغاشية)

ثم التفت لفت السادس وقال

يا

يا من تقصر عن مداه خُطا مجاريه وتضعف
ما مثل قولك للذى اضحى بحاجبك اكفف اكفف (مهمه)

ثم خلج السابع بحاجبه وقال

يا من له فطنة تجلت ورتبة فى الذكا جلت
بيّن فما زلت ذا بيان ما مثل قولى الشقيق افلت (الاخطار)

ثم استنصت الثامن وانشد

يا من حدايق فضله مطلولة الازهار غضّه
ما مثل قولك للحاجى فى الحجى ما اختار فضّه (ابارقة)

ثم خلج التاسع ببصره وقال

يا من يُشار اليه فى القلب الذكى وفى البراعة
اوضح لنا ما مثل قولك للحاجى دس جماعة (طافية)

قال الراوي فلما انتهى الىّ هزّمنكبىّ وقال

يا من له النُكت التى يشجى الخصوم بها وينكت
انت المبين فقل لنا ما مثل قولى خالى اسكت (خالصة)

ثم قال قد انهلتكم وامهلتكم ، وان شيتم ان اعلكم عللتكم ، قال فالجانا لهب الغلل ، الى استسقا العلل ، فقال لست كمن يستاثر على نديمه ، ولا من سمنه فى اديمه *

ثم كرّ على الاول وقال

يا من اذا اشكل المعمّى حلته افكاره الدقيقه
ان قال يوماً لك الحاجى خذ تلك ما مثله حقيقه (هاتيك)

ثم ثنّى جيده الى الثانى وقال

يا

يا من بدا بيانه عن فضله مجلّيا
ما ذا مثال قولهم حمار وحش حُلّيا (فرازين)

ثم اوحى الى الثالث بلحظه وقال

يا من غدا في فضله وذكايه كالاصمعي
ما مثل قولك للذي حاجيت انفق ثقمع (مُنتقِم)

ثم حملق الى الرابع وقال

يا من اذا ما عويص دجا انار ظلامه
ما ذا يماثل قولي استغش ريح مدامه (رحّاح)

ثم اومض الى الخامس وقال

يا من تنزّه فهمه عن ان يُروّي او يُشكّا
ما مثل قولك للذي اضحى يحاجي غطّ هلكى (صُنبُور)

ثم اقبل على السادس وانشد

يا اخا الفطنة التي بان فيها كماله
سار بالليل مُدّة اي شيء مثاله (سراحين)

ثم نحا بصره الى السابع وقال

يا من تحلى بفهم اقام في الناس سوقه
لك البيان فبيّن ما مثل احبب فروقه (مِقلاع)

ثم قصد قصد الثامن وانشد

يا بن تبوّا ذروةً في الفضل فاقت كل ذروه
مامثل قولك اعطِ ابريقًا يلوح بغير عروه (اُسكوب)

ثم ابتسم الى التاسع وقال

يا

يا من حوي حسن الدراية والبيان بغير شك
ما مثل قولك للحاجي ذي الذكا الثور ملكي (اللالى)

ثم قبض بجمعه على رذني وقال

يا من سما بثقوب فطنته في المشكلات ونور كوكبه
ما ذا مثال صغير جحفلة بيّنه تبيانا يتمّ به (مُكاشفة)

قال الراوي فلما اطربنا بما سمعناه ، وطالبنا بكشف معناه ، قلنا له لسنا من خيل هذا الميدان ، ولا لنا بحلّ هذه العقد يدان ، فان ابنت مننت ، وان كتمت غممت ، فظل يشاور نفسيه ، ويقلّب قلحيه ، حتى هان بذل الماعون عليه ، فاقبل حينيذٍ على الجماعة وقال ، ساعلمكم مالم تكونوا تعلمون ، ولا ظننتم انكم تُعَلَّمُون ، فاوكوا عليه الاوعية ، وروّضوا به الاندية ، ثم اخذ في تفسير صقل به الاذهان ، واستفرغ معه الاردان ، حتى اضت الافهام انور من الشمس ، والاكمام ، كانّ لم تغن بالامس ، ولما همّ بالمفرّ ، سيل عن المقرّ ، فتنفس كما يتنفس الثكول ثم انشا يقول *

كل شعبٍ لي شعبُ وبه ربعي رحبُ
غير اني بسروج مستهام القلب صبُّ
هي ارضي البكر والـ ـجوّ الذي منه المهبّ
والى روضتها الغنّا ـ ـون الروض اصبو
ما حلا لي بعدها حلو ولا اعذوذب عذبُ

قال الحارث بن همام ، فقلت لاصحابي هذا ابوزيد السروجي ، الذي ادنى ملحِهِ الاحاجي ، واخذت اصف لهم حسن توشيته ، وانقياد الكلام لمشيّته ، ثم التفتُّ فاذا به قد طَمَرَ ونآ بما قمر فعجبنا مما صنع ولم ندرِ اين سكع وصقع *

تفسير

Digitized by Google

تفسير الاحاجي الموَدعة هذه المقامة

اما جوع أمِدَّ بزاد فمثله طوامير ، واما ظهر اصابته عين فمثله مطاعين ، واما صادق جايزة فمثله الفاصلة ، واما تناول الق دينار فمثله هادية ، واما اهل حلية فمثله الغاشيه ، واما اكفق اكفق فمثله مهما ، واما الشقيق افلت فمثله الاخطار ، واما ما اختار فضه فمثله أبارقه ، لان الرّقة من اسما الفضة ، وقد نطق بها النبي صلى الله عليه وسلم فقال في الرقة رُبْعُ العُشر واما دُس جماعة فمثله طافيه ، واما خالى اسكت فمثله خالصه ، لانك اذا ناديت مضافاً الى نفسك ، جاز لك حذف اليا واثباتها ساكنة ومتحركة ، وقد حذف هاهنا حرف الندا كما حذف في اصل الاجنبية ، وصه بمعنى اسكت ، واما خذ تلك فمثله هاتيك ، واما حمار وحش حُلّيا ، فمثله فرازين لان الفرا حمار الوحش ومنه الخبر كل الصيد في جوف الفرا ، واما قوله انفق تقمح فمثله منتقم ، لان الامر من مان يمون مُنْ ، ومضارع وقمت تقم ، واما استنشر ريح مُدامه فمثله رحراح ، لان الامر من استدعا الرايحه رَحْ ، واما غطّ هلكى فمثله صنبور ، لان البُور هم الهلكى وفي القران كنتم قوماً بوراً ، واما سار بالليل مدةً فمثله ، سراحين ، واما احبب فروقه فمثله مِقلاع ، لان الامر من ومق يمق مِق ، واللاع الجزوع الجبان ، يقال فلان هاعٌ لاعٌ ، اذا كان جباناً جزوعاً ، واما اعط ابريقاً يلوح بغير عروة فمثله أسكوب ، لان الأوس العطآ ، والامر منه اُس ، والكوب ابريق بغير عروة ، واما الثور ملكى فمثله اللألى ، لان اللأى على وزن القنا ثور الوحش ، واما صغير جحفلة فمثله مكاشغة ، لان المكا الصغير ، قال الله تعالى وما كان صلاتهم عند البيت الا مكآءً وتصدية ، والاصل

والاصل فى المكآ المدّ ، وقد قصره فى هذه الاحجية ، كما حذف همزة القرآ فى احجيته ، على قول من يهمزه ، وكلا الامرين من قصر الممدود ، وحذف همزة المهموز جايزة *

المقامة السابعة والثلثون الصعدّية

اخبر الحارث بن همام قال ، اصعدت الى صَعدة ، وانا ذو شطاطٍ يحكى الصَّعدة ، واشتدادٍ يبدر بنات صَعدة ، فلما رايت نضرتها ، ورعيت خضرتها ، سالت نحاربر الرُّواة ، عمن تحوبه من السراة ، ومعادن الخيرات ، لاتخذه جذوة فى الظلمات ، ونجدة فى الظلامات ، فنُعِت لى قاضٍ رحيب الباع ، خصيب الرباع ، تميميُّ النسب والطباع ، فلم ازل اتقرب اليه بالالمام ، واتنفّق عليه بالاجمام ، حتى صرت صدا صوته ، وسلمان بيته ، وكنت مع اشتيار شهده ، وانتشاق رنده ، اشهد مشاجر الخصوم واسفر بين الموصوم منهم والمعصوم ، فبينما القاضى جالس للاسجال ، فى يوم المحفل والاحتفال ، اذ دخل شيخٌ بالى الرياش ، بادى الارتعاش ، فتبصّر الحفل تبصر نقّاد ، ثم زعم ان له خصمًا غير منقاد ، فلم يكن الا كضوّ شرارة ، او وحى اشارة ، حتى احضر غلام ، كانه ضِرغام ، فقال الشيخ ايّد الله القاضى ، وعصمه من التغاضى ، ان ابنى هذا كالقلم الردى ، والسيف الصدئ ، يجهل اوصاف الانصاف ، ويرتضع اخلاف الخلاف ، ان اقدمتُ احجم ، وان اعربت اعجم ، وان اذكيت اخمد ، ومتى

ومتى شوبت رمّد ، مع انى كفلته مذ دبّ ، الى ان شب ، وكنت به الطف مَن ربّى ورَبّ ، فاكبر القاضى ما شكا اليه ، واطرف به مَن حواليه ، ثم قال اشهد ان العقوق احد الثكلين ، ولُرُبَّ عُقم اقرّ للعين ، فقال الغلام ، وقد اعضه هذا الكلام ، والذي نصب القضاة للعدل ، وملّكهم اعنّة الفَضل والفَصل ، انه ما دعا قط إلّا امّنت ، ولا ادّعى إلّا أمّنتُ ، ولا لبى الّا واحرمت ، ولا اورى الّا واضرمت ؛ بيد انه كمن يبغى بيض الانوق ، ويطلب الطيران من النوق ، فقال له القاضى وبم اعتذك ، وامتحن طاعتك ، قال انه مذ صفر من المال ، ومُنى بالامحال ، يسومنى ان اتلظ بالسوال ، واستمطر سُحب النوال ، ليفيض شربه الفى غاض ، وينجبر من حاله ما انهاض ، وقد كان حين اخذنى بالدَّرس ، وعلّمنى ادب النفس ، أشرب قلبى ان الحرص متعبة ، والطمع معتبة ، والشره متخمة ، والمسيئلة ملامة ، ثم انشدنى من فلق فيه ، ونحت قوافيه *

ارضَ بادنى العيش واشكر عليه شُكر من القل كثيرٌ لديه
وجانب الحرص الذي لم يزل يحُطّ قدر المتراقى اليه
وحام عن عرضك واستبقه كما يُحامى الليث عن لبدتيه
واصبر على ما ناب من فاقة صبر اولى العزم واغمض عليه
ولا تُرق ماء المحيّا ولو خوّلك المسؤول ما فى يديه
فالحرّ من ان قذيت عينه اخفى قذيَ جفنيه عن ناظريه
ومن اذا اخلق ديباجه لم يَرَ ان يخلق ديباجتيه

قال فعبس الشيخ واكفهرّ ، وانبرأ على ابنه وهرّ ، وقال له صه يا عُقق ، يا

يا من هو الشجا والشَّرَق ، ويلك اتُعلّم أُمَّك البضاع ، وظيرَك الارتضاع ، لقد تحككت العقرب بالافعى ، واستنّت الفصال حتى القرعَى ، ثم كانه ندم على ما فرط من فيه ، وحدته المِقَةُ على تلافيه ، فزنا اليه بعين عاطف ، وخفض له جناح ملاطف ، وقال ويلك يا بنيَّ ان من أُمِر بالقناعة ، وزُجِر عن الضراعة ، هم ارباب البضاعة ، واولو المكسبة بالصناعة ، فاما اولو الضرورات ، فقد استُثنى بهم فى المحظورات ، وهبك جهلت هذا التاويل ، ولم يبلغك ما قيل ، الستَ الذي عارض اباه ، فيما قال وما حاباه *

لا تقعدنّ على ضيم ومسغبةٍ ... لكى يقال عزيز النفس مصطبرُ
وانظر بعينك هل ارض معطلة ... من النبات كارضٍ حفّها الشجرُ
فعُدّ عما يُشير الاغبياء بهِ ... فاى فضلٍ لعود ما له ثمرُ
وارحل ركابك عن ربع ظميت بهِ ... الى الجناب الذى يهمى به المطرُ
واستنزل الريَّ من درّ السحاب فان ... بلّت يداك به فَليَهنك الظفرُ
وان رُددت فما فى الردّ منقصةٌ ... عليك قد رُدّ موسى قبل والخضرُ

قال فلما راي القاضى تنافى قول الفتى وفعله ، وتحليه بما ليس من اهله ، نظر اليه بعين غضبى ، وقال اتهيبيًّا مرةً وقيسيًّا اخرى ، اُفٍّ لمن ينقض ما يقول ، ويتلوّن كما يتلوّن الغُول ، فقال الغلام والذي جعلك مفتاحًا للحق ، وقتّاحًا بين الخلق ، قد انسيتُ مذ اسيت ، وصدِيَ ذهنى مذ صديتُ ، على انه اين الباب الفُتح ، والعطاء السرح ، وهل بقى من يتبرّع باللُها ، واذا استُطعم يقول ها ، فقال له القاضى مه قمع الخواطى سهم صايب ، وما كل برق خالب ، فميِّز البروق اذا شِمت ، ولا تشهد

تشهد إلاّ بها علمت ، فلما تبيّن للشيخ ان القاضى قد غضب للكرام ، واعظم تبخيل جميع الانام ، علم انه سينصر كلمته ، ويظهر اكرومته ، فما كذب ان نصب شبكته ، وشوي فى الحريق سمكته ، وانشا يقول *

يا ايها القاضى الذي علمه ... وحلمه ارسخ من رضوَي
قد إدّعى هذا على جهله ... ان ليس فى الدنيا اخو جدوي
وما دري انه من معشر ... عطاوهم كالمن والسلوي
فجُد بها يثنيه مستخزياً ... مما افترى من كذب الدعوي
واثنى جذلان اُثنى بها ... اوليت من جدوَي ومن عدوَي

قال فهشّ القاضى لقوله ، واجزل له من طوله ، ثم لفت وجهه الى الغلام ، وقد نصل له اسهُمَ الملام ، وقال ارايت بُطل زعمك ، وخطأ وهمك ، فلا تعجل بعد ها بذمّ ، ولا تنحت عودًا قبل عجم ، وايّاك وتابّيك ، عن مطاوعة ابيك ، فانّك ان عُدت تعُقّه ، حاق بك منّى ما تستحِقّه ، فسقط الفتى فى يده ، ولاذ بحقو والده ، ثم نهض يحفد ، وتبعه الشيخ ينشد *

من ضامه او ضاره دهرُه ... فليقصد القاضى فى صعده
سهامُه ازري بمن قبله ... وعدله اتعب من بعده

قال الراوي فجرت بين تعريق الشيخ وتنكيره ، الى ان احرورف لمسيره ، فناجيت النفس عند ذلك بابتاعه ، ولو الى رباعه ، لعلى اظهر على اسراره ، واعرف شجرة ناره ، فنبذت العُلق ، وانطلقت حين انطلق ، ولم يزل يخطو واعتقِب ، ويبعد واقترب ، الى ان تراءي الشخصان ، وحق التعارف على الخلصان ، فابدي الاهتشاش ، ورفع الارتعاش ، وقال من كاذب

Digitized by Google

كاذب اخاه فلا عاش ، فعرفت حينيذ انه السروجى بلا محالةٍ ، ولا حوول حالة ، واسرعت اليه لاصافحه ، واستعرف سانحه وبارحه ، فقال دونك ابن اخيك البرّ ، وتركنى ومرّ فلم يعدُ الفتى ان افترّ ، ثم فرّ كما فرّ ، فعُدت وقد استبنَت عينهما ، ولكن لم ادرِ اين هما *

المقامة الثامنة والثلثون المروّية

حكى الحارث بن همام قال ، حُبِّب الىّ مذ سعت قدمى ونفث قلمى ، ان اتخذ الادب شرعة ، والاقتباس منه نجعة ، فكنت انقّب عن احباره ، وخزنة اسراره ، فاذا القيت منهم بغية الملتمس ، وجذوة المقتبس ، شددت يدي بعرزه ، واستنزلت منه زكاة كنزه ، على انى لم القَ كالسروجى فى غزارة السُحب ، ووضع الهِنا مواضع النُقب ، الاّ انه كان اسير من المثل ، واسرع من القمر فى النقل ، وكنت لهوى ملاقاته ، واستحسان مقاماته ، ارغب فى الاغتراب ، واستعذب السفر الذى هو قطعة من العذاب ، فلما تطوّحتُ الى مرو ، ولا غرو ، بشرنى بملقاه زجر الطير ، والفال الذي هو بريد الخير ، فلم ازل انشده فى المحافل ، وعند تلقّى القوافل ، فلا اجد عنه مخبرا ، ولا ارى له اثرًا ولا عثيَرا ، حتى غلب اليأس الطمع ، وانزوي التامل وانقمع ، فانى لذات يوم بحضرة والى مرو ، وكان ممّن جمع الفضل والسرو ، اذ طلع ابو زيد فى خَلق مهلاق ، وخُلق ملاّق ، فحيّى الوالى تحيّةَ المحتاج ، اذا لقى ربّ التاج ، ثم قال له

Digitized by Google

له اعلَمْ ، وثبت الذمّ ، وكفيت الهمّ ، ان من عذقت به الاعمال ، أعلقت به الامال ، ومن رُفعت له الدرجات ، رُفعت اليه الحاجات ، وان السعيد من اذا قَدَر ، وواتاه القدر ، ادّي زكاة النعم ، كما تودى زكاة النَّعم ، والتزم لاهل الحُرَم ، كما يلتزم للاهل والحرم ، وقد اصبحتَ بحمد الله عميد مصرك ، وعماد عصرك ، تُزجى الركايب الى حرمك ، وتُرجى الرغايب من كرمك ، وتنزل المَطالب بسلحتك ، وتُستنزل الراحة من راحتك ، وكان فضل الله عليك عظيما ، واحسانه لديك عميما ، ثم انى شيخٌ ترب بعد الاتراب ، وعدم الاعشاب حين شاب ، قصدتك من محلّة نازحة ، وحالة رازحة ، أمُل من بحرك دُفعة ، ومن جاهك رِفعة ، والتاميل افضل وسايل السايل ، ونايل النايل ، فاوجِبْ لى ما يجب عليك ، واحسن كما احسن الله اليك ، وإيّاك ان تلوي عذارك ، عن ازدارك ، وامّ دارك ، او تقبض راحك عن امتاحك ، وامتار سماحك ، فوالله ما مجد من جهد ، ولا رشد من حشد ، بل اللبيب من اذا وجد جاد ، وان بدا بعايدة عاد ، والكريم من اذا استوهب الذهب ، لم يهبْ ان يهبَ ، ثم امسك يرقب اكل غرسه ، ويرصد مطيبة نفسه ، وأحَبَّ الوالى ان يعلم هل نطفته ثهد ، او لقريحته مدد ، فاطرق يروّي فى استيراء زنده ، واستشفاف فِرنده ، والتبس على ابى زيد سرّ صهتته ، وارجآ صلته ، فتوغّر غضبًا وانشد مقتضبًا *

لا تحقرنّ ابيتَ اللعن ذا ادبٍ ... لان بدا خلق السربال سِبروتا
ولا تُضع لاخى التاميل حُرمته ... اكان ذا لسن ام كان سكيتا
وانفح بعرفك من وافاك مختبطًا ... وانعش بغوثك من الفيت منكوتا

فخير

Digitized by Google

فخير مال الفتى مال اشاد لـه ذكرًا تناقله الركبان او صيتا
وما على المشتري حمدًا بهو هبةٍ غبنٌ ولو كان ما اعطاه ياقوتا
لولا المروة ضاق العذر عن فطن اذا اشرأبّ الى ما جاوز القوتا
لكنه لابتناآ المجد جدّ ومن حبّ السماح ثنى نحو الغنى ليتا
وما تنشق نشر الشكر ذو كرم الّا وازري بنشر المسك مفتوتا
والحمد والبخل لم يُقضَ اجتماعهما حتى لقد خيل ذا ضبًّا وذا حوتا
والسمح في الناس محبوب خلايقه والجامد الكف ما ينفكّ مقوتا
وللشحيح على امواله علل يوسعنه ابدا ذمًّا وتبكيتا
فجدْ بها جمعت كفاك من نشبٍ حتى يُريَ مجتدي جدواك مبهوتا
وخذ نصيبك منه قبل رايعة من الزمان تريك العود منجوتا
فالدهر انكدُ من ان تستمرّ به حالٌ تكرّهت تلك الحال ام شيتا

فقال له الوالي تالله لقد احسنت ، فاي ولد الرجل انت ، فنظر اليه عن عُرض ، ثم انشد وهو مُغضٍ

لا تسألنّ المرء مَن ابوه ورُز خِلاله ثم صِله او فاصرم
فما يشين السلاف حين حلا مذاقها كونها آبنة الحصرم

قال فقرّبه الوالي لبيانه الفاتن ، حتى احله مَقعدَ الخاتن ، ثم فرض له من سيوب نيله ، ما اذن بطول ذيله ، وقصر ليله ، فنهض عنه بردن ملان وقلب جذلان ، وتبعته قافيًا خطوه ، وحاذيًا حذوه ، حتى اذا خرج من بابه ، وفصل عن غابه قلت له هُنّيتَ بما اوتيت ، ومليت بما اوليت ، فاسفر وجهه وتلالا ، ووالى شكر الله تعالى ، ثم خطر اختيالا وانشد ارتجالا *

من

من يكن نال بالحماقة حظّا او سما قدره لطيب الاصول
فبفضلى ارتفعت لا بفضولى وبقولى انتفعت لا بقيولى

ثم قال تعسًا لمن جدب الادب ، وطوبى لمن جد فيه وداب ، ثم ودّعنى وذهب ، واودعنى اللهب *

المقامة التاسعة والثلثون العُمانيّة

حدث الحارث بن همام قال ، لهجتُ مذ اخضرّ ازاري ، وبقل عذاري بان اجوب البراري ، على ظهور المهاري ، أنجد طورا ، واسلك تارة غورا ، حتى فليت المعالم والمجاهل ، وبلوت المنازل والمناهل ، وادميت السنابك والمناسم ، وانضيت السوابق والرّواسم ، فلما مللت الاصحار ، وقد سنح لى ارب بصُحار ، ملت الى اختبار السيّار ، واختيار الفُلك السيّار ، فنقلت اليه اساودى ، واستصحبت زادي ومزاودي ، ثم ركبت فيه ركوب حاذر ناذر ، عاذل لنفسه وعاذر ، فلما شرعنا فى القلعة و رفعنا الشُرع للسرعة ، سمعنا من شاطى المرسى ، حين دجا اليل واغسى ، هاتفًا يقول يا اهل ذا الفلك القويم ، المُزجى فى البحر العظيم ، بتقدير العزيز العليم ، هل ادلكم على تجارةٍ تُنجيكم من عذابٍ اليم ، فقلنا له اقبسنا نارك ايها الدليل ، وارشدنا كما يرشد الخليل الخليل ، فقال اتستصحبون ابن سبيل ، زادُه فى زنبيل ، وظله غير ثقيل ، وما يبغى سوي مقيل ، فاجبنا على الجنوح اليه ، والّا نبخل بالماعون عليه ، فلما

فلما ستوي على الفلك ، قال اعوذ بمالك الملك ، من مسالك الهلك ، ثم قال انا رُوينا فى الاخبار ، المنقولة عن الاحبار ، ان الله تعالى ما اخذ على الجُهّال ان يتعلموا ، حتى اخذ على العلما ان يعلّموا ، وانّ معى لعوذة ، عن الانبيا ماخوذة ، وعندي لكم نصيحة ، براهينُها صحيحة ، وما وسعنى الكِتمان ، ولا من خيبى الحرمان ، فتدبّروا القول وتفهموا ، واعملوا بما تُعلّمون وعَلّموا ، ثم صاح صيحة المباهى ، وقال اتدرون ما هى ، هى والله حرز السفر ، عند مسيرهم فى البحر ، والجُنّة من الغمّ ، اذا جاش موج اليمّ ، وبها استعصم نوح يوم الطوفان ، ونجا هو ومن معه من الحيوان ، على ما صدعت به آي القرآن ، ثم قرا بعد اساطير تلاها ، وزخارف جلاها ، وقال اركبوا فيها ، بسم الله مجراها ومرساها ، ثم تنفّس تنفُّس المُغرمين ، اوعباد الله المكرّمين ، وقال اما انا فقد قمت فيكم مقام المُبلِّغين ، ونصحت لكم نصح المبا لغين ، وسلكت بكم محجة الراشدين ، فاشهدْ اللهمّ وانت خيرَ الشاهدين ، قال الحارث بن همام فاعجبنا بيانه البادي الطُلاوة ، وعجّت له اصواتنا بالتلاوة ، وانس قلبى من جرسه معرفة عين شمشه ، فقلت له بالذي سخّر البحر اللجّى ، الست السروجى ، فقال لى بلا ، وهل يخفى ابنُ جلا ، فاحمدْتُ حينيئذ السفر ، وسفرت عن نفسى اذ سفر ، ولم نزل نسير ، والبحر رهو ، والجو صحو والعيش صفو ، والزمان لهو وانا اجدُ للقيانه ، وجد المثري بعقيانه وافرح بهناجاته فرح الغريق بهنجاته ، الى ان عصفت الجنوب ، وعسفت الجُنوب ، ونسى السفر ما كان ، وجاءهم الموج من كل مكان ، فهلنا لهذا الحدث الثاير ، الى احدي الجزاير ، لنُريح ونستريح ، ريثما

تواتى

تواتى الريح ، وتهادى اعتياض المسير ، حتى نفد الزاد غير اليسير ، فقال لى ابو زيد انه لن يحرز جنى العود ، بالقعود ، فهل لك فى استثارة السعود ، بالصعود ، فقلت انى لك لاتبع من ظلك ، واطوع من نعلك ، فنهدنا الى الجزيرة ، على ضفق من المريرة ، لنركض فى امترآ المريرة ، وكلانا لا يملك فتيلا ، ولا يهتدي فيها سبيلا ، فاقبلنا نجوس خلالها ونتقفيا ظلالها ، حتى افضينا الى قصر مشيد ، له باب من حديد ، دونه زُمرة من عبيد ، فناسهناهم لنتّخذهم سلّما الى الارتقا ، وارشيةً للاستقا ، فالفينا كلًّا منهم فى مسك كسير ، وكرب اسير ، فقلنا ايَّتُها الغلمة ، لمَ هذه الغُمَّة ، فلم يُجيبوا النداآ ، ولا فاهوا ببيضآ ولا سودآ ، فلما راينا نارهم نار الحُباحب ، وخُبرهم كسراب السباسب ، قلنا شاهت الوجوه ، وقُبح اللكع ، ومن يرجوه ، فابتدر خادم قد علته كبرةٌ ، وعرته عَبْرة ، وقال يا قوم لا توسعونا سبا ، ولا توجعونا عتبا ، فانا لفى حزن شامل ، وشغل عن الحديث شاغل ، فقال له ابو زيد نفّس خناق البثّ وانفث ان قدرت على النفث ، فانك ستجد منى عرّافًا كافيا ، ووصّافًا شافيا ، فقال اعلم ان ربَّ هذا القصر هو قطب هذه البُقعة ، وشاهُ هذه الرقعة ، الَّا انه لم يخلُ من كمد ، لخلوّه من ولد ، ولم يزل يستكرم المغارس ، ويتخيَّر من المفارش النفايس ، الى ان بُشّر بحمل عقيلة ، واذنت رقلتُه بفسيلة ، فنذرت له النذور ، واحصيت الايام والشهور ، فلما حان النتاج ، وصيغ له الطوق والتاج ، عسر مخاض الوضع ، حتى خيف على الاصل والفرع ، فما فينا من يعرف قرارا ، ولا يطعم النوم الَّا غرارا ، ثم اجهش بالبكاء واعول ، وردّد الاسترجاع وطوّل ، فقال له ابو

زيد

Digitized by Google

زيد اسكن يا هذا واستبشر ، وابشر بالفرج وبشّر ، فعندي عزبة الطلق ، التي انتشر سِعرها في الخلق ، فتبادرت الفلهة الى مولاهم ، متباشرين بانكشاف بلواهم ، فلم يكن الاّ كلا ولا ، حتى برز من هلهم بنا اليه ، فلما دخلنا عليه ، ومثلنا بين يديه ، قال لابي زيد ليهنِك منالُك ، ان صدق مقالك ، ولم يفل فالُك ، فاستحضر قلمًا مبريًّا ، وزبدًا بحريًّا ، وزعفرانا قد ديف ، في ماء وردٍ نظيف ، فما ان رجع النفس ، حتى احضر ما التمس ، فسجد ابو زيدٍ وعفّر ، وسبّح واستغفر ، ثم اخذ القلم واسحنفر ، وكتب على الزبد بالمزعفر *

ايّها الجنين اني نصيح ... لك والنصح من شروط الدين
انت مستعصم بكنّ كنين ... وقرار من السكون مكين
ما ترى فيه ما يروعك من ... الف مُداج ولا عدوّ مبين
فمتى ما برزت منه تحوّلت ... الى منزل الاذي والهون
وترآي لك الشقآء الذي ... تلقى فتبكى له بدمع هتون
فاستدم عيشك الرغيد وحاذر ... ان تبيع المحقوق بالمظنون
واحترس من مخادع لك يرقيك ليُلقيَك في الغداب المهين
ولعمري لقد نصحتُ ولكن ... كم نصيح مشبَّه بظنين

ثم انه طمس المكتوب على غفلة ، وتفل عليه ماية تفلة ، وشدّ الزبد في خرقة حرير ، بعد ما ضمخها بعبير ، وامر بتعليقها على فخذ الماخض ، والاّ تعلق بها يد حايض ، فلم يلُك الاّ كذواق شارب ، او فُواق حالب ، حتى اندلق شخص الولد ، لخصيصى الزبد ، بقُدرة الواحد الصمد ، فامتلا القصر حُبورا ، واستُطير عميدُه وعبيده سُرورا ، واحاطت الجماعة بابي

بابى زيد تُثنى عليه ، وتقبّل يديه ، وتتبرّك بهساس طهريه ، حتى خُيِّل لى انه القرنى اويس ، او الاسدي دُبيس ، ثم انثال عليه من جوايز المجازاة ، ووصايل الصِلات ، ما قيض له الغنى ، وبيّض وجه المُنى ، ولم يخلُ ينتابه الدخلُ ، مذ نتج السخل ، الى ان اعطى البحر الامان ، وتسنّى الاتهام الى عُمان ، فاكتفى ابو زيد بالنحلة ، وتاهّب للرحلة ، فلم يسمح الوالى بحركته ، بعد تجربة بركته ، بل اوعز بضمّه الى خُزانته ، وان تُطلق يدُه فى خِزانته ، قال الحارث بن همام ، فلما رايته قد مال ، الى حيث يكتسب المال ، انحيت عليه بالتعنيف ، وهجّنت له مفارقة المالف والاليف ، فقال اليك عنى ، واستمع منى *

لا تصبونّ الى وطن ... فيه تُضام وتُهتهن
وارحل عن الدار التى ... تُعلى الوهادَ على القُنن
واهرب الى كنّ يقى ... ولو انه حضنا حَضَن
واربأ بنفسك ان تقيم ... بحيث يغشاك الدرن
وجُب البلاد فايها ... ارضاك فاختَرهُ وطن
ودع التذكر للعاهد ... والحنين الى السكن
واعلم بان الحُرّ فى ... اوطانه يلقى الغبن
كالدّر فى الاصداف يُستزرى ويُبخس فى الثمن

ثم قال حسبُك ما استمعت ، وحبّذا انت لو اتّبعت ، فاوضحت له معاذيري ، وقلت كن عذيري ، فعذر واعتذر ، وزود حتى لم يذر ، ثم شيّعنى تشييع الاقارب ، الى ان ركبت فى القارب ، فودّعته وانا اشكو الفراق

Digitized by Google

الفراق واذمّه ، واودّ لو كان هلاك الجنين واتّه *

المقامة الاربعون التبريزيّة

اخبر الحارث بن همام قال ، ازمعت التبريز من تبريز ، حين نبت بالذليل والعزيز ، وخلت من المجبر والمجبر ، فبينا انا في اعداد الاهبة ، وارتياد الصحبة ، لقيت ابا زيد السروجي ملتفًا بكساء ، ومحتفًا بنساء ، فسألته عن خطبه ، والى اين يسرب مع سربه ، فاوما الى امراة منهنّ ظاهرة النفور ، باهرة السفور ، وقال تزوجت هذه لتونسني في الغربة ، وترحض عني قشف العزبة ، فلقيت منها عرق القربة ، تهطلني بحقّي ، وتكلّفني فوق طوقي ، فانا منها نضو وجّي ، وحلق شجو وشجّي ، وها نحن قد تساعينا الى الحاكم ، ليضرب على يد الظالم ، فان انتظم بيننا الوفاق ، والّا فالطلاق والانطلاق ، قال فملت الى ان اخبر لمن الغلب ، وكيف يكون المنقلب فجعلت شغلي دبر اذني ، وصحبتهما وان كنت لا اغني ، فلما حضرا القاضي وكان ممن يري فضل الامساك ، ويضنّ بنفاثة السواك ، جثا ابو زيد بين يديه ، وقال ايّد الله القاضي واحسن اليه ، ان مطيّتي هذه ابيّة الانقياد ، كثيرة الشراد ، مع انني اطوع لها من بنانها ، واحنى عليها من جنانها ، فقال لها القاضي وبحاله اما علمت ان النشوز يغضب الربّ ، ويوجب الضرب ، فقالت

انه

Digitized by Google

انه من يدور خلف الدار ، ويأخذ الجار بالجار ، وليس لى على ذلك اصطبار ، فقال له القاضى تبًّا لك اتبذر فى السباخ ، وتستفرخ حيث لا افراخ ، اغرُب عنّى لا نعم عوفك ، ولا امن خوفك ، فقال ابو زيد انها ومرسل الرياح ، لاكذبُ من سجاح ، فقالت بل هو ومن طوّق الحمامة ، وجنّح النعامة ، اكذب من ابى تمامة ، حين مَخْرق باليمامة ، فزفر ابو زيد زفير الشُواظ ، واستنشاط استنشاطة المغتاظ ، وقال لها ويلكِ يا دفارِ يا فخارِ ، يا غُصّة البعل والجار ، اتعهدين فى الخلوة لتعذيبى ، وتُبدين فى الحفلة تكذيبى ، وقد علمتِ انى حين بنيت عليك و رنوت اليك ، الفيتك اقبح من قردة ، وايبس من قدّة ، واخشن من ليفة ، وانتن من جيفة ، واثقل من هيضة ، واقذر من حيضة ، وابرز من قِشرة ، وابرد من قرة ، واحمق من رجلة ، واوسع من دجلة ، فسترت عوارك ، ولم ابدِ عارك ، على انه لو حبتْك شيرين بجمالها وزُبيدة بمالها ، وبلقيس بعرشها ، وبوران بفرشها ، والزبا بمُلكها ، ورابعة بنسكها ، وخندق بفخرها ، والخنسا بشعرها فى صخرها ، لانفتُ ان تكونى قعيدة رحلى ، وطروقة فحلى ، قال فتذمّرت المراة وتنمّرت ، وحسرت عن ساعديها وشمّرت ، وقالت له يا الأم من مادر ، وأشام من قاشر ، واجبن من صافر ، واطيش من طامر ، اترمينى بشنارك ، وتفرى عِرضى بشفارك ، وانت تعلم انك احقر من قلامة ، واعيب من بغلة ابى دُلامة ، واضعف من حبقة فى حلقة ، واحير من بقّة فى حقّة ، وهبك الحسن البصري فى لفظه ووعظه ، والشعبى فى علمه وحفظه ، والخليل فى عروضه ونحوه ، وجريرًا فى غزله وهجوه ، وقُسًّا فى فصاحته وخطابته ، وعبد الحميد فى بلاغته وكتابته ، وابا عمرو فى قرآنه واعرابه ، وابن

Digitized by Google

وابن قُريب فى روايته عن أعرابه ، اتظنّنى ارضاك اماماً لمحرابى ، وحُساماً لقرابى ، لا والله ولا بوّاباً لبابى ، ولا عصاً لجرابى ، فقال لها القاضى ، اراكما شنًّا وطبقة ، وحِدأة وبُندقة ، فاترك ايها الرجل اللدد ، واسلك فى سبيل الجدد ، وأمّا انتِ فكفّى عن سبابه ، وقرّي اذا اتى البيت من بابه فقالت المرأة ما اسجُن عنه لسانى ، الّا اذا كسانى ، ولا ارفع له شراعى دون اشباعى ، فحلف ابو زيد بالمُحرجات الثلث ، انه ما يهلك سوي اطهاره الرثاث ، فنظر القاضى فى قصصهما نظر الالمعىّ ، وافكر فكرة اللوذعى ، ثم اقبل عليهما بوجه قد قطبه ، ومجّن قد قلبه ، وقال الم يكفكما التسافُه فى مجلس الحُكم ، والاقدام على هذا الجرم ، حتى تراقيتما من فُحش المقاذعة ، الى خبث المخادعة ، وايمُ الله لقد اخطآت استُكما الحفرة ، ولم يصب سهمكما الثغرة ، فان امير المومنين ، اعزّ الله ببقايه الدّين ، نصبنى لاقضى بين الخصماء ، لا لاقضى دين الغرماء ، ووحقّ نعمته التى احلّتنى هذا المحلّ ، وملكتنى العقد والحلّ ، لئن لم توضحا لى جليّة خطبكما ، وخبيّة خبّكما لانكّدنّ بكما فى الامصار ، ولاجعلنكما عِبرة لاولى الابصار ، فاطرق ابو زيد اطراق الشجاع ، ثم قال له سماع سماعِ *

انا السروجى وهذه عرسى ... وليس كفو البدر غير الشمس
وما تنافى انسهما وانسى ... ولا تناي دبرها عن قسّى
ولا عدت سُقياىَ ارضَ غرسى ... لكننا مُنذ ليالٍ خمس
نصبح فى ثوب الطوي ونمسى ... لا نعرف المضغ ولا التحسّى
حتى كانا لخفوت النفس ... اشباح موتى نشروا من رمس

فحين

فحين عزّ الصبر والتأسّى ... وشقّنا الضرّ الاليم المس
قُمنا لسعد الجدّ او للنحس ... هذا المقام لاجتلاب فلس
والفقر يُلجى الحرّ حين يرسى ... الى التحلّى فى لباس اللبس
فهذه حالى وهذا درسى ... فانظر الى يومى وسل عن امسى
وامُر بجبرى ان تشا اوحبسى ... ففى يديك صحّتى ونكسى

فقال لها القاضى ليثُب انسك ، ولتطِب نفسك ، فقد حقّ لك ان تُغفر خطيئتك ، وتوفر عطيتك ، فثارت الزوجة عند ذلك واستطالت واشارت الى الحاضرين وقالت *

يا اهل تبريز لكم حاكمٌ ... اوفى على الحُكّام تبريزا
ما فيه من عيبٍ سوي انه ... يوم الندي قسمته ضيزا
قصدتُه والشيخ نبغى جنيَ ... عودٍ له ما زال مهزوزا
فسرّح الشيخ وقد نال من ... جدواه تخصيصاً وتبييزا
وردنى اخيب من شايم ... برقا خفا فى شهر تموزا
كانه لم يدر انّى التى ... لقنت الشيخ الاراجيزا
وانى ان شيت غادرته ... أضحوكة فى اهل تبريزا

فلما راي القاضى اجترآء جنانهما ، وانصلات لسانهما ، علم انه قد مُنى منهما بالداآء العيا ، والداهية الدهيآ ، وانه متى منح احد الزوجين ، وصرف الاخر صِفر اليدين ، كان كمَن قضى الدين بالدين ، او صلّى المغرب ركعتين ، فطلسم وطرسم ، واخرنطم وبرطم ، وهمهم وغمغم ، ثم التفتَ يمْنةً وشامةً ، وتمهل كابةً وندامةً ، واخذ يذمّ القضا ومتاعبه ، ويُعدّد شوايبه ونوايبه ، ويفنّد طالبه وخاطبه ، ثم تنفس كما يتنفس الحريب

Digitized by Google

الحريب ، وانتحب حتى كاد يفضحه النحيب ، وقال ان هذا لشى عجيب ، ارشق فى موقفٍ بسهمين ، الزم فى قضيّة بغريمين ، اطيق ان ارضى الخصمين ، ومن اين ومن اين ، ثم عطف الى حاجبه ، المنفّذ لماربه ، وقال ما هذا يوم حُكم وقضاء ، وفصلٍ وامضآء ، هذا يوم الاغتمام ، هذا يوم الاغترام ، هذا يوم البُحران ، هذا يوم الخسران ، هذا يومٌ عصيب ، هذا يومٌ نُصاب فيه ولا نصيب ، فارحنى من هذين المهذارين ، واقطع لسانهما بدينارين ، ثم فرّق الاصحاب ، واغلق الباب ، وأشع انه يوم مذموم ، وان القاضى فيه مهموم ، ليُلا يحضرنى خصوم ، قال فامّن الحاجب على دُعايه ، وتباكى لبكايه ، ثم نقد ابا زيد وعرسه المثقالين ، وقال اشهد انكما لاحيل الثقلين ، لكن احترما مجالس الحكام ، واجتنبا فيها فحش الكلام ، فما كل قاضٍ قاضى تبريز ، ولا كل وقت تُسمع الاراجيز ، فقالا له مثلك من حجب ، وشُكرك قد وجب ، فنهضا وقد حظيا بدينارين ، واصليا قلب القاضى نارين *

تفسير ما تضمنت هذه المقامة من الالفاظ اللغوية والامثال العربيّة

قوله فلقيت منها عرق القربة ، هذا مثل يضرب لمن يلقى شدة من الامر الذي يزاوله ، كما ان حامل القربة يلقى جهدًا حتى يعرق ، وقوله جعلته دبر اذنى ، يعنى اطرحته ، وهو كقوله تعالى فنبذوه وراء ظهورهم ، وقوله اكذب من سجاح ، يعنى التى تنبأت فى عهد مسيلمة الكذّاب ، وسارت اليه لتناظره وتختبره ، ثم امنت به ووهبت نفسها له ، وهذا الاسم مبنىّ على الكسر مثل حذام وقطام لكونه من الاسمآء المعدولة واشتقاقه من السجاحة ، وهو السهولة ، ومنه قولهم ملكت فاسجح ، وقولها

Digitized by Google

وقولها اكذب من ابى تمامة ، هذه كنية مسيلمة الكذاب ، وكان تنبّا باليمامة ومخرق بها ، الى ان سار اليه خالد بن الوليد وقتله ، وقوله لا نعِمَ عوفك ، العوف الحال ، والعوف ايضا الذكر ، ويُدعَى للبانى على اهله فيقال له نعم عوفك ، وقوله يا دَفارِ يا فَجارِ ، هذان الاسمان معدولان عن دافرة وفاجرة ، والدفر النتن وبه سميت الدنيا امّ دفر ، وكلها سمّى بصفة غالبة ، ثم عُدل بها الى فعَال بنى على الكسر ، عند النداء كقولهم يا لكاعِ يا خباثِ يا دفار يا فجار ، ولا يجوز استعمال ذلك فى غير النداء إلاّ فى ضرورة الشعر كقول الشاعر *

أطوِّفُ ما اطوّف ثم اوِي الى بيت قعيدتُه لكاعِ

واما قوله احمق من رجلة هى ضربٌ من الحمْض ، ينبت فى مجاري السيل فيجترفها ، وقوله ألأَم من مادر ، فهو رجل من بنى هلال بن عامر كان اتخذ حوضًا لسقى ابله ، فلما رويت سلح فيه ومدره بسلحه لئلا يُنتفع به من بعده ، واما قولها اشام من قاشر فانه فعل كان فى بعض قبايل سعد بن زيد مناة ما طرق إبلاً إلاّ ماتت ، وقيل المراد به العام المُجدِب ، وسمّى قاشرا لقشره وجهَ الارض من النبات ، واما قولها اجبن من صافر ، فقد اختلف فى تفسيره فقال بعضهم عُنى به كلها يصفر من الطير ، وخُصّ بالجُبن لكثرة ما يتقيه من جوارح الجوّ ، ومصايد الارض ، وقيل انه طاير بعينه اذا جَنَّهُ الليل تعلق ببعض الاغصان ، ولم يزل يصفر طول ليله خوفًا من ان ينام فيوخذ ، وقيل انه الذي يصفر بالمرأة لريبةٍ فهو يجبن وقت صفيره مخافة ان يُظهر على امره ، وقيل ان المراد به فى المثل المصفور به ، وهو الذي يُنفز بالصفير ليهرب ، فعلى هذا القول فاعل هاهنا

Digitized by Google

هاهنا بمعنى مفعول كقوله تع من ماءٍ دافق اي مدفوق ، وكقولهم راحلةٌ بمعنى مرحولة ، وهوكثيرٌ فى كلامهم ، وقد جآ مفعول بمعنى فاعلٌ ، كقوله تع حجاباً مستوراً اي ساتراً ، واما قولها اطيش من طامر ، فالمراد به البرغوث ، ويسمى طامر بن طامر ، لكثرة وثوبه ، واما قول القاضى اراكما شنًّا وطبقة ، وحداة وبندقة ، فانه اراد به ان كلاً منكما كفوٌ لصاحبه ، ومقاوم له ، ولكل من المثلين تفسير مختلفٌ فيه ، امّا شنٌّ وطبقة فان اكثر العلماء مختلفون فى معنى قولهم وافق شنٌّ طبقة ، فقال الاكثرون انهما قبيلتان ، فشنٌّ هو ابن افصى بن دُعمّى بن جديلة بن اسد بن ربيعة بن نزار ، وطبقة حيٌّ من اياد ، وكانت طبقة لا تطاق فاوقعت بها شنٌّ فانتصفت منها ، وقال بعضهم كان شنٌّ رجلا من دُهاة العرب ، وكان الزم نفسه ان لا يتزوّج الا بامراةٍ تلأيه ، فكان يجوب البلاد فى ارتياد طلبته ، فصاحبه رجلٌ فى بعض اسفاره ، فلما اخذ السير منهما قال له شنٌّ اتحملنى ام احملك ، فقال له الرجل يا جاهل هل يحمل الراكب الراكب ، فامسك وسارا حتى اتيا على زرع فقال له شنٌّ ، اترى هذا الزرع قد اُكل ام لا ، فقال له يا جاهل اما تراه فى سنبله ، فامسك الى ان استقبلتهما جنازة ، فقال له شن اترى صاحبها حيّ ام لا ، فقال له ما رايت اجهل منك اتراهم حملوا الى القبر حيًّا ، ثم انهما وصلا الى قرية الرجل فسار به الى منزله ، وكانت له بنت تسمى طبقة فاخذ يُطرفها بحديث رفيقه ، فقالت له ما نطق الاّ بالصواب ، ولا استفهمك الاّ عما يُستفهم عن مثله ، اما قوله اتحملنى ام احملك فانه اراد اتُحدّثنى ام احدّثك ، حتى نقطع الطريق بالحديث ، واما قوله اترى هذا الزرع اُكل ام لا فانه اراد

اراد هل استسلف اربابه ثمنه ، واما استفهامه عن الميت احيٌّ هو ام لا ، فانه اراد هل خلق عقبًا يحيى بذِكره ام لا ، فلما خرج الى الرجل حدثه بتاويل ابنته كلامه ، فخطبها اليه وزوجه ايَّاها ، فلما سار بها الى قومه ، وخبروا ما فيها من الدهآ ، والفطنة ، قالوا وافق شنٌّ طبقة فسارت مثلاً ، ويُحكَى ان الاصمعى سُئِل عن تفسير هذا المثل ، فقال اظنّ الشنّ وعآءً من ادم ، كان قد استشنّ ، فلما اتُّخذ له غطآء وافقه ضرب فيه هذا المثل ، واما حداة وبندقة فانه يقال بالمثل المضروب لمن يفزع بعدوه او يُبلَى بنظيره ، حداءَ حِداءَ وراك بُندقنز ، وكان الاصل حَداةُ باثبات الهاء فرخّم فى الندآ ، وقد اختلف فى تفسيرهما فقيل هما الطاير المعروف وبندقة الرامى ، وقيل انّ حداة وبندقة ، قبيلتان من سعد العشيرة ، فاغارت حداة وكانت تنزل بالكوفة على بندقة ، وكانت تنزل باليمن ، فنالت منهم ثم كرَّت بندقة على حداة فأنحَتْ عليهم ، وروى بعضهم هذا المثل حدَا حدَا غير مهموز على مثال عَصَا وقَفَا ، وزعم انه اسم القبيلة ، واما قوله اخطأت استكما الحفرة ، فانه مثل يُضرَب لمن يخطى فى مقصده ، ويضع الشى فى غير موضعه ، واما قوله طلسم اى كَرَّه وجهه ، وطرسم اي اطرق ، وأخرنطم اي غضب مع تكبّر ، ومعنى برطم غضب مع تعبّس ، وهمهم وغمغم اي لم يُبن الكلام *

المقامة

Digitized by Google

المقامة الحادية والاربعون التنّيسيّة

اخبر الحارث بن همام قال ، اطعت دواعي التصابي ، في غلوآء شبابي ، فلم ازل زبرًا للغيد ، واذنا للاغاريد ، الى ان وافى النذير ، وولى العيش النضير ، فقرمت الى رُشد الانتباه ، وندمت على ما فرطت في جنب الله ، ثم اخذت في كسع الهنات بالحسنات ، وتلافي الهفوات قبل الفوات ، فملت عن مغاداة الغادات ، الى ملاقاة الثُقاة ، ومن مقاناة القينات ، الى مداناة اهل الديانات ، واليت أَلَّا اصحب إلَّا من نزع عن الغي ، وفآء منشرُه الى الطي ، وان الفيت من هو خليع الرسن ، مديد الوسن ، انْأيت داري عن داره ، وفررت عن عَرِّه وعَاره ، فلها القتنى الغربة بتنّيس ، وأَحلتني مسجدها الانيس ، رايت بها ذا حلقة ملتحمة ، ونظّارةٍ مزدحمة ، وهو يقول بجاشٍ متين ، ولسان مُبين ، مِسكين ابن ادم وايُّ مِسكين ، رَكن من الدنيا الى غير ركين ، واستعصم منها بغير مكين ، وذبح من حُبّها بغير سكّين ، يكلف بها لغباوته ، ويكلب عليها لشقاوته ، ويعتدّ فيها لمفاخرته ، ولا يتزوّد منها لاخرته ، أُقسم بمن مرج البحرين ، ونوّر القمرين ، ورفع قدر الحجرين ، لو عقل ابن آدمَ لما نادم ، ولو افكر فيها قدّم ، لبكى الدّم ، ولو ذكر المكافاة ، لاستدرك ما فات ، ولو نظر في المآل لحسّن قُبح الاعمال ، يا عجبًا كل العجب ، لمن يقتحم ذات اللهب ، في اكتناز الذهب ، وخزن النشب ، لذوي النسب ، ثم من البِدع العجيب ، ان يعِظك وخطُ المشيب ، وتؤذن

وتؤذن شمسك بالمغيب ، ولست ترى ان تُنيب وتهذّب المعيب ، ثم اندفع يُنشد ، انشاد من يُرشد *

يا ويح من انذره شيبه ... وهو على غيّ الصبى منكمش
يعشو الى نار الهوي بعدما ... اصبح من ضعف القوي يرتعش
ويبتطى اللهو ويعتدّه ... اوطأ ما يفترش المفترش
لم يهب الشيبَ الذي ما راي ... نجومه ذو اللب الاّ دُهش
ولا انتهى عما نهاه النُهى ... عنه ولا بالَى بعرض خُدش
فذاك ان مات فسُحقاً له ... وان يعِش فهو كمن لم يعِش
لا خير فى محيا امرءٍ نشرُهُ ... كنشر ميتٍ بعد عشرٍ نبش
وحبّذا من عِرضه طيّبٌ ... يروق حُسناً مثل برد رُقش
فقُل لمن قد شاكه ذنبُه ... هلكت يا مسكين او تنتقش
فاخلص التوبة تطمس بها ... من الخطايا السود ما قد نُقش
وعاشر الناس بخُلق رضًى ... ودارِ من طاش ومن لم يطش
ورِش جناح الحرّان حصّه ... زمانه لا كان من لم يرش
وانجد الموتور ظلما فان ... عجزت عن انجاده فاستجش
وانعش اذا ناداك ذو كبوةٍ ... عساك فى الحشر به تنتعش
وهاك كاس النصح فاشرب وجُد ... بفضلة الكاس على من عطش

قال فلما فرغ من مُبكياته ، وقضى انشاد ابياته ، نهض صبى قد شدن ، واعرى البدن ، وقال يا ذوي الحَصاة ، والانصات الى الوصاة ، قد وعيتم الانشاد ، وفقهتم الارشاد ، فمن نوي منكم ان يقبل ، ويُصلح المستقبَل ، فليُبِنّ ببرّي عن نيّته ، ولا يعدل عنى بعطيته ، فوالذي يعلم

يعلم الاسرار ، ويغفر الاصرار انّ سرّي لكما ترون ، وان وجهي ليستوجب الصونَ ، فاعينوني رُزِقتم العون ، قال واخذ الشيخ فيما يعطق عليه القلوبَ ، ويسنّى له المطلوب ، حتى انبط حفرُه ، واعْشَوْشب قفره ، فلما ان ترع الكيس انصلت يبيس ، ويحمد تنّيس ، ولم يحلُ للشيخ المقام ، بعدما انصاع الغلام ، فاسترفع الايدي للدعاء ، ثم نحا نحو الانكفا ، قال الراوي فارتحت الى ان اعجمه ، واحلّ مترجمه ، فتبعته وهو يشتدّ في سمته ، ولا يفتق رتق صمته ، فلما امن المفاجي ، وامكن التناجي ، لفت جيده الىّ ، وسلم تسليم البشاشة علىّ ، ثم قال اراقك ذكاء ذلك الشُوَيْدن ، فقلت اِي والمؤمن المهيمن ، فقال انه فتى السروجي ، ومُخرج الدّر من اللجّي ، فقلت اشهد انك لشجرة ثمرته ، وشواظ شرارته ، فصَدَّق كهانتي ، واستحسن ابانتي ، ثم قال هل في ابتدار البيت ، لنتنازع كاس الكميت ، فقلت له ويحك اتامرون الناس بالبرّ ، وتنسون انفسكم ، فافترّ افترار متضاحك ، ومرّ غير مماحك ، ثم بدا له ان تراجع الىّ ، وقال احفظها عنّي وعلىّ *

اصرف بصِرف الرّاح عنك الاسى ... وروِّح القلب ولا تكتئب
وقل لمن لامك فيها بهِ ... تدفع عنك الهمّ قدكَ اتّئب

ثم قال امّا انا فسانطلق ، الى حيث اصطبح واغتبق ، واذا كنت لا تصحب ، وتلائم من يطرب ، فلست لى برفيق ، ولا طريقك لى بطريق ، فخلّ سبيلي ونصّب ، ولا تنقّر عنّي ولا تنقّب ، ثم ولى مدبرًا ولم يعقّب ، قال الحارث بن همام ، فالتهبت وجدًا عند انطلاقهِ ، ووددت لو لم الاقِهِ *

المقامة

Digitized by Google

المقامة الثانية والاربعون النجرانيَّة

حكى الحارث بن همام قال ، ترامت بى مرامى النوي ، ومساري الهوي الى ان صرت ابنَ كل تربةٍ ، واخا كل غربة ، الَّا انى لم اكن اقطع واديا ، ولا اشهد ناديا ، الَّا لاقتباس الادب المُسلى عن الاشجان ، المغلّى قيمة الانسان ، حتى عُرفت لى هذه الشنشنة ، وتناقلتها عنى الالسنة ، وصارت اعلق بى من الهوي ببنى عُذرة ، والشجاعة بآل ابى صفرة ، فلما القيت الجران بنجران ، واصطفيت بها الخُلّان والجيران ، تخذت انديتَها معتمري ، وموسم فكاهتى وسمري ، فكنت اتعهدها صباح مساء ، واظهر فيها على ما سر وساء ، فبينما انا فى نادٍ محشود ، ومحفل مشهود ، اذ جثم لدينا هِمّ ، عليه هدم ، فحيَّا تحية مِلقٍ ، بلسان ذلق ، ثم قال يا بدور المحافل ، وبحور النوافل ، قد بين الصبح لذي عينين ، وناب العيان مناب عدْلين ، فما ذا ترون فيما ترون اتحسنون العون ، ام تنأَون حين تدعون ، فقالوا تالله لقد غِظت ، ورُمت ان تنبط فغضت ، فناشدهم الله عما ذا صدّهم ، حتى استوجب ردّهم ، فقالوا كنّا نتناضل ، بالالغاز ، كما يُتناضَل يوم البراز ، فما تما لك ان شعَّث من المنضول ، والحق هذا الفضل بنمط الفضول ، فلسنَه لُسن القوم ، ووخزوه باسنَّة اللوم ، واخذ هو يتنصل من هفوته ، ويتنكَّم على فوهته ، وهم مضبّون على مواخذته ، وملبّون على داعى منابذته ، الى ان

Digitized by Google

ان قال لهم يا قوم ، ان الاحتمال من كرم الطبع ، فعدّوا عن اللذع والقذع ، ثم هلمّ الى ان نلغز ونحكم المبرّز ، فسكن عند ذلك توقّدهم ، وانحلت عُقدهم ، ورضوا بها شرط عليهم ولهم ، واقترحوا ان يكون اولهم ، فامسك ريثما يُعقد شسع ، او يشدّ نسع ، ثم قال اسمعوا وقيتم الطيش ، ومُلّيتم العيش ، وانشد ملغزًا فى مُروحة الخيش *

وجاريةٍ فى سيرها مشعلّةٍ ... ولكن على اثر المسير قفولُها
لها سابق من جنسها يستحثّها ... على انه فى الاحتثاث رسيلها
تُرى فى اوان القيظ تنطق بالندى ... ويبدو اذا ولّى المصيف قحولُها

ثم قال وهاكم يا اولى الفضل ، ومراكز العقل ، وانشد ملغزًا فى حابول النخل *

ومنتسبٍ الى امّ ... تنشّا اصلُه منها
يعانقها وقد كانت ... نفتْه بُرهةً عنها
به يتوصّل الجانى ... ولا يُلحَى ولا ينهى

ثم قال ودونكم الخفية العَلم ، المعتكرة الظُلَم ، وانشد ملغزًا بالقلم *

وما مومٍ به عُرف الامامُ ... كما باهت بصُحبته الكرامُ
له اذ يرتوي طيشان صادٍ ... ويسكن حين يعروه الاوامُ
ويذري حين يُستسعى دموعًا ... يرُقن كما يروق الابتسامُ

ثم قال وعليكم بالواضحة الدليل ، الفاضحة ما قيل وانشد ملغزا فى الميل *

وما ناكحٌ اختين جهرًا وخفيةً ... وليس عليه فى النكاح سبيل

متى

متى يفشَ هذه يفش في الحال هذه ... وان مال بعلٌ لم تجده يميلُ
يزيدها عند المشيب تعهدًا ... وبرًّا وهذا في البعول قليل

ثم قال وهذه يا اولى الالباب ، ومعيار الاداب وانشد ملغزًا في الدولاب *

وجافٍ وهو موصول ... وصول ليس بالجافي
غريقٌ بارز فاعجب ... له من واسب طاف
يسحّ دموع مهضومٍ ... ويهضم هضم متلاف
ويُخشى منه حدَّثه ... ولكن قلبه صاف

قال فلما رشق بالخمس التي نسق ، قال يا قوم تدبَّروا هذه الخمس ، واعقدوا عليها الخمس ، ثم رايكم وضمَّ الذيل ، او الازدياد من الكيل ، قال فاستفزّت القوم شهوة الزيادة ، على ما اشربوا من البلادة ، فقالوا له ان وقوفنا دون حدّك ، ليفحمنا عن استيزآ زندك ، فان اتممت عشرًا فمن عندك ، فاهتز اهتزاز من فلج سهمه ، وانخزل خصمه ، ثم افتتح النطق بالبسملة ، وانشد ملغزًا في المرملة *

ومسرورةٍ مغمومةٍ طول دهرها ... وما هي تدري ما السرور ولا الغمّ
تُقرَّب احيانا لاجل جنينها ... وكم ولد لولاهُ طلقت الامُّ
وتُبعد اطوارًا وما حال عهدُها ... وابعد من لم يستحل عهدُه ظلمُ
اذا قصر الليلُ استلذّ وصالُها ... وان طال فالاعراض عن وصلها نعمُ
لها ملبس بادٍ انيق مبطَّنٌ ... بها يزدري لكن لها يزدرى الحكمُ

ثم كشَّر عن انيابه الصُفر ، وانشد ملغزًا في الظفر *

ومرهوبِ الشبا نامٍ ... وما يرعى ولا يشرب

يُرى

يُرى فى العشر دون النحر فاسمع وصفه واعجب

ثم تخازر تخازر العفريت ، وانشد ملغزاً فى ظاقه الكبريت *

وما محقورة تُدنى وتقصى وما منهـا اذا فكرت بدَّ
لها راسان مشتبهان جدًا وكلٌ منهما لاخيه ضدَّ
تُعذَّب ان هما خضبا وتُلغَى اذا عدما الخضابَ ولا تُعدُّ

ثم تخبط تخبط القرم ، وانشد ملغزًا فى حلب الكرم *

وما شى اذا فسدا تحوَّل غيُّه رشدا
وان هو راق او صافا اثار الشر حيث بدا
زكىُّ العرق والده ولكن بيس ما ولدا

ثم اعتضد عصا التسيار ، وانشد مُلغزا فى الطيَّار *

وذي طيشةٍ شقُّه مايل وما عابه بهما عاقلُ
يُريَ ابدا فوق علِّيَّةٍ كما يعتلى الملكَ العادلُ
تساوي لديه الحصا والنضارُ وما يستوي الحقّ والباطلُ
واعجبُ اوصافه ان نظر ت كما ينظر الكيّس الفاضلُ
تراضى الخصوم به حاكمًا وقد علموا انه مايلُ

قال فظلّت الافكارُ تهيم فى اودية الاوهام ، وتجول جولان المستهام ، الى ان طال الامد ، وضحضح الكمد ، فلما راهم يزندون ولا سنا ، ويقضون النهار بالمُنَى ، قال يا قوم الامَ تَنظُرون ، وحتّامَ تُنظَرون ، الم يانِ لكم استخراج الخبىِّ ، اواستسلام الغبى ، فقالوا له تالله لقد اعوصت ، ونصبت الشرك فقنصت ، فتمكم كيف شيت ، وحُز الغُنم والصيت ، ففرض عن كل معمًّى فرضا ، واستخلصه منهم نصّا ، ثم فتح

فنح الاقفال ، ووسم الاغفال ، وحاول الانجفال ، فاعتلق به مدرة القوم ، وقال لا لبسة بعد اليوم ، فاستنسب قبل الانطلاق ، وهبها مُتعةَ الطلاق ، فاطرق حتى قلنا مريب ، ثم انشد والدمع مجيب *

سروج مطلع شمسى ... وربع لهوي وانسى
لكن حُرمتُ نعيمى ... بها ولذة نفسى
واعتضتُ عنها اغترابا ... امرّ يومى وامسى
ما لى مقرٌّ بارض ... ولا قرارٌ لعنسى
يومًا بنجد ويومًا ... بالشام اضحى وامسى
ازجى الزمانَ بقوت ... منغّص مستخسّ
ولا ابيت وعندى ... فلسٌ ومن لى بفلس
ومن يعِش مثل عيشى ... باع الحيوةَ ببخس

ثم انه اختبن خلاضة النضّر ، وبدر ضاربًا فى الارض ، فنا شدناه ان يعود ، واسنينا له الوعود ، فلا وابيك ما رجع ، ولا الترغيب له نجع *

المقامة الثالثة والاربعون

اخبر الحارث بن همام قال هفا بى البين المطوّح ، والسير المبرح ، الى ارض يضلّ بها الخرّيت ، وتفرق فيها المصاليت ، فوجدت ما يجد الحاير الوحيد ، ورايت ما كنت منه احيد ، الّا انى شجّعت قلبى المزؤود ، ونسأت نضوي المجهود ، وسرت سير الضارب بقدحين ، المستسلم للحين

Digitized by Google

للحين ، ولم ازل بين وخدٍ وذميل ، واجازة ميلٍ بعد ميل ، الى ان كادت الشمس تجب ، والضيآ يحتجب ، فارتعت لاظلام الظلام ، واقتحام جيش حام ، ولم ادر اكفتُ الذيلَ وارتبط ، ام اعتمد الليل واختبط ، وبينا انا اقلّب العزم ، وامتخض الحزم ، تراي لى شبح جمل ، مستذر بجبل ، فترجّيته قُعدةَ مُربع ، وقصدته قصد مُشيع ، فاذا الظنّ كهانة ، والركوبة عيرانة ، والمربع قد ازدمل ببجاده ، واكتحل برُقاده ، فجلست عند راسه ، حتى هب من نعاسه ، فلما ازدهرا سراجاه ، واحسّ بهن فاجّاه ، نفر كما ينفر المُريب ، وقال اخوك ام الذيب ، فقلت بل خابط ليلٍ ضلّ المسلك ، فاضى لى اقدح لك ، فقال ليسر عندك هدك ، فَرُبَّ اخٍ لم تلده امك ، فانسربي عند ذلك اشفاقى ، وسربي الوسن الى اماقى ، فقال عند الصباح يحمد القوم السُري ، فهل تري كما اري ، فقلتُ انى لك لاطوع من حذايك ، واوفق من غذايك ، فصدع بمُحبّتى ، وبخبخ بصُحبتى ، ثم احتملنا مُجدّين ، وارتحلنا مدلجين ، ولم نزل نعانى السري ، ونعاصى الكري ، الى ان بلغ الليل غايته ، ورفع الفجر رايته ، فلما اسفر الفاضح ، ولم يبق الا واضح ، توسمت رفيق رحلتى ، وسمير ليلتى ، فاذا هو ابو زيد مطلب الناشد ، ومَعْلم الراشد ، فتهادينا تحيّة المُحبّين ، اذا التقيا بعد البين ، ثم تباثثنا الاسرار ، وتناثثنا الاخبار ، وبعيري ينحط من الكلال ، وراحلته تزقّ زفيف الرال ، فاعجبنى اشتداد اسرها ، وامتداد صبرها ، واخذت استشفّ جوهرها ، واسئلهُ من اين تخيّرها ، فقال ان لهذه الناقة ، خبرًا حُلو المذاقة ، مليح السياقة ، فان احببت استماعه فآنخ ، وان لم تشا فلا تُصمّخ ، فانخت لقوله نضوي ، واهدفت السمع

Digitized by Google

السمع لما يروي ، فقال اعلم انى استعرضتها بحضرموت ، وكابدت فى تحصيلها الموت وما زلت اجوب ، عليها البلدان ، واطس باخفافها الظرّان ، الى ان وجدتها عُبر اسفار ، وعُدّة فرار ، لا يلحقها العنآ ، ولا تواهقها وجنا ، ولا تدر ما الهنآ ، فارصدتها للخير والشرّ ، واحللتها محل البّر السّر ، فاتّفق ان نذّت مذ مدّة ، ومالى سواها قُعدة ، فاستشعرت الاسف ، واستشرفت التلف ، ونسيت كل رزء سلف ، ومكثت ثلثًا ، لا استطيع انبعاثًا ، ولا اطعم النوم الا حثاثًا ، ثم اخذت فى استقرآ المسالك ، وتفقد المسارح والمبارك ، وانا لا استنشى منها ريحا ، ولا استفشى يأسًا مُريحا ، وكلما اذكرت مضاءها فى السير ، وانبراها لمباراة الطير ، لاعنى الاذكار ، واستهوتنى الافكار ، فبينما انا فى حوآ ، بعض الاحيا ، اذ سمعت من شخص مبتعد ، وصوت منجرد ، من ضلت له مطيّة ، حضرميّة وطيّة ، جلدها قد وُسم ، وعرّها قد حُسم ، وزمامها قد ضفر ، وظهرها كان كسر ، ثم جُبر ، تُزين الماشية ، وتعين الناشية ، وتقطع المسافة النابيَة ، وتظلّ ابدا لك مدانية ، لا يعتورها الونا ، ولا يعترضها الوجا ، ولا تحوج الى العصآ ، ولا تعصى فيهن عصى ، قال ابو زيد فجذبنى صوت الصايت ، وبشرنى بدرك الغايت ، فلما افضيت اليه ، وسلمت عليه ، قلت له سلم المطيّة ، وتسلم العطية ، فقال وما مطيتك ، غفرت خطيتك ، قلت ناقةٌ جُثّتها كالهضبة ، وذروتها كالقُبّة ، وحلبها ملء العلبة ، وكنت اعطيتُ بها عشرين ، اذ حللت يَبْرين ، فاستردتُ الذي اعطا ، ودريت انه اخطا ، قال فاعرض حين سمع صفتى ، وقال لست بصاحب لُقطتى ، فاخذت بتلابيبه واصررت على تكذيبه ، وهممت

Digitized by Google

فهمت بتهزيق جلابيبه ، وهو يقول يا هذا ما مطيتى بطلبك ، فاكفف من غربك وعدِّ عن سبّك ، والاَّ فقاضنى الى حكم هذا الحىّ ، البرى من الغشّ ، فان اوجبها لك فتسلّم ، وان زواها عنك فلا تتكلّم ، فلم ارَ دوآ قصتى ، ولا مساغ غصتى ، الاَّ ان اتى الحكم ، ولو لكم ، فانخرطنا الى شيخ ركين النصبة ، انيق العصبة ، يؤنس منه سكونُ الطابر ، وان ليس بالجابر ، فاندرأت اتظلم واتألّم ، وصاحبى مُرمٌّ لا يترمرم ، حتى اذا نثلتُ كنانتى ، وقضيت من القصص لبانتى ، ابرز نعلاً رزينة الوزن ، محذوّةً لسلك الحزن ، فقال هذه التى عرّفتُ وايّاها وصفت ، فان كانت هى التى اعطى بها عشرين ، وها هو من المبصرين فقد كذب فى دعواه ، وكبُر ما افتراه ، اللهمَّ الا ان يهد قذاله ، ويبين مصداق ما قاله ، فقال الحكم اللهمَّ غفرا ، وجعل يقلّب النعل بطنا وظهرا ، ثم قال امَّا هذه النعل فنعلى ، وامَّا مطيتك ففى رحلى ، فانهض لتسلم نا قتك ، وافعل الخير بحسب طاقتك ، فقهتُ وقلت *

اقسم بالبيت العتيق ذي الحُرم والطايفين العاكفين فى الحَرم
انك نِعمَ من اليه يُحتكم وخيرُ قاضٍ فى الاعاريب حكم
فاسلم ودُم دوم النعام والنَّعم

فاجاب من غير روّيّة ولا عقد نيَّة وقال *

جزيت عن شكرك خيرًا يا ابن عم اذ لستُ استوجب شكرًا يلتزم
شرُّ الانام من اذا استُقضى ظلم ثم من استرعى فلم يرعَ الحرم
فذاك والكلب سواءٌ فى القِيَم

ثم انه نفَّذ بين يدىّ ، من سلم الناقة الىّ ، ولم يمتنّ علىّ ، فرُحت اجر

اجرّ ذيل الطرب ، واقول ياللعجب ، قال الحارث بن همام فقلت له تالله لقد اطرفت ، وهرفت بما عرفت ، فناشدتك الله هل لقيت اسحر منك بلاغة ، واحسن باللفظ صياغة ، فقال اللهُمَّ نعم فاسمع وانعم *

كنت عزمت حين انتهيت على ان اتخذ ظعينة ، لتكون لى مُعينة ، فحين تعيّن الخِطبُ ، وكاد الامر يستتبّ ، افكرت فِكر المتحرّز من الوهم ، المتامّل كيف مسقط السهم ، وبتُّ ليلتى اناجى القلب المعذّب ، واقلّب العزم المذبذب ، الى ان اجمعت على ان أُسحر ، واشاور اول من ابصر ، فلمَّا قوضت الظلمة اطنابها ، وولت الشُهب اذنابها ، غدوت غدوّ المتعرِّف ، وانتكرت ابتكار المتعيِّف ، فانبري لى يافع ، فى وجهه شافع ، فتيمَّنت بمنظره البهيج ، واستقدحت رايَه فى التزويج ، فقال او تبغيها عوانا ، ام بكرًا تُعانا ، فقلت اخترْ لى ما ترى ، فقد القيت اليك العُرى ، فقال الىَّ التبيين ، وعليك التعيين ، فاسمع انا اُفيدك ، بعد دفن اعاديك ، امَّا البكر فالدُرَّة المخزونة ، والبيضة المكنونة ، والثمرة الباكورة ، والسُلافة المدخورة ، والروضة الانف ، والطوق الذي ثُمن وشرف ، لم يدنّسها لامس ، ولا استغشاها لابس ، ولا مارسها عابث ، ولا وكسها طامث ، ولها الوجه الحَيىّ ، والطرف الخفىّ ، واللسان العَيىّ ، والقلب النقىّ ، ثم هى الدُميَة الملاعبة ، واللُعبة المداعبة ، والغزالة المغازلة ، والمُلحة الكاملة ، والوِشاح الطاهر القشيب ، والضجيع الذى يُشبُّ ولا يشيب ، اما الثيِّب فالمطية المذلّلة ، واللُهنة المعجَّلة ، والبغية المسهّلة ، والطبّة المعلّلة ، والقرينة المتحبّبة ، والخليلة المتقرّبة ، والصناع المدبّرة ، والفطنة المختبرة ، ثم انها عُجالة الراكب ، وانشوطة الخاطب

الخاطب ، وقعدة العاجز ، ونهزة المبارز ، وعربكتها ليّنة ، وعقلتها هيّنة ، ودخلتها متبيّنة ، وخدمتها مُزيّنة ، واقسم لقد صدقت في النعتين ، واجليت المهاتين ، فبايّتهما هام قلبك ، وعلى ايتهما قام زُبّك ، قال ابو زيد فرايته جندلةً يتّقيها المُراجِم ، وتدمى منها المَحاجم ، الاّ انى قلت له كنت سمعت ان البكر اشدّ حُبّا ، واقلّ خبًّا ، فقال لعمرى قد قيل هذا ، ولكن كم قولٍ اذي ، ويحك اما هى المُهرة الابيّة العنان ، والمطيّة البطيّة الاذعان ، والزندة المتعسرة الاقتداح ، والقلعة المستصعبة الافتتاح ، ثم ان مونتها كثيرة ، ومعونتها يسيرة ، وعشرتها صلفة ، ودالّتها مكلّفة ، ويدها خرقآ ، وقنتها صمّآ ، وعربكتها خشنآ ، وليلتها ليلآء ، وفى رياضتها عنآ ، وعلى خبرتها غشآ ، وطالما اخزت المُنازل ، وفركت المغازل ، واحنقت الهازل ، واضرعت الفنيق البازل ، ثم انها هى التى تقول انا البس واجلس ، واطلبُ من تُطلق وتحبس ، قلت له فماتري فى الثيّب يا ابا الطيب ، قال ويحك اترغب فى فضالة الماكل ، وثمالة المنهل ، واللباس المستبذل ، والوعآ المستعمل ، والذوّاقة المتطرفة ، والخراجة المتصرفة ، والوقاح المتسلطة ، والمحتكرة المتسخطة ، ثم كلمتها كنت وصِرت ، وطالما بُغى علىّ فنُصرت ، وشتّان بين اليوم وامس ، وابن القمر من الشمس ، وان كانت الحنّانة البروك ، والطباحة الهلوك ، فهى الغُلّ القَمِل ، والجرح الذي لا يندمل ، فقلت له فهل ترى ان اترهّب ، واسلك هذا المذهب ، فانتهرنى انتهار المؤدّب ، عند زلّة المتأدّب ، ثم قال ويلك اتقتدي بالرهبان ، والحقّ قد استبان ، اُفٍّ لك ولوهن رايك ، وتبًّا لك ولاوليك ، اترك ما سمعت بان لا رهبانية فى الاسلام

Digitized by Google

الاسلام ، او ما حُدِّثت بهانكح نبيّك عليه افضل السلام ، ثم اما تعلم ان السكن الصالحة ترتُّ بيتك ، وتلبّى صوتك ، وتغضّ طرفك ، وتطيّب عرفك ، وبها ترى قُرَّة عينك ، وربحانة انفك ، وفرحة قلبك ، وتعلّة يومك وغدك ، وكيف رغبت عن سُنّة المرسلين ، ومُتعة المتاهّلين ، وشِرعة المُحصَنين ، ومجلبة المال والبنين ، ولقد سلفنى فيك ، ما سمعت من فيك ، ثم اعرض اعراض المُغضَب ، ونزا نزوان المُغضَب ، فقلت له قاتلك الله ، انتطلق متبختزا ، وتدعنى متحيرا ، فقال اظنّك تدعى الحيرة ، لتجلد عُميرة ، وتستغنى عن المُهيرة ، فقلت له قبّح الله ظنّك ، ولا اشب قرنك ، ثم رُحت عنه مراح الخزبان ، وثُبت عن مشاورة الصبيان ، قال الحارث بن هشام فقلت اقسم بهن انبت الايك ، ان الجدل منك واليك ، فاغرب فى الضحك ، وطرب طرب المنهتك ، ثم قال العقّ العسل ، ولا تسل ، فاخذت اسهب فى مدح الادب ، وافضّل ربّه على ذي النشب ، وهو ينظر الىّ نظر المستجهل ، ويُغضى عنى اغضاء المهمل ، فلما افرطت فى العصبيّة للعُصبة الادبية قال لى صه ، واسمع منى وافقهْ *

يقولون ان جمال الفتى ... وزينته ادب راسخُ
وما ان يزين سوي المكثرين ... ومن طودُ سوددة شامخُ
فاما الفقير فخير له ... من الادب القُرص والكامخُ
واي جمالٍ له ان يُقا ... لَ اديب يعلّم او ناسخُ

ثم قال سيضح لك صدقُ لهجتى ، واستنارة حُجّتى ، وسرنا لا نالو جُهدا ، ولا نستفيق جَهدا ، حتى ادّانا السير ، الى قرية غرب عنها الخيرُ ، فدخلناها للارتياد ، وكِلانا مُنفضٌ من الزاد ، فما ان بلغنا المحط ، والمناخ

Digitized by Google

والمُناخ المختـطّ ، او لقينا غلامٌ لم يبلغ الحِـنث ، وعلى عاتقه ضغـث ، فحياه ابو زيد تحيَّة المسلم ، وساله وقفة المفهم ، فقال وعمَّ تسل وفَّقك الله ، قال ابيـاع هاهنا الرُطَب بالخطَب ، قال لا والله ، قال ولا البلـح بالمِلَح قال كَلا والله ، قال ولا الثمر بالسمر ، قال هيهات والله ، قال ولا العصيدة بالقصيدة ، قال اسكت عافاك الله ، قال ولا الثرايد بالفرايد ، قال اين يُذهَب بك ارشدك الله ، قال ولا الدَّقيق بالمعنى الدَّقيق ، قال عدِّ عن هذا اصلحك الله ، واستحلى ابو زيد تراجع السوال والجـواب ، والتكايل من هذا الجراب ، ولمح الغلام ان الشوط بطين ، والشيخ شُبيطين ، فقال له حسبُك يا شيخ ، فقد عرفتُ فنَّك ، واستبنتُ انك ، فخذ الجوابَ صُبرةً ، واكتفِ بهِ خِبرة ، امَّا بهذا المكان ، فلا يُشتري الشعر بشعيـرة ، ولا النثر بنثارة ، ولا القصص بقُصاصة ، ولا الرسالة بغُسالـة ، ولا حكمة لقمانَ بلقمة ، ولا اخبار الملاحم بلحمة ، وامَّا جيل هذا الزمان ، فما منهم من يهيج ، اذا صيغ له المديح ، ولا من يجيز ، اذ انشـد له الاراجيز ، ولا من يغيث ، اذا اطربه الحديث ، ولا من يهير ، ولو انه امير ، وعندهم ان مثل الاديب ، كالربع الجديب ، ان لم تجد الربعَ ديمةً ، لم تكن له قيمة ، ولا دانته بهيمة ، وكذا الادب ، ان لم يعضده نشب ، فدرسه نصب ، وخِربه حصب ، ثم انسدر يعدُو ، وولى يحدو ، فقال لى ابو زيد اعلمت ان الادب قد بار ، وولّت انصاره الادبار ، فبوّت له بحسن البصيـرة ، وسلَّمت بحكم الضرورة ، فقال دَعْنا الان من المصاع ، وخضْ فى حديث القصاع ، واعلم ان الاسجاع ، لا تُشبع من جاع ، فما التدبيرُ فيما يهدك الرمق ، ويطفى الحُرق ، فقلت الامر اليك ، والزمام بيديك ، فقال اري ان ترهن

ترهن سيفك ، لتشبع جوفك وضيفك ، فناولنيه واقم ، لانقلب اليك بها نلتقم ، فاحسنت بهِ الظنّ ، وقلّدته السيف والرهن ، فما لبث ان ركب الناقة ، ورفض الصدق والصداقة ، فمكثتُ مليًّا اترقّبه ، ثم نهضت اتعقّبه ، فكنت كمن ضيّع اللبن فى الصيف ، ولم القَه ولا السيف *

المقامة الرابعة والاربعون الشتويّة

حكى الحارث بن همام قال ، عشوت فى ليلةٍ داجية الظّلم ، فاحمة الهِلم ، الى نار تُضرم على علم ، وتُخبر عن كرم ، وكانت ليلةً جوُّها مقرور ، وجيبها مزرور ، ونجمها مغموم ، وغيمها مركوم ، وانا فيها اصرد من عين الحربا ، والعنز الجربآ ، فلم ازل انصّ عنسى ، واقول طوبى لك ولنفسى ، الى ان تبصّر الموقد آلى ، وتبين ارقالى ، فانحدر يعدو الجمزي ، ويُنشد مرتجزا *

حُيِّيتَ من خابط ليلٍ سارِ ... هداه بل اهداه ضو النارِ
الى رحيب الباع رحب الدارِ ... مُرحِّبٍ بالطارق المهتارِ
ترحاب جعد الكف بالدينارِ ... ليس بهُزورّ عن الزُوّارِ
ولا بهتام القِرى ميخارِ ... اذا اقشعرّت ترب الاقطارِ
وضنّت الانوآء بالامطارِ ... فهو على بؤس الزمان الضارِ
جمُّ الرماد مُرهَف الشفارِ ... ولم يخلُ فى ليل ولا نهارِ
من نحْر وارٍ واقتداح وارِ

ثم

Digitized by Google

ثم تلقاني بهجة حبيّ ، وصافحني براحة أريحيّ ، واقتادني الى بيتٍ عشاره تخور ، واعشاره تفور ، وولايده تهور ، وسوايده تدور وباكساره اضياف ، قد جلبهم جالبي ، وقلبوا في قالبي ، وهم يجتنون فاكهة الشتا ، ويمرحون مرح ذوي الفتا ، فاخذت مأخذهم في الاصطلا ، ووجدت بهم وجد الثمل بالطلا ، ولما ان سري الحصر وانسري الخصر ، أتينا بموايد كالهالات دورًا ، والروضات نورا ، وقد شحن باطعمة الولايم ، وحُمين من العايب واللايم ، فرفضنا ما قيل ، في البطنة ، ورأينا الامعان فيها من الفطنة ، حتى اذا اكتلنا بصاع الحُطم ، واشفينا على خطر التُخم ، تعاورنا مشوش الغمر ، ثم تبوّانا مقاعد السمر ، واخذ كلٌّ منا يشول بلسانه ، وينشر ما في صوانه ، ما عدا شيخًا مشتهبًا فوداه ، محلولقًا برداه ، فانه ربض حجرةً ، واوسعنا هجرة ، وغاظنا تجنبه ، المتبس موجبه ، المعذور فيه مؤنّبه ، الاّ انا النّالة السقول ، وحشينا في المسبّلة العول ، وكلما رُمنا ان يُفيض كما فضنا ، او يفيض فيما اغضنا اعرض اعراض العلية عن الارذلين ، وتلا ان هذ الاّ اساطير الاولين ، ثم كانّ الحيّة هاجته ، والنفس الابية فاجته ، فطلق وازلق وخلع الصلق ، وبذل ان يتلافى ما سلق ، ثم استرعى سمع المعاصر ، واندفع كالسيل الهاصر وقال *

عندي العجايب اروبها بلا كذبِ ... عن العيان فكنّوني ابا العجب
رايت يا قوم اقوامًا غذاؤهم ... بول العجوز وما اعنى ابنة العنب

بول العجوز لبن البقرة والعجوز ايضا من اسما الحمرة

ومُسنتين من الاعراب قوتهم ... ان يشتووا خرقةً تغنى من السغب

الخرقة

الخرقة القطعة من الجراد والسغب الجوع

وكاتبين وما خطّت انامله حرفا ولا قراوا ما خُطّ بالكتب

الكاتبون الخرّازون يقال كتب السقآ والمزادة اذا خرزها

وتا بعين عُقابا فى مسيرهم على تكميمهم فى البيض واليلب

العقاب الراية وكانت راية النبى صلّى الله عليه وسلم تُسمّى العُقاب

اليلب ماكان من جنن الجلود وقيل اليلب البولاد

ومنتدين ذوي نبلٍ بدت لهم نبيلةٌ فانثنوا منها الى الهرب

النبيلة الجيفة ومنه تنبل البعير اذا مات وارو ح

وعصبة لم ترا البيت العتيق وقد حجّت جثيًّا بلا شدٍ على الرُكب

معنى حجّت جثيًا اي غلبت با لحجّة مجادلين جاثين على الركب وجثى

جمع جاثٍ

ونسوة بينها ادلجن من حلب صبحن كاظمة من غير ما تعب

كاظمة فى هذا الموضع من كظم الغيظ

ومُدلجين سرّوا من ارض كاظمةٍ واصبحوا حين لاح الصبح فى حلب

كاظمة هاهنا موضع اي اصبحوا يحلبون اللبن

وقادرين متى ما ساء صنعهمُ او قصّروا فيه قالو الذنب للحطب

القادر الطابخ فى القدر والقدير المطبوخ فيها

وبافعًا لم يلامس قط فانية شاهدته وله نسلٌ من العقب

النسل هاهنا العدْو ومنه قوله تع من كل حدب ينسلون والعقب موخّر

القدم

وشايبا غير مُخفٍ للمشيب بدا فى البدو وهو فتىّ السنّ لم يشب

الشايب

Digitized by Google

الشايب هاهنا مازج اللبن والمشيب اللبن الممزوج يقال مشوب ومشيب

ومرضعًا بلبان لم يفه فمه رابته فى شجار بين السبب

الشجار المحفَّة ما لم تكن مظللة فان ظُللت فهى الهودج والسبب الحبل ومنه قوله تعالى فليمدد بسبب الى السماء

وزارعًا ذُرةً حتى اذا حُصدت صارت غبيراء يهواها اخو الطرب

الغبيراء السكر المتخذ من الذرة فى الحديث اياكم والغبيراء وتسمى ايضًا السُكركة

وراكضًا وهو مغلولٌ على فرس قد غُلَّ ايضًا وما ينفكّ من خبب

المغلول هاهنا العطشان وغلّ اي عطش

وذابلٍ طلقٍ يقتاد راحلةً مستعجلا وهو ماسور اخو كرب

الماسور الذي يجد الاسر وهو احتباس البول

وجالسًا ماشيًا تهوي مطيته به وما فى الذي اوردت من ريب

الجالس الآتى نجدًا والماشى الذي كثرت ماشيته وعليه فسّر بعضهم قول الله تعالى ان امشوا كانه دعاء لهم بالنما وكثرة الماشية

وحايكًا اجذم الكفين ذا خرس فان عجبتم فكم فى الخلق من عجب

الحايك هاهنا الذى اذا مشى حرك منكبيه وفجّج بين ركبتيه

وذا شطاط كصدر الرُمح قامته صادفتُه بِمِنًى يشكو من الحدب

الحدب ما ارتفع من الارض

وساعيًا فى مسرات الانام يري افراحهم مًا ثمًا كالظلم والكذب

افراحهم هاهنا اي اثقالهم بالدين ومنه قوله لا يترك فى الاسلام مُفرَحا اى مثقلا ومغرما

ومُغرمًا بهناجاة الرجال له وما له فى حديث الخلق من ارب

الخلق هاهنا الكذب ومنه قوله تعالى ان هذا الا خلق الاوّلين

وذا ذمام وفت بالعهد ذمّته ولا ذمام له فى مذهب العرب

الذمام الاول العهد والثانى جمع ذمّةٍ وهى البير القليلة الما

وذا قُوِّي ما استبانت قط لينته ولينه مستبين غير محتجب

اللين النخل الدقل ومنه قوله تعالى ما قطعتم من لينة

وساجدًا فوق فحل غير مكترثٍ بها اتى بل يراه افضل القُرَب

الفحل الحصير المتّخذ من فُحّال النخل

وعاذرًا مؤلمًا من ظلّ يعذرهُ مع التلطف والمعذور فى صخب

العاذر الخاتن والمعذور المختون

وبلدةً ما بها ملك لمغترف والما يجري عليها جريَ منسرب

البلدة الفرجة بين الحاجبين وتسمى ايضًا البلجة

وقرية دون افحوص القطا شُحنت بديلم عيشهم من خلسة السلب

القرية بيت النمل والديلم النمل الكثير

وكوكبًا يتواري عند رويته الانسانُ حتى يُرِيَ فى امنع الحُجب

الكوكب البياض الذي يحدث فى العين والانسان هنا انسان العين

ورَوْثةً قُوِّمت مالاً له خطر ونفس صاحبها بالمال لم تطب

الروثة مقدَّم الانف

وصحفة من نضار خالص شربت بعد المكاس بقيراط من الذهب

النُضار هاهنا شجر النبع واياه عنى ابرهيم النخعىّ فى قوله

لا باس بان يُشرب فى قدح نضار

ومستجيشا

Digitized by Google

ومستجيشًا بخشخاش ليدفع ما اظله من اعاديه فلم يخب

الخشخاش الجماعة عليهم دروع واسلحة

وطالما مرّ بى كلبٌ وفى فمه ثورٌ ولكنه ثورٌ بلا ذنب

الثور القطعة من الاقط

وكم رأى ناظري فيلًا على جمل وقد تورّك فوق الرحل والقتب

الفيل الرجل الفاضل الراي

وكم لقيت بعرض البيد مشتكيًا وما اشتكى قط فى جد ولا لعب

المشتكى المتخذ شكوة وهى القربة الصغيرة

وكنت ابصرت كرّازًا لراعيةٍ بالدوّ ينظر من عينين كالشهب

الكراز كبش يحمل عليه الراعى اداته والدو بريّة تدوى فيها الريح

وعاينت مقلتى عينين ماء وهما يجري من الغرب والعينان فى حلب

الغرب هاهنا مجري الدمع والعينان المقلتان وحلب البلدة المعروفة

وصادعًا بالقنا من غير ان علقت كفاه يومًا برمح لا ولم يثب

القنا ارتفاع الانف وتحدب وسطه وصدع به اي كشفه

وكم نزلت بارض لا نخيل بها وبعد يوم رايت البسر فى القلب

البسر جمع بسرة وهى الما الحديث العهد بالمطر والقلب جمع قليب

وكم رايت باقطار الفلا طبقًا يطير فى الجو منصبًّا الى صبب

الطبق القطعة من الجراد

وكم مشايخ فى الدنيا رايتهمُ مُخَلَّدين ومن ينجو من العطب

المخلّد الذي ابطا شيبه

ودم بدا لى وحش يشتكى سغبًا بمنطق دلق امضى من القضب

الوحش

الوحش الرجل الجايع

وكم دعانى مستنجٍ فحادثنى وما اخلّ ولا اخللت بالادب

المستنجى الجالس على نجوة وهى المكان المرتفع الذي تظن انه نجاوك

وكم انخت قلوصى تحت جنبذةٍ تظلّ ما شيت من عُرب ومن عرب

الجنبذة القُبّة والعُرب جمع عَروب وهى المراة المتحبّبة الى زوجها

وكم نظرت الى من سُرّ ساعتَه ودمعه مستهلّ القطر كالسُحب

سُرّ اي قُطع سرَرُه وسُرّهُ ويسمى ما تبقى بعد القطع السُرة

وكم رايت قهيصًا ضرّ صاحبَه حتى انتهى واهى الاعضآ والعصب

القهيص الدابة الكثيرة القهاص

وكم ازار لوان الدهر اتلفهُ لجقّ لبدُ حثيث السير مضطرب

الازار المراة ومنه قول الشاعر فدي لك من اخى ثقةٍ ازاري وقيل عنى به نفسه

هذا وكم من افانين معجّبةٍ عندي ومن ملح تلهى ومن نخب

فان فطنتم للحن القول بان لكم صدقى ودلكم طلعى على رُطب

وان شُدهتم فان العار فيه على من لا يميز بين العود والحطب

قال الحارث بن همام ، فطفقنا نخبط فى تقلب قريضه ، وتاويل معاريضه ، وهو يلهى بنا لهو الخلىّ بالشجىّ ، ويقول ليس بعُشّك فادرجى ، الى ان تعسّر النتاج ، واستحكم الارتتاج ، فالقينا اليه المقالة وخطبنا منه الافادة فوقفنا بين الطمع واليأس ، وقال الأيفلس قبل الابسلس ، فعلمنا انه ممن يرغب فى الشُكم ، ويرتشى فى الحكم ، وسآء ابا مثوانا ان

ان نُعرّض للغُرم ، او نخيّب بالرغم ، فاحضر ناقة عيديّة ، وحُلّةً سعيديّة ، وقال له خذهما حلالا ، ولا ترزا اضيافى زبالا ، فقال اشهد انها شنشنة اخرميّة ، واريحيّة حاتمية ، ثم قابلنا يوجه بِشرُه يشقّ ، ونضرته ترقّ ، وقال يا قوم ان الليل قد اجلوّذ ، والنعاس قد استحوذ ، فافزعوا الى المراقد ، واغتنموا راحة الراقد ، لتُشربوا نشاطا ، وتبعثوا نِشاطا ، فتمتعوا ما افسّر ، وبتسهيل لكم المتعسّر ، فاستصوب كل ما رآه ، وتوسد وسادة كراه ، فلما وسنت الاجفان ، واغفت الضيفان ، وثب الى الناقة فرحلها ، ثم ارتحلها ورحّلها ، وقال مخاطبًا لها *

سروجَ يا ناق فسيرى وخِدي ... وادلجى واوِّبى واسئدي
حتى تطاخُفّاك مرعاها الندي ... فتنعمى حينئذ وتسعدي
وتامنى ان تُتهمى وتنجدي ... ايدٍ فدتك النُوقُ جدّي واجهدي
وافرى اديم فدفدٍ ففدفد ... واقتنعى بالنَّشح عند المورد
ولا تحطّى دون ذاك المقصد ... فقد حلفت حلفة المجتهد
بحرمة البيت الرفيع العهد ... انك ان احللتنى فى بلدي
حللت منى محلّ ولدي

قال فعلمت انه السروجى الذى اذا باع ابتاع ، واذا ملأ الصاع انصاع ، ولما انبلج صباحُ اليوم ، وهَبّ النُوّام من النوم ، اعلمتهم ان الشيخ حين اغشاهم السُّبات ، طلّقهم البتات ، وركب الناقه وفات ، فاخذهم ما قدُم وما حدُث ، ونسوا ما طاب منه بها خبُث ، ثم انشعبنا فى كل مشعب ، وذهبنا تحت كل كوكب *

قال الشيخ ابو محمد القسم بن على الحريري

قد

Digitized by Google

قد فسرت سركل لغز تحته ، ولم ابعد على كل من يقرأه كشفه ، وقد بقيت الفاظ اشتملت عليها هذه المقامة ، ربما التبس تفسيرها على بعض من تقع اليه ، فاحببت ايضاحها له ليُكفى حيرةُ الشُبهة ، وكُلفةُ الفِكرة ، ووصمة البحث والمسئلة ، وبالله الاستعانة والقوّة ، قوله عشوتُ الى نار يعنى تنوّرتُها فقصدتها ، فان لم تقصدها قلت عشوت عنها ، كقوله تعالى ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطانا ، اي من يعرض ، وقوله كنت اصرد من عين الحربآ ، والعنز الجربآ ، هذان مثلان يضربان لمن يبلغ منه البردُ ، وذلك لان الحربآ تدور ابدًا مع الشمس ، وتستقبلها بعينها ، ولذلك شبّه ابن الرومى الرقيبَ بالحربآ فى قوله *

ما بالُها قد حسنت ورقيبُها ابدا قبيحُ قبّح الرقباءُ
ما ذاك الاّ انها شمسُ الضحى ابدا تكون رقيبها الحربآءُ

والعنز الجربآ ، لا تدفأ فى الشتآء لقلّة شعرها ، وذكر بعضهم ان العنز الجربا تصحيف المثل الاول ، وقوله نحر وار يعنى الجمل المكتنز شحمًا ، الكثير مُخًّا ، وقوله عِشاره تخور ، واعشاره تفور ، العِشار النوق الحوامل ، واحدتها عُشراء وهى التى اتى عليها فى الحمل عشرةُ اشهُر ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع ، والأعشار البرمة العظيمة كانها شُعِّبت لعظمها ، يقال برمة أعشارُ ، وجَفنةٌ اكسارُ ، وثوب اسمال وبُرد اخلاقُ ، وحبلٌ أرمام ، ووصف الجماعة منها كوصف الواحد ، وقوله فاكهة الشتآ كنى به عن النار وفيه قول بعض المحدّثين *

النار فاكهة الشتآ فمن يُرد اكلَ الفواكه شاتيًا فليصطلِ
ان الفواكه فى الشتآ شهيةٌ والنار للمقرور افضل ماكلِ

وقوله

Digitized by Google

وقوله موايد كالهالات ، يعنى دارات القمر ، واحدها هالة ودارة الشمس تسمى الطفاوة ، وقوله مشوش الغمر يعنى المنديل ، يقال مش يده بالمنديل اذا مسحها ، ومنه قول امرئ القيس *

نمشّ باعراف الجياد اكفّنا اذا نحن قمنا عن شواءٍ مضهبِ

وقوله مشتهباً فوداه ، اي صار من الشيب فى لون الاشهب ، ومنه قول امرئ القيس *

قالت الخنساء لما جيئتها شاب بعدي راس هذا واشتهب

وقوله ربض حجرةً اي ناحيةً ، ويقال فى المثل لمن يشارك فى الرخا ، ويجانب عند البلآء ، يرتع وسطا ويربض حجرة ، وقوله فاسترعى سمع السامر ، يعنى السُمّار ، لان السامِر اسم للجمع كالحاضِر ، اسم للحى النازلين على الماء ، والباقِر اسم لجماعة البقر ، وقال بعض اهل اللغة هو اسمٌ للبقر مع رُعاتها ، واشتقاق السامر من السَمَر ، وهو ظِلّ القمر ماخوذ من السُمرة ، فلما كان غالب احوال السُمّار ، انهم يتحدثون فى ظِلّ القمر اشتُقّ لهم اسم منه ، والى هذا يرجع قولهم لا اكلّمه القمرَ والسمر ، وقوله ليس بعشّ فادرجى ، هذا مثل يضرب لمن يتعاطى ما لاينبغى له ، والعش ما يكون فى شجرةٍ وان كان فى حايط اوكهف جبل فهو وكر ، وقوله الإيناس قبل الابساس ، هذا مثلٌ ايضاً ومعناه انه ينبغى ان يونّس الانسانُ ثم يُكلف ، واصله ان حالب الناقة يونسها حين يروم حلبها ، ثم يُبسّ بها للحلب ، والإبساس ان يقول لها بُس بُس لتسكن وتدرّ ، وتسمّى الناقة التى تدرّ على الابساس البَسوس ، وقوله يرغب فى الشُكم ، الشُكم ما اعطيتَه على سبيل المجازاة ، فان اعطيت مبتدياً فهو الشكد

الشُّكد ، وقوله ساءَ اباً مثوانا ، يعنى المُضيف الذي اووا اليه ، وثووا عنده ، وقوله ناقة عيديَّة ، قيل انها منسوبةٌ الى فحل مُنجب اسمه عيد ، وقيل انها منسوبة الى فخذٍ من مهرة اسمه عيد بْن الآمري على وزن العامري بن مهرة وكانت مهرة وعيد تتخذان نجايب الابل فنسبت اليهما ، وقوله حُلةٌ سعيدية هى منسوبة الى سعيد بن العاص ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كساه وهو غلام حلة فنُسب جنسُها اليه ، وقوله لا ترزا اضيافى زبالا ، اي لا ترزاهم شيًا ولو قلّ ، والاصل فى الزبال ما تحمله النملة بفيها ، وقوله شِنشنةٌ اخزميَّة ، اشار الى المثل الذي ضربه جَدّ حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج بن اخزم الطائى حين نشا حاتم ، وتقيّل اخلاقَ جَدِّه اخزم فى الجود ، فقال شنشنةٌ اعرفُها من اخزم ، وتمثل عقيلُ بْن عُلفه به حين قال *

ان بنىَّ ضرّجونى بالدم ... من يلقَ آساد الرجال يُكلَم

شِنشنة اعرفها من اخزم *

ومن ادَّعى ان المثل له فقد سها فيه ، وقوله اجلوَّذ اى اسرع فى الذهاب ، ومثله اخروَّط ، وقوله وثب الى الناقة فرحلها يعنى شدّ عليها الرحل ، وبه سميت الراحلة ، لانها فاعلة بمعنى مفعولة ، كقوله تعالى فى عيشةٍ راضية اي مرضية ، ومن ماءٍ دافق اي مدفوق ، والراحلة تقع على الناقة والجمل ، ودخول الها فيها للمبالغة ؛ مثل داهية وراوية ، وقوله ارتحلها اي ركبها وفى الحديث ان النبىّ صلعم سجد فركبه الحسن رضى الله عنه فابطأ فى سجوده فلما قضى صلاته قال ان ابنى ارتحلنى فكرهت ان اعجله وقوله رحّلها اي ازعجها واشخصها واجدّ بها

فى

فى الرحيل ، ومنه الخبر يخرج عند اقتراب الساعة نارٌ من قعر عدن تُرحِّل الناس ، وقوله فادلجى واوّبى واسئدي ، الادلاج ان تسير الليل كله ، والاسم منه الدَّلجة بفتح الدال ، والادِّلاج بالتشديد ان تسير من اخره ، والاسم منه الدُّلجة بضمّ الدال ، وقيل انّ الدُلجة بضم الدال وفتحها بمعنى واحد ، والتاويب سير النهار وحده ، والاسآد ان تسير ليلاً ونهاراً والنشح ان تشرب دون الرَيّ ، وقوله فاخذهم ما قَدُم وما حَدُث ، يقال ذلك لمن يستولى عليه الهموم ، والدال من حدُث تُضمّ ، فى هذا الموضع وحده ، ليوافق لفظها لفظ قدُم ، فان افرد حدث عن قدُم ، وجب فتح الدال من حَدَث ، ومثله قولهم هنانى ومرّانى بحذف الالف من مرّأنى ، اذا ذكر مع هنّأنى ، فان افردته وجب ان تقول امرأنى الشى ، كذلك يقولون رِجسٌ نِجسٌ فيكسِرون النون من نجس ويسكنون الجيم ليزاوج لفظةَ رِجْس فان افرد قيل نَجَسٌ بفتح النون والجيم كما قال الله تعالى انما المُشركون نَجَسٌ ، وقوله ذهبنا تحت كل كوكب ، كذا المثل يضرب لمن تختلف فى السفر طرقهم ، وتتباين سبلهم *

المقامة الخامسة والاربعون الرمليّة

حكى الحارث بن همام قال ، كنت اخذت عن اولى التجاريب ، ان السفر مِرآة الاعاجيب ، فلم ازل اجوب كل تنوفة ، واقتحم كل مخوفة ، حتى اجتليت كل اطروفة ، فمن احسن ما لمحته ، واغرب ما استملحته ، انى

انى حضرت قاضى الرَّملة ، وكان من ارباب الدولة والصولة ، وقد ترافع اليه بالٍ فى بال ، وذات جهال فى اسهال ، فهمَّ الشيخ بالكلام ، وتبيان المرام ، فهنعته الفتاة من الافصاح ، وخسأته عن النباح ، ثم نضت عنها فضلة الوشاح ، وانشدت بلسان السليطة الوقاح *

يا قاضى الرملة يا ذا الذى ... فى يده التمرة والجمره
اليك اشكو جور بعلى الذي ... لم يعجج البيت سوى مره
وليته لما قضى نسكه ... وخفّ ظهراً اذ رمى الجمره
كان على راي ابى يوسفٍ ... فى صلة الحجّة با لعُمره
هذا على انى مذ ضمّنى ... اليه لم اعصَ له امرَه
فمُرّهُ امّا ألفةٌ حلوة ... تُرضى وامّا فُرقةٌ مُرَّه
من قبل ان اخلع ثوبَ الحيا ... فى طاعة الشيخ ابى مُرَّه

فقال له القاضى قد سمعت ما عزتك اليه ، وتوعّدتك عليه ، فجانب ما عرَّك وحاذر ان تُفرَك وتُعرَك ، فجثا الشيخ على ثفناته ، وفجَّر ينبوع نفثاته وقال *

اسمع عداك الذمُّ قول امرئٍ ... يوضِح فيها رابها عذرَه
والله ما اعرضت عنها قلىً ... ولا هوي قلبى قضى نذره
وانها الدهرُ عدا صرفُه ... فابتزّنا الدُّرَّة والدَّرَّه
فهنزلى قفرُكما جيدها ... عُطلٌ من الجزعة والشذره
وكنت من قبل اري فى الهوي ... وديته رايَ بنى عذره
فهذ نبا الدَّهر هجرت الدُمى ... هجران عَفٍّ آخذٍ حذره
وملت عن حرثى لا رغبة ... عنه ولكن اتقى بذره

فلا

Digitized by Google

فـــلا تلـــم من هذه حـــالـه واعطف عليه واحتـمل هـــذره

قال فالـتظت المرأة من مقـاله ، وانـتضت الحُجج لجداله ، وقالـت لـه ويلك يا مرقعان ، يا من هو لا طعام ولا طعان ، اتضيق بالـولـد ذرعا ، ولكل اكولةٍ مرعى ، لقد ضلّ فهمُك ، واخطـأ سهمُك ، وسفهت نفســك ، وشقيت بك عِرسك ، فقال لها القاضي امّـا انت فلو جادلتِ الخنسـآء ، لانثنت عنك خرساء ، واما هو فان كان صدق في زُعمه ، ودعوي علمه ، فله في همِّ قبقبه ، ما يشغله عن ذبذبه ، فاطرقت المرأة تنظر ازورارا ، ولا ترجع جوارا ، حتى قلنا قد راجعها الخفر ، او حاق بها الظفر ، فقال لهـا الشيخ تعسـًا لك ان زخرفتِ ، او كتمتِ ما عرفتِ ، فقالت ويحك وهل بعد المنافرة كتمٌ ، او بقي لنا على سر ختـم ، وما فينا الاّ من صـدق ، وهتك صونه اذ نطق ، فليتنا لاقينا البكَمَ ، ولم نلقَ الحكم ، ثـم التفعت بوشاحها ، وتباكت لافتضاحها ، وجعل القاضي يَعجَب من خطبهـا ويُعجّب ، ويلوم لهما الدهرَ ويونب ، ثم احضر من الـورق ألفين ، وقال ارضيا بهما الاجوفين ، وعاصيا النازغ بين الإلفين ، فشكراه على حسن السراح ، وانطلقا وهما كالمآء والراح ، وطفق القاضي بعد مَسرحهما ، وتنائي شبحهما ، يُثني على ادبهما ، ويقول هل من عارفٍ بهما ، فقال له عينُ اعوانه ، وخالصة خُلصانه ، امّا الشيخ فالسروجي المشهود بفضله ، واما المرأة فقعيدة رحله ، وامّا تحاكمهما فكيدة من فعله ، واحبولة من حبايل ختله ، فاحفظ القاضي ما سمع ، وتلهف كيف خُدع ، ثم قال للواشي بهما ، قُم فردهما ، ثم اقصِدهما وصِدهما ، فنهض ينفض مِذرويه ، ثم عاد يضرب اصدريه ، فقال له القاضي اظهرنا على

ما

ما نبتتَ ، ولا تُخفِ عنا ما استخبثت ، فقال ما زلت استقري الطرق ، واستفتح الفُلق ، الى ان ادركتهما مُصحرين ، وقد زمّا مطى البين ، فرغّبتهما فى العلل ، وكفلت لهما بنيل الامل ، فأشرب قلب الشيخ ان ييأس ، وقال الفرار بقرابٍ اكيس ، وقالت هى بل العود احمد ، والفروقة يكمَد ، فلما تبيّن الشيخ سفهَ رأيهما ، وغرر اجترائهما ، امسك ذلاذلهما ، ثم انشا يقول لها *

دونكِ نُصحى فاقتفى سُبله ... واغنى عن التفصيل بالجمله
طيري متى نقرتِ من نخلةٍ ... وطلّقيها بتّةً بتله
وحاذري العود اليها ولو ... سبّلها ناطورها الابله
فخير ما للّص الاّ يُرَي ... ببُقعة فيها له عمله

ثم قال لى قد عُنّيتَ فيما وُليت ، فارجع من حيث جيت ، وقل لمرسلك ان شيتَ *

رُويدَك لا تُعقِب جميلك بالاذي ... فتضحى وشمل الحمد والمال منصدع
ولا تتغضّب من تزيّد سايلٍ ... فما هو فى صوغ اللسان بمبتدع
وان تكُ قد سأتك منى خديعةٌ ... فقبلك شيخ الاشعريّين قد خُدِع

فقال القاضى قاتله الله فما احسن شجونه ، واملح فنونه ، ثم انه اصحب رايدَه بُردين ، وصُرّة من العين ، وقال سِر سيرَ من لا يري الالتفات ، الى ان تري الشيخ والفتاة ، فبلّ يدهما بهذا الحبآء ، وبيّن لهما انخداعى للادبآء ، قال الراوي فلم ارَ فى الاغتراب ، كهذا العُجاب ، ولا سمعت بمثله من جال وجاب *

Digitized by Google

المقامة السادسة والاربعون الحلبيّة

حدث الحارث بن همام قال ، نزع بى الى حلب ، شوقٌ غلب ، وطلبٌ يا له من طلب ، وكنت يومئذ خفيف الحاذ ، حثيث النفاذ ، فاخذت اهبةَ السير ، وخففتُ نحوها خفوق الطير ، ولم ازل مذ حللت ربوعها وارتبعت ربيعها ، افانى الايام ، فيها يشفى الغرام ، ويُروي الاوام ، الى ان اقصر القلبُ عن ولوعه ، واستطار غرابُ البين بعد وقوعه ، فاغرانى البال الخلو ، والمرحُ الحلو ، بان اقصد حمص لاصطاف ببُقعتها ، واسير رقاعة اهل رقعتها ، فاسرعت اليها اسراع النجم ، اذا انقضّ للرجم ، فلما خيّمت برسومها ، ووجدت روح نسيمها ، لمح طرفى شيخًا قد اقبل هربُره ، وادبر ، غربره ، وعنده عشرةُ صبيان صنوان ، وغير صنوان ، فطاوعت فى قصده الحرص ، لاخبر به ادباء حمص ، فبشّ بى حين وافيته ، وحيّانى باحسن مما حييتنى ، فجلست اليه لابلو جنى نطقه ، واكتنه كنهَ حمقه ، فما لبث ان اشار بعُصيته الى كبر اُصَيْبيته ، وقال له انشد الابيات العواطل ، واحذر ان تماطل ، فجثا جثوة ليث ، وانشد من غير ريث

اعدد لحُسادك حدَّ السلاح ... واورد الامل ورد السماح
وصارم اللهو ووصل المها ... واعمل الكوم وسُمر الرماح
واسعَ لادراك محلٍّ سما ... عهادُه لا لادِّراع المراح
والله ما السودد حسو الطلا ... ولا مراد الحمد روثُ رداح

واها

Digitized by Google

واهـًا لحُـرّ صـدرُه واسـعٌ وهمُّه ما سـرّ اهـل الـصـلاح
مـورده حـلـوٌ لسُـوّا لـه ومالُـه مـا سـألـوه مُطـاح
مـا اسـمـح الامـلَ ردًّا ولا ماطله والمطـل لـومٌ صـراح
ولا اطـاع الهـوى لمّـا دعـى ولا كسـا راحًا لـه كـاس راح
سـوّده اصـلاحُـه سـرَّه وردعُـه اهـواه والـطـمـاح
وحصّـل المـدحَ لـه عـلمُـه ما مُهر العورُ مهور الصـحـاح

فقال له احسنت يا بدير ، يا راس الدير ، ثم قال لتلوه ، المشتبـه بصنوه ، اُدنُ يا نوبرة ، يا قمر الدويرة ، فدنا وما تباطا ، حـتـى حـلّ منـه مقعد المعاطا ، فقال له اجل الابياتِ العرايس ، وان لم يكن نفايس ، فبرى وقطّ ، ثم احتجر اللوح وخطّ *

فتنتنى فجنّنتنى تجنّـى بتجنٍّ يفتنّ غِبّ تجـنـى
شغفتنى بجفن ظبى غضيض غنج يقتضى تفيّض جفنـى
غشيتنى بزينتين فشفّتنـى بزىً يشقّ بين تـثـنّـى
فتظنيت تجتبينى فتجـز ينى بنفث يشفى فخيب ظنّى
ثبّتت فىّ غشّ جيب بتزيـيـن خبيث يبغى تشفّى ضغن
فنزت فى تجنّبى فثنتـنى بنشيج يُشجى بفنّ فـفـنّ

فلما نظر الشيخ الى ما حبّره ، وتصفح ما زبره ، قال له بورك فيك من طلا ، كما بورك فى لا ولا ، ثم هتف اقرب يا قُطرب ، فاقترب منه فتى يحكـى نجم دجية ، او تمثال دمية ، فقال له ارقم الابيات الاخياف ، وتجنب الخلاف ، فاخذ القلم ، ورقم *

اسمح فبثُّ السمـاح زيـن ولا تُخب آملا تضـيّـف

ولا

ولا تُجز ردَّ ذي سؤالٍ فتّن ام فى السوال خفّف
ولا تظُنّ الدهور تُبقى مال ضنين ولو تقشّف
واحلُم فجفنُ الكرام يُغضى وصدرهم فى العطا نفنّف
ولا تخُن عهد ذي وداد ثبتٍ ولا تبغِ ما تزيّف

فقال له لا شلّت يداك ، ولا كلّت مُداك ، ثم نادي يا غَشمْشم ، يا عِطر مَنْشَم ، فلبّاه غلام كدُرة غوّاص ، او جوذر قناص ، فقال له اسطر الابيات المتأيّم ، ولا تكن من المشأيّم ، فتناول القلم المثقف ، وكتب ولم يتوقّف *

زُيّنت زينبُ بقدٍّ يقُدُّ وتلاه وبلاه نهدٌ يهُدُّ
جندُها جيدُها وطرفٌ وطرفُ ناعسٌ ناعشٌ بحدٍّ يحدُّ
قدرها قد زها وناهت وتاهت واعتدت واغتدت بخدٍّ يخدُّ
فارقتنى فأرّقتنى وشطّت وسطت ثم نمّ وجدٌ وجدُّ
فدنت فُدّيت وحنّت وحيت مُغضبًا مُغضبيًا يودّ يُودُّ

فطفق الشيخ يتامل ما سطره ، ويقلّب فيه نظره ، فلما استحسن خطّه ، واستصحّ ضبطه ، قال له لا شلّ عشرُك ، ولا استخبث نشرك ، ثم اهاب بفتى فتّان ، يسفر عن ازهار بستان ، فقال له انشد البيتين المُطرَفين ، المشتبهى الطرفين ، الذين اسكتا كل نافث ، وامنا ان يعزّزا بثالث ، فقال له اسمع ولا وقر سمعُك ، ولا هزم جمعك ، وانشد من غير تلبث ولا تربث *

سِم سمةً تحسُن اثارُها واشكر لمن اعطى ولو سِمسمه
والمكر مهما استطعتَ لا تاتِه لتقتنى السودد والمكرمه

فقال

فقال له اجدت يا زغلول ، يا ابا الفلول ، ثم نادي اوضح يا ياسين ، ما يشكل من ذوات السين ، فنهض ولم يتانَّ ، وانشد بصوت اغنَّ *

نقس الدواة ورُسغ الكف مثبتة سيناهما ان هما خُطَّا وان دُرسا
وهكذا السين فى قسبٍ وباسقةٍ والسفح والبخس واقسر واقتنبس قَبَسا
وفى تقسّست بالليل الكلام وفى مسيطر وشموس واتخذ جرسا
وفى قريس وبردٍ قارسٍ فخذ الصواب منى وكن للعلم مقتبسا

فقال له احسنت يا نفيش ، يا صناجة الجيش ، ثم قال ثب يا عنبسة ، وبيِّن الصادات الملتبسة ، فوثب وثبة شِبل مُثار ، ثم انشد من غير عثار *

بالصاد تكتب قد قبصت دراهمًا باناملى واصخ لتستمع الخبر
وبصقت ابصق والصماخ وصنجة والقصّ وهو الصدر واقتصّ الاثر
وبخصت مقلتَه وهذي فرصةٌ وقد أُرعدت منه الفريصةُ للخور
وقصرت هذا اى حبست وقد دنا فصحُ النصاري وهو عيدٌ منتظر
وقرصته والخمر قارصة اذا حذت اللسان وكل هذا مُستطر

فقال له رعيًا لك يا بنيَّ ، فلقد اقررت عينىَّ ، ثم استنهض ذا جثَّةٍ كالبيدق ، ونغشةٍ كالشوفق ، وامره ان يقف بالمرصاد ، ويسرد ما اُجري على السين والصاد ، فنهض يسحب برديه ، ثم انشد مشيرًا بيديه *

ان شيت با لسين فا كتب ما ابيّنه وان تشا فهو با لصادات يكتتبُ
مغسٌ وفقس ومسطار ومهّلس وسالغ وسراط الحق والسقبُ

المغس الوجع المعترض فى الجوف ، وهو مسكّن الغين ، والفقس فقس البيضه

Digitized by Google

البيضة ، والمسطار الخمرة المُرّة ويقال لها ايضًا مسطارة ، والمهلس الذي يسقط من يدك ولا تشعر به ، والسالغ اخر اسنان ذوات الظلف ، والسقب القرب *

والسامغان وسقر والسوبوق ومسلاق وعن كل هذا تفصح الكتبُ

السامغان جانبا الفم والمسلاق الشديد الصوت ، ومنه قوله تعالى سلقوكم بالسنةٍ حِدادٍ *

فقال له احسنت يا حبقّة يا عين بقّة ، ثم نادي يا دغفل ، يا ابا زنفل ، فلبّاه فتىً احسن من بيضة ، فى روضة ، فقال له ما عقدُ هجاء الافعال ، التى اخرها حرف الاعتلال ، فقال له اسمع لا صمّ صداك ، ولا سمعت عداك ثم انشد ، وما استرشد

اذا الفعل يومًا غُمّ عنك هجاؤُه فالحق به تآ الخطاب ولا تقف
فان تر قبل التاء يآ فكتبُه بيآ والاّ فهو يكتب بالالف
ولا تحسب الفعل الثلاثي والذي تعدّاه والمهموز فى ذاك يختلف

فطرب الشيخ لما اداه ، وعوّذه وفدّاه ، ثم قال هلمّ يا قعقاع ، يا باقعة البقاع ، فاقبل فتى احسن من نار القري ، فى عين ابن السُري ، فقال له اصدع بتمييز الظآ من الضاد ، لتصدع اكبادَ الاضداد ، فاهتزّ لقوله واهتش ، ثم انشد بصوتٍ اجشّ *

ايها السائلى عن الضاد والظآ لكى لا تُضلّه الالفاظُ
انّ حفظ الظاءات يُغنيك فاسمعها استماع امرئ له استيقاظ
هى ظمياء والمظالم والاظلام والظلم والظبا واللحاظ
والعظى والظليم والظبى والشيظم والظلّ واللظى والشُواظ
والتظنى

والتظنّى واللفظ والنظم والتقريظ والتقيظ والظمأ والملاظ
والحظى والنظير والظئير والجاحظ والناظرون والايقاظ
والتشظّى والظلف والعظم والظنبوب والظهر والشظا والشظاظ
والاظافير والمظفّر والمحظور والحافظون والاحفاظ
والحظيرات والمَظنّة والظِنّة والكاظمون والمغتاظ
والوظيفات والمواظب والكِظّة والانتظار والالظاظ
ووظيفٌ وظالع وعظيم وظهير والفظّ والاغلاظ
ونظيفٌ والظرف والظلف والظاهر ثم الفظيع والوعاظ
وعُكاظ والظعن والمظّ والحنظل والقارظان والاوشاظ

المظّ رُمّان البرّ ، والقارظ جانى القرظ ، وهو النبات المدبوغ به ، والاوشاظ الاخلاط والجماعات *

وظرابٌ والظِرّان والشظف والسباهظ والجعظري والجَوّاظ

الظراب الربا الصغار واحدتها ظَرِب ، والظِران الحجارة المحددة واحدتها ظرر ، والشظف البوس ، وسوء العيش ، والباهظ المُثقِل والجعظري المنتفخ بما ليس عنده ، والجواظ الفاجر وقيل الاكول المحتال *

والظرابين والحناظب والعُنظب ثم الظيّان والارعاظ

والظرابين جمع ظَرِبان وهى دابّة لا يطاق فسوها ، وتُجمع ايضًا على ظرابى بحذف النون ، وعلى ظِربَى ، وهى جمع شاذ ، ولم يجى على فعلى الّا هذا وحِجلى جمع حَجَل ، والحناظب ذكور الخنافس ، والعُنظب ذكر الجراد ، والظيّان ياسمين البرّ ، والارعاظ جمع رُعظ ، وهو مدخل النصل فى السهم *

والسناظى

Digitized by Google

والشناظى والدلظ والظاب والظبظباب والعُنظوان والجنعاظ

الشناظى نواحى الجبل ، والدلظ الدفع ، والظاب الصخب ، وقد تُبدل البآء منه ميمًا ، وقيل ان الظاب والظام اسمان لسلق الرجل ، والعنظوان نبتٌ ، والضبظاب الداهى يقال ما به ظبظابٌ ، كما يقال ما به قلبة ، والجنعاظ الاحمق وقيل المتسخّط عند الطعام *

والشناظير والتعاظل والعِظلم والبظر بعدُ والانعاظ

الشناظير جمع شنظير وهو السيّئ الخلق ، والتعاظل تلازم الجراد ، والكلاب عند السِفاد ، والعِظلم الخطمى وقيل سمين البر ، والانعاظ قيام الذكر *

هى هذه سوى النوادر فاحفظها لتقفوا اثارَك الحُفّاظُ

واقضى فيها صرّفت منها كما تقضيه فى اصلهِ كقيظ وقاظوا

فقال له الشيخ احسنت لا فُضّ فوك ، ولا بَرَّ من يجفوك ، فوالله انك مع الصِبى الغضّ ، لاحفظُ من الارض ، واجمع من يوم العرض ، ولقد اوردتك ورُفقتَك زُلالى ، وثقفتكم تثقيف العوالى ، والحقتكم جناحَ تكرمتى ، وسقيتكم سُلافة كرمتى ، حتى لحقتم بالعِلية ، وتحلّيتم من الادب باحسن الحلية ، فاذكرونى اذكركم ، واشكرونى ولا تكفرون ، قال الحارث بن همام ، فعجبت لما ابدي من براعة ، معجونة برقاعة ، واظهر من حذاقة ، ممزوجة بحماقه ، ولم يزل بصري يصعّد فيه ويصوّب ، وينقّر عنه وينقّب ، وهو كمن ينظر فى ظلماء ، او يسري فى بهماء ، فلما استراث تنبّهى ، واستبان تدلّهى ، حملق الىّ وتبسم ، وقال لم يبقَ من يتوسم ، فبهتُّ لفحوي كلامه ، ووجدته ابا زيدٍ عند ابتسامه ، واخذت الومه على تدبّر بُقعة النوكى

النوكى ، وتخيّر حرفة الحمقى ، فكأن وجهه اُسفّ رمادا ، او اشرب سوادا ، الاّ انه انشد وما تهادي *

تخيّرت حمصَ وهذه الصناعة لارزق حُظوةَ اهل الرقاعة
فما يصطفى الدهر غيرَ الرقيع ولا يوطن المالَ الاّ بقاعة
ولا لاخى اللبّ من دهره سوى ما لعيْر ربيط بقاعه

ثم قال اما ان التعليم اشرف صناعة ، واربح بضاعة ، وا نجح شفاعة ، وربُّه ذو امرةٍ مطاعة وهيبةٍ مشاعة ، ورعيّةٍ مِطواعة ، يتسيطر تسيطر امير ، ويرتب ترتيب وزير ، ويتحكّم تحكُّم قدير ، ويتشبَّه بذي مُلكٍ كبير ، لو لا انه يخرف فى امد يسير ، ويتّسم بحُمقٍ شهير ، وينقلب بعقلٍ صغير ، ولا ينبّئك مثلُ خبير ، فقلت له تالله انك لابن الايّام ، وعَلم الاعلام ، والساحر اللاعب بالافهام ، المذلل له سُبل الكلام ، ثم لم ازل معتكفاً بناديه ، ومغترفاً من سيل واديه ، الى ان غابت الايام الغُرّ ، ونابت الاحداث الغُبر ، ففارقته ولعينى الغُبر *

المقامة السابعة والاربعون الحجْريّة

حكى الحارث بن همام قال ، احتجت الى الحجامة ، وانا بحجر اليمامة ، فأُرشدتُ الى شيخ يحجم بلطافة ، ويسفر عن نظافة ، فبعثت غلامى لاحضاره ، وارصدت نفسى لانتظاره ، فابطأ بعد ما انطلق ، حتى خِلته قد أَبَق ، او ركب طبقاً عن طبق ، ثم عاد عود المُخفق مسعاه ، الكلّ على

على مولاه ، فقلت له ويلك ابطأ فندٍ ، وصلودَ زنـد ، فزعم ان الشيـخ اشغل من ذات النحيين ، وفى حربٍ كحرب حُنين ، فعِفت المهشى الى حجّام ، وحِرت بين اِقدام واحجام ، ثم رايت ان لا تعنيف ، على من ياتى الكنيف ، فلما شهدت موسمه ، وشاهدت ميسمه ، رايت شيـخًا ، هيئتُه نظيـفة ، وحركته خفيفة ، وعليه من النظّارة اطواق ، ومن الزحام طباق ، وبين يديه فتىً كالصمصامة ، مستهدفٌ للحجامة ، والشيخ يقول له اراك قد ابرزت راسك ، قبل ان تُبرز قرطاسك ، ووليتنى قذالك ، ولم تقُل لى ذالك ، ولستُ ممن يبيع نقدًا بدين ، ولا يطلب اثرًا بعد عين ، فان انت رضخت بالعين ، حُجمت فى الاخدعين ، وان كنت تري الشُحّ اولى ، وخَزْنَ الفلس فى النفس احلى ، فاقرا عَبَس وتولّى ، واغرب عنى والاّ ، فقال الفتى والذي حرّم صوغ المين ، كما حرّم صيد الحرمين ، انى لافلس من ابن يومين ، فثِق بسيل تلعتى ، وانظِرنى الى سعتى ، فقال الشيخ ويحك ان مثل الوعود ، كغرس العود ، وهو بين ان يُدركه العطبُ ، او يُدرَك منه الرطب ، فما يدريني ايحصل من عودك جنىً ، أم احصلُ منه على ضنىً ، ثم ما الثقة بانك حين تبتعد ، ستفى بما تعِد ، وقد صار الغدر كالتحجيل ، فى حلية هذا الجيل ، فارحنى بالله من التعذيب ، وارحل الى جيث يهوى الذيب ، فاستوي الغلام اليه ، وقد استولى الخجل عليه ، وقال والله ما يخيس بالعهد ، غير الخسيس الوغد ، ولا يرد غدير الغدر ، الاّ الوضيع القدر ، ولو عرفت من انا لما اسمعتنى الخنا ، لكنك جهلت فقُلت ، وحيث وجب ان تسجد بُلت ، وما اقبح الغُربة والاِقلال ، وما احسن قول من قال *

ان

انّ الغريب الطويل الذيل مهتهن فكيف حال غريبٍ ما له قوتُ
لكنه ما تشين الحرّ موجعة فالمسك يُسحَق والكافور مفتوتُ
وطالما أُصلي الياقوتُ جمرَ غضا ثم انطفى الجمر والياقوت ياقوتُ

فقال له الشيخ يا ويلة ابيك ، وعولة اهليك ، أأنت في موقف فخر يُظهَر ، وحسبٍ يشهر ، ام في موقف جلدٍ يُكشَط ، وقفًا يشرط ، وهب ان لك البيت كما ادّعيت ، ايحصل بذلك ، حجمُ قذالك ، لا والله ولو ان اباك اناف ، على عبد مناف ، او لخالك دان ، عبد المدان ، فلا تضرب في حديدٍ بارد ولا تطلب ما لست له بواجد ، وباهِ اذا باهيت بوجودك ، لا بجدودك ، وبمحصولك ، لا باصولك ، وبصفاتك ، لا بُرفاتك ، وباعلاقك ، لا باعراقك ، وبنشبك ، لا بنسبك ، ولا تُطِع الطمعَ فيُذلّك ، ولا تتبع الهوي فيضلّك ، ولله القايل لابنه *

بُنيَّ استقم فالعود تنمى فروعه قويمًا ويغشاه اذا ما التوي التوي
ولا تُطِع الحرصَ المُذلّ وكُن فتىً اذا التهبت احشاؤه بالطوي طوي
وعاصِ الهوي المُردي فكم من مُحلّق الى النجم لمّا ان اطاع الهوي هوي
واسعِف ذوي القربى فيقبح ان يري علي من الى الحرّ اللباب انضوى ضوي
وحافظ على من لا يخون اذا نبا زمانٌ ومن يرعى اذا ما النوي نوي
وان تقتدر فاصفح فلا خير في امرئ اذا اعتلقت اظفارُه بالشوي شوى
واياك والشكوي فلم تَرَ ذا نُهَى شكا بل اخو الجهل الذي ما ارعوي عوي

فقال الغلام للنظارة يا للعجيبة ، والطُرفة الغريبة ، أنقُ في السمآء ، واسْتُ في الماء ، ولفظٌ كالصهبآء ، وفعل كالحصبآء ، ثم اقبل على الشيخ بلسان سليط ، وغيظٍ مستشيط ، وقال اُفٍّ لك من صوّاغ باللسان ،

بالله يا مُهجة قلبي قل لي ... هل ابصرت عيناك قط مثلي
يفتح بالرُقية كل قُفلِ ... ويستبي بالسحر كل عقلِ
ويعجن الجدَّ بماء الهزلِ ... ان يكن الاسكندري قبلي
فالطلّ قد يبدو امام الوبلِ ... والفضلُ للوابل لا للطلِّ

قال فنبّهتني ارجوزته عليه ، وارتني انه شيخنا المشار اليه ، فقرعته على الابتذال ، والالتحاق بالارذال ، فاعرض عما سمع ولم يُبلْ بها قُرع ، وقال كلَّ الحذآ يحتذي الحافي الوقع ، ثم قاصاني مقاصاة المهان ، وانطلق هو وابنه كفرسي رِهان *

تفسير

قال الشيخ الامام ابو محمد القسم بن على ، قد اودعت هذه المقامة بضعة عشر مثلاً من امثال العرب ، وها انا افسِّر منها ما خِلته يلتبس ، على من يقتبس ، اما قوله ابطِء فقد فهو مولى عايشة بنت سعد ، بن ابى وقاص ، وكانت بعثته بالمدينة ليقتبس لها نارًا ، فقصد مصر واقام بها سنة ، ثم جآها بعد السنة يشتدّ ومعه جمر فتبدد منه فقال تعِست العجلةُ ، وامّا ذات النحيَين فهى امراة ، من تيم الله بْن ثعلبة ، حضرت سوقَ عُكاظ ومعها نحيا سمن ، فاستخلى بها خوات بن جُبير الانصاري ليبتاعها منها ، ففتح احدَهما وذاقه ودفعه اليها ، فاخذته باحدي يديها ، ثم فتح الاخر وذاقه ، ودفعه اليها ، فامسكته بيدها الاخرى ، ثم غشيها وهى لا تقدر على الدفع عن نفسها ، لحفظها فم النحيين ، وشُحّها على السمن فلما ذهب عنها قالت لا هنّاك ، فضرب بها المثل فيمن شُغل ، وهى فى هذا المثل مفعولة لانها شُغلت ، واكثر الامثال التى على افعل تاتى من فعل الفاعل ، واما قوله انفُ فى السما

السهآ واستُ في المآ ، يضرب هذا المثل لمن يتكبّر مقالا ، ويصغر فعالا ، واما قوله افرغ من حجام ساباط ، فذُكر انه كان حجاماً ملازماً ساباط المدايين ، يحجم الجندي بدانق نسيئةً ، وربّما مرّت عليه برهةٌ لا يقربه فيه احدٌ ، فكان يُبرز امّه عند تهادى عُطلته فيحجمها لكيلا يُقرَّع بالبطالة ، فما زال يحجمها حتى نزف دمُها وماتت ، واما قوله يشكو الى غير مُصمِّت ، فهو مثلٌ يضرب لمن لا يكترث بشان صاحبه ، ولا يبالي باستمرار شكايته ، لانه لو اشكاه لصمت وامسك عن الكلام ، ومنه قول الراجز يخاطب جملاً له *

انك لا تشكو الى مصمِّتِ فاصبر على الحمل الثقيل او مت

ونحو هذا المثل هان على الاملس ، ما لاقى الدبر ، واما قوله شَغَلَتْ شعابى جدواي ، فالمراد به انه ليس يفضل عنى ما اصرفه الى غيري ، والشِعاب النواحى واحدها شِعب بالكسر ، وقوله كلّ الحذاء يحتذِي الحافى الوقع فمعناه ان المجهود يقنع بما يجد ، والوَقَع ان تُصيب الحجارةُ القدمَ فتوهنها ، واما البعير الموقَّع فهو الذي يكثر اثارُ الدَبر بظهره *

المقامة الثامنة والاربعون الحرامية

روي الحارث بن همام عن ابى زيد السروجى انه قال ، ما زلت مذ رحّلت عنسى ، وارتحلت عن عرسى وغرسى ، احنُّ الى عيان البصرة ، حنين المظلوم الى النصرة ، لما اجمع عليه اربابُ الدراية ، واصحاب الرواية

من

Digitized by Google

من خصايص معالمها وعلمايها ، ومآثر مشاهدها وشهدايها ، واسأل الله تعالى ان يوطيني ثراها ، لافوز بمرآها وان يُهطيني قَراها ، لاقترى قُراها ، فها احلّنيها الحظُّ ، وسرح لي فيها اللحظُ ، رايت بها ما يملاء العين قُرَّةً * ويسلّى عن الاوطان كلَّ غريب * فغلّست فى بعض الايام ، حين نصل خضابُ الظلام ، وهتف ابو المنذر بالنوّام ، لاخطو فى خططها ، واقضى الوطر من توسّطها فأدّانى الاختراق فى مسالكها ، والانصلات فى سككها ، الى محلةٍ موسومة بالاحترام ، منسوبة الى بنى حرام ، ذات مساجد مشهودة ، وحياضٍ مورودة ، ومبانٍ وثيقة ، ومغان انيقة ، وخصايصٍ اثيرة ، ومزايا كثيرة ،

بها ما شيتَ من دينٍ ودنيا ... وجيران تنافوا فى المعانى
فمشعوفٌ بايات المثانى ... ومفتون برنات المثانى
ومضطلع بتلخيص المعانى ... ومطّلع الى تخليص عانى
وكم من قارئٍ فيها وقارٍ ... اضرّا بالجفون وبالجفان
وكم من مَعْلَم للعلم فيها ... ونادٍ للندَى حُلو المجانى
ومغنىً ما تزال تغنّ فيه ... اغاريدُ الغوانى والاغانى
فصِل ان شيت فيها من يُصلّى ... وامّا شيت فادنُ من الدِنان
ودونك صُحبةَ الاكياس فيها ... او الكاسات منطلق العنان

قال فبينما انا انفض طرقها ، واستشقُّ رونقها ، اذ لمحت عند دلوك براح ، واظلال الرواح ، مسجدًا مشتهرًا بطرايفه ، مزدهرًا بطوايفه ، وقد اجرى اهلُه ذكرَ حروف البدل ، وجروا فى حلبة الجدل ، فعُجتُ نحوهم لاستمطر نوءهم ، لا لاقتبس نحوهم ، فلم يلُ الاَّ كقبسة العجلان ، حتى

حتى ارتفعت الاصواتُ بالاذان ، ثم ردف التاذين بروزُ الامام ، فأُغمدت ظُبى الكلام ، وحلّت الحُبا للقيام ، وشُغلنا بالقنوت ، عن استمداد القوت ، وبا لسجود ، عن استنزال الجود ، ولما قُضى الفرضُ ، وكاد الجمعُ ينفضّ ، انبري من الجماعة ، كهلٌ حلو البراعة ، له مع السمت الحسن ، ذلاقةُ اللسن ، وفصاحة الحسن ، وقال يا جيرتى ، الذين اصطفيتهم على اغصان شجرتى ، وجعلت خطّتَهم دار هجرتى ، واتخذتهم كرشى وعيبتى ، واعددتهم لمحضري وغيبتى ، اما تعلمون ان لبوس الصدق ابهى الملابس الفاخرة ، وان فضوح الدنيا اهون من فضوح الاخرة ، وان الدين امحاض النصيحة ، والارشاد عنوان العقيدة الصحيحة ، وان المستشار مؤتمن ، والمسترشد بالنصح قمن ، وان اخاك الذي عذلك ، لا الذي عذرك ، وصديقك من صدقك ، لا من صدّقك ، فقال له الحاضرون ايها الخلّ الودود ، والخدن المودود ، ما سرّ كلامك الملغز ، وما شرح خطابك المؤجز وما الذي تبغيه منا ليُنجز ، ولو اعجز ، فوالذي حبانا بمحبّتك ، وجعلنا من صفوة احبّتك ، ما نألوك نصحا ، ولا نذّخر عنك نضحا ، فقال جُزيتم خيرا ، ووقيتم ضيرا ، فانكم من لا يشقَى بهم جليس ، ولا يصدر عنهم تلبيس ، ولا يخيب فيهم مظنون ، ولا يُطوي دونهم مكنون ، وسابثّكم ما حلّ فى صدري ، واستفتيكم فيما عيل له صبري ، اعلموا انى كنت عند صلود الزّند ، وصدود الجدّ ، اخلصت مع الله نيّة العقد ، واعطيته صفقة العهد ، على ان لا اسبأ مُداما ، ولا اعاقر ندامَى ، ولا احتسى قهوة ، ولا اكتسى نشوة ، فسوّلت لى النفسُ المضلّة ، والشهوة المذلة ، ان نادمت الابطال

الابطال ، وعاطيت الأرطال ، واضعت الوقار ، وارتضعت العُقار ، وامتطيت الكُميت ، وتناسيت التوبة كالميت ، ثم لم اقنع بهاتيكم المرة فى طاعة ابى مُرَّة ، حتى عكفت على الخندريس ، فى يوم الخميس ، وبتُّ صريع الصهباء ، فى الليلة الغرّآء ، وها انا بادي الكآبة ، لرفض الانابة ، نامى الندامة لوصل المدامة ، شديد الاشفاق ، من نقض الميثاق ، معترف بالاسراف ، فى حبّ السُّلاف ، فيا قوم هل كفَّارة تعرفونها تباعد من ذنبى ، وتُدنى الى ربّى ، قال ابو زيد فها حلّ انشوطة نفثه ، وقضى الوطر من اشتكآء بثّه ، ناجتْنى نفسى يا ابا زيد ، هذه نهزةُ صيد ، فشمّر عن يد وايد ، فنهضت من مجثمى انتهاض الشهم ، وانخرطت من الصّف انخراط السهم ، وقلت *

ايها الاروع الذي ... فاق مجداً وسوددا
والذى يبتغى الرشا ... دَ لينجوا به غدا
ان عندى علاج ما ... بِتَّ منه مسهَّدا
فاستمعها عجيبةً ... غادرتنى ملدّدا
انا من ساكنى سروج ... ذوي الدين والهُدي
كنت ذا ثروة بها ... ومُطاعاً مسوَّدا
مربعى مُالف الضيو ... ف وما لى لهم سُدا
اشتري الحمد باللُهَى ... واقى العِرض بالجدا
لا ابالى بهُنفس ... طاح فى البذل والندا
اوقد النارَ بالبفاع ... اذا النِكس اخمدا
ويرانى المؤمّلون ... ملاذا ومقصدا

لم

لم يشِم بارقى صدٍ ... فانثنى يشتكى الصدا
لا ولا زام قابسٌ ... قدح زندى فاصلدا
طالما ساعد الزمان ... فاصبحت مُسعدا
فقضى الله ان يغير ... ما كان عوّدا
بوّأ الرومَ ارضَنا ... بعد ضغن تولّدا
فاستباحوا حريم من ... صادفوه موحّدا
وحووا كلما استسرّ ... بها لى وما بدا
فتطوّحتُ فى البلا ... د طريدًا مشرّدا
اجتدي الناس بعد ما ... كنت من قبل مجتدا
وتُرى بى خصاصة ... اتهنّى لها الردا
والبلاء الذى به ... شهلُ أنسى تبدّدا
استباءَ ابنتى التى ... اسروها لتُفتدا
فاستبِن مِحنتى ... ومُدَّ الى نصرتى يدا
واجِرنى من الزما ... ن فقد جار واعتدا
واعنّى على فكا ... ك ابنتى من يدى العدا
فبذا تنهمى الماءَ ... ثمُ عهن تمردا
وبه تُقبل الانا ... بةُ منهن تزهدا
وهو كفارةٌ لمن زا ... غ من بعد ما اهتدى
ولئِن قمتُ منشدًا ... فلقد فهتُ مرشدا
فاقبل النصح والهدا ... ية واشكر لمن هدا
واسمح الان بالذى ... يتسنّى لتُحمدا

قال

Digitized by Google

قال ابو زيد فلما انتهت هذه المقامة ، واوهم المسؤولُ صدق كلمتي اغراه القرم الى الكرم بهواساتي ، ورغبه الكلفُ بحمل الكُلف في مقاساتي ، فرضخ لي على الحافرة ، ونضح لي بالعدّة الوافرة ، فانقلبت الى وكري ، فرحًا بنجح مكري ، وقد حصلت من صوغ المكيدة ، على سوغ الثريدة ، ووصلت من حوك القصيدة ، الى لوك العصيدة ، قال الحارث بن همام فقلت له سبحان من ابدعك ، فما اعظم خُدعك ، فاستغرب في الضحك ، ثم انشد غير مرتبك *

عِش بالخداع فانت في ... دهر بنوه كأسد بيشه
وادِر قناة المكر حتى ... تستدير رحا المعيشه
وصِد النسور فان تعذ ... ر صيدُها فاقنع بربشه
واجنِ الثمار فان تفُتك ... فرضّ نفسك بالحشيشه
وارح فؤادك ان نبا ... دهرٌ من الفكر المُطيشه
فتقلُّبُ الاحداث يوذن ... باستحالة كل عيشه

المقامة التاسعة والاربعون الساسانيّة

حكى الحارث بن همام قال ، بلغني ان ابا زيد حين ناهز القبضةَ ، وابتزّه قيد الهرم النهضة ، احضر ابنه ، بعد ما استجاش ذهنه ، وقال له يا بنيَّ انه قد دنا ارتحالي من الفِناء ، واكتحالي بهرود الفناء ، وانت بحمد الله ولي عهدي ، وكبش الكتيبة الساسانيّة بعدي ، ومثلك لا تُقرع له

له العصا ، ولا يُنبَّه ، بطرق الحصا ، ولكن قد نُدب الى الاذكار ، وجُعل صيقلاً للافكار ، واني اوصيك بما لم يوصِ به شيثُ الانباط ، ولا يعقوب الاسباط ، فاحفظ وصيتي ، وجانب معصيتي ، واحذُ مثالي ، وافقهْ امثالي ، فانك ان استنصحت نصحي ، واستصبحت بصبحي ، امرع خانك ، وارتفع دخانك ، وان تناسيت سورتي ، ونبذت مشورتي قلّ رمادُ اثافيك ، وزهد اهلك ورهطك فيك ، يا بني اني جرّبتُ حقايق الامور ، وبلوت تصاريف الدهور ، فرايت المرَّ بنشبه لا بنسبه ، والفحص عن مكسبه لا عن حسبه ، وكنت سمعت ان المعايش امارة وتجارة ، وزراعة وصناعة ، فمارست هذه الاربع ، لانظر ايها اوفق وانفع ، فما احمدت منها معيشة ، ولا استرغدت فيها عيشة ، اما فُرص الولايات ، وخلس الامارات ، فكاضغاث الاحلام ، والفي المنتسخ بالظلام ، وناهيك غُصّةَ بمرارة الفطام ، واما بضايع التجارات ، فعُرضة للمخاطرات ، وطعمةٌ للغارات ، وما اشبهها بالطيور الطيارات ، واما اتّخاذ الضياع ، والتصدي للازدراع ، فمنهكةٌ للاعراض ، وقيود عايقة عن الارتكاض ، وقلّما خلا ربّها من اذلال ، او رُزق رَوْحَ بال ، واما حرف اولى الصناعات ، فغير فاضلة عن الاقوات ، ولا نافقة في جميع الاوقات ، ومعظمها معصوبٌ بشبيبة الحياة ، ولم ار ما هو بارد المغنم ، لذيذ المطعم ، وافي المكسب ، صافي المشرب ، الاَّ الحرفة التي وضع ساسان اساسها ، ونوّع اجناسها ، واضرم في الخافقين نارها ، واوضح لبني غبرآ منارها ، فشهدت وقايعها مُعلما ، واخترتُ سيماها لي ميسما ، اذ كانت المتجر الذي لا يبور ، والمنهل الذي لا يغور ، والمصباح الذي يعشو اليه الجمهور ، ويستصبح به العُمى والعور ، وكان اهلها

اهلها اغرّ قبيل واسعد جيل ، لا يرهقهم مسّ حيف ، ولا يقلقهم سلّ سيف ، ولا يخشون حُمةَ لاسع ، ولا يدينون لدانٍ ولا شاسع ، ولا يرهبون من برق ورعد ، ولا يحفلون بهن قام وقعد ، انديتهم منزّهة ، وقلوبهم مرفّهة ، وطعمهم معجّلة ، واوقاتهم غُرٌّ محجّلة ، اينما سقطوا لقطوا ، وحيثما انخرطوا خرطوا ، لا يتّخذون اوطانا ، ولا يتقون سلطانا ، ولا يمتازون عما تغدو خماصا وتروح بطانا ، فقال له انبه يا ابت لقد صدقت فيما نطقت ، ولكنك رتقت وما فتقت ، فبيّن لي كيف اقتطف ، ومن اين توكل الكتفُ ، فقال يا بنى ان الارتكاض بابها ، والنشاط جلبابها ، والفطنة مصباحها ، والقِحة سلاحها ، فكن اجول من قُطرب ، واسري من جندب ، وانشط من ظبى مُقمر ، واسلط من ذيب متنمّر ، واقدح زندَ جدّك بجدّك ، واقرع باب رَعْيك بسَعْيك ، وجُب كل فجّ ، وخُض كل لجّ ، وانتجع كل روض ، والق دلوَك الى كل حوض ، ولا تسأم الطلب ، ولا تملّ الدأب ، فقد كان مكتوبًا على عصا شيخنا ساسان ، من طلب جلب ، ومن جال نال ، واياك والكسل فانه عنوان النحوس ، ولبوس ذي البوس ، ومفتاح المتربة ، ولقاح المتعبة ، وشيمة العجزة الجهلة ، وشنشنة الوُكلة التكلة ، وما اشتار العسل ، من اختار الكسل ، ولا ملا الرّاحة ، من استوطأ الراحة ، وعليك بالاقدام ، ولو على الضرغام ، فان جُراة الجنان ، تُنطق اللسان ، وتطلق العنان ، وبها تُدرك الحظوة ، وتملك الثروة ، كما ان الخور صنو الكسل ، وسبب الفشل ، ومبطأةٌ للعمل ، ومخيبة للامل ، ولهذا قيل فى المثل ، من جسر ايسر ، ومن هاب خاب ، ثم ابرز يا بُنيّ فى بكور ابى زاجر (الغراب) ، وجرأة ابى الحرث (الاسد) ، وحزامة

Digitized by Google

وحزامة ابى قرّة (الحربا) ، وختل ابى جعدة (الذيب) وحرص ابى عُقبة (الخنزير) ، ونشاط ابى وثاب (الغزال) ، ومكر ابى الحصين (الثعلب) ، وصبر ابى ايوب (الجمل) ، وتلطف ابى غزوان (الهرّ) وتلوّن ابى براقش ، واخلب بصوغ اللسان ، واخدع بسحر البيان ، وارتد السُّوق قبل الجلب ، وامتر الضرع قبل الحلب ، وسايل الرُّكبان قبل المنتجع ، ودمِّث لجنبك قبل المضطجع ، واشحذ بصيرتك للعيافة ، وانعم نظرك فى القيافة ، فان من صدق توسّمه ، طال تبسمه ، ومن اخطأت فراسته ، ابطات فريسته ، وكن يا بنى خفيف الكلّ ، قليل الدلّ ، راغبا من الكلّ ، قانعًا من الوبل بالطل ، وعظِّم وقع الحقير ، واشكر على النقير ، ولا تقنط عند الردّ ، ولا تستعبد رشح الصلد ، ولا تيأس من روح الله ، انه لا ييأس من روح الله ، الاّ القوم الكافرون ، واذا خُيِّرت بين ذرّة منقودة ، وذُرّة موعودة ، فمل الى النقد ، وفضِّل اليوم على الغد ، فان للتاخير آفات ، وللعزايم بدوات ، وللعدات معقّبات ، وبينها وبين النجز عقبات ، وعليك بصبر اولى العزم ، ورفق ذوي الحزم ، وجانب خُرق المشتطّ ، وتخلّق بالخلق السبط ، وقيِّد الدرهم بالربط ، وشُب البذل بالضبط ، ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط ، ومتى نبا بك بلد ، او نابك فيه كمد ، فبُتّ منه املك ، واسرح عنه جملك ، فخيرُ البلاد ما حملك ، ولا تستثقلن الرحلة ، ولا تتكرّهن النُقلة ، فان اعلام شريعتنا ، واشياخ عشيرتنا ، اجمعوا على ان الحركة بركة ، والسطراوة سفتجة ، ورزوا على من زعم ان الغُربة كربة ، والنُقلة مُثلة ، وقالوا هى تعلّة من اقتنع بالرذيلة ، ورضى بالحشف وسوء الكيلة ، واذا ازمعت الاغتراب

الاغتراب ، واعددت له العصا والجراب ، فتخيَّر الرفيق المسْعد ، من قبل ان تُصعد ، فان الجار قبل الدار ، والرفيق قبل الطريق *

خُذها اليك وصيَّةً لم يوصها قبلى احد
غرّاء حاوية خُلا صات المعانى والزُّبد
نقَّحتها تنقيح من محض النصيحةَ واجتهد
فاعمل بها مثّلتُهُ عمل اللبيب اخى الرشد
حتى يقول الناس هذا الشِّبل من ذاك الاسد

ثم قال له يا بنى قد اوصيت واستقصيت ، فان اقتديت فواهًا لك ، وان اعتديت فاهًا منك ، والله خليفتى عليك ، وارجوان لا تُخلف ظنى فيك ، فقال له ابنه يا ابت ، لا وُضع عرشك ، ولا رفع نعشك ، فقد قلت سددا ، واعملت رشدا ، وبينت لى سوددا ، ونحلت ما لم ينحل والدٌ ولدا ، ولين امُهلتُ بعدك ، ولا ذقت فقدك ، فلاتادّبن بادابك الصالحة ، ولاقتدين باثارك الواضحة ، حتى يقال ما اشبه الليلة بالبارحة ، والغادية بالرايحة ، فاهتزابو زيد لجوابه وابتسم ، وقال من اشبه اباه فما ظلم ، قال الحارث بن همام فاُخبرتُ ان بنى ساسان حين سمعوا هذه الوصايا الحسان ، فضّلوها على وصايا لقمان ، وحفظوها كما تحفظ ام القُرآن ، حتى انهم ليرونها الى الان ، اولى ما لقّنوه الصبيان ، وانفع لهم من نحلة العقيان *

Digitized by Google

المقامة الخمسون البصريّة

حكى الحارث بن همام قال ، أشعرتُ فى بعض الايام همًّا برّح بى استِعارُه ، ولاح علىّ شِعاره ، وكنت سمعت ان غِشيان مجالس الذِكر ، يسرو غواشى الفكر ، فلم ارَ لِاطفآء ما بى من الجمرة ، الّا قصد الجامع بالبصرة ، وكان اذ ذاك مأهول المسانِد ، مشفوه الموارد ، يُجتنى من رياضه ازاهيرُ الكلام ، ويُسمع فى ارجآيه صريرُ الاقلام ، فانطلقت اليه غيرُ وانٍ ، ولا لاوٍ على شان ، فلما وطيتُ حصاه ، واستشرفت اقصاه ، ترااى لى ذو اطمار بالية ، فوق صخرةٍ عالية ، وقد عصبت بِهِ عُصَبٌ لا يحصى عديدُهم ، ولا ينادي وليدُهم ، فابتدرت قصدَه ، وتورّدت ورده ، ورجوت ان اجد شفاي عنده ، ولم ازل اتنقّل فى المراكز ، واُغضى للاكز والواكز ، الى ان جلست تجاهَه ، وبحيث أَمنتُ اشتباهَه ، فاذا هو شيخنا السروجى لا ريب فيه ، ولا لبس يخفيه ، فتسرّي بمرآه همّى ، وارفضّت كتيبةُ غمى ، وحين رآنى ، وبصر بمكانى ، قال يا اهلَ البصرة رعاكم الله ووقاكم ، وقوّي تُقاكم ، فما اضوع ريّاكم ، وافضل مزاياكم ، بلدكم او فى البلاد طُهرةً ، وازكاها فِطرة ، وافسحها رُقعة ، وامرعها بقعة ، واقومها قِبلة ، واوسعها دِجلة ، واكثرها نهرا ونخلة ، واحسنها تفصيلاً وجملة ، دهليزُ البلد الحرام ، وقُبالة الباب والمقام ، وآحد جناحى الدنيا ، والمصر المؤسّس على التقوي ، لم يتدنس ببيوت النيران ، ولا طيف فيه بالاوثان ،

Digitized by Google

بالاوثان ، ولا سُجد على اديمه لغير الرحمن ، ذو المشاهد المشهـــودة والمساجد المقصودة ، والمعالم المشهورة ، والمقابر المزورة ، والآثـــار المحمودة ، والخِطط المحدودة ، بهِ تلتقى الفُلكُ والركاب ، والحيتـان والضباب ، والحادي والملاّح ، والقانص والفلاّح ، والناشب والرامح ، والسارح والسابح ، وله ايةُ المدّ الفايض ، والجزر الفايض ، واما انتم من لا يختـلف فى خصايصهم اثنان ، ولا ينكرها ذو شنأن ، دهماؤُكم اطوع رعيةٍ لسلطان ، واشكرهـم لاحسان ، وزاهدكم أورع الخليقة ، واحسنهم طريقة علـى الحقيقة ، وعالمكم علّامةُ كل زمان ، والحجّة فى كـل اوان ، ومنكم من استنبـط علمَ النحو ووضعه ، والـذى ابتدع ميزان الشعر واخترعه ، وما من فخرٍ الاّ ولكم فيه اليد الطولى ، والقِدح المُعلّى ، وانتم احقّ بهِ واولى ، ثم انـكم اكثر اهل مصرٍ مُوذنين ، واحسنُهم فى النسك قوانـين ، وبكم اقتُدِيَ فى التعريق ، وعُرف التسحير فى الشهر الشريق ، ولكم اذا قـرَّت المضاجعُ ، وهجع الهاجع ، تذكارٌ يوقظ النايمَ ، ويونس القايم ، وما ابتسم ثغرُ فجر ، ولا بزغ نوره فى بردٍ ولا حرّ ، الاّ ولتاذينكم دويٌّ فى الاسحـــار ، كدويّ الريح فى البحار ، وبهذا عنكم صدع النقل ، واخبر النبى عليـه السلام من قبل ، وبيّن ان دويّكم بالاسحار ، كدويّ النخل فى القِفار ، فشرفًا لكم ببشارة المصطفى ، وواها لمصركم وان كان قد عفا ، ولم يبقَ منه الاّ شَفا ، ثم انه خزن لسانه ، وخطم بيانه ، حتى حُدِج بالابصار ، وقُرِف بالاقصار ، فتنفّس تنفس من قِيد لِقَوَد ، او ضبثت به براثن اسد ، ثـم قال اما انتم يا اهل البصرة فما منـكم الاّ العَلم المعروف ، ومن له المعرفـة والمعروف ، واما انا فمن عرفنى فانا ذاك ، وشرّ المعارف من آذاك ، ومن لم يُثبت

غرفتى

عِرفتى فساصْدقه صِفتى ، انا الذي انجد واتهم ، وايمن واشأم ، واصحر وابحر ، وادلج واسحر ، نشأتُ بسروج ، وربيت على السُّروج ، ثم ولجت المضايق وفتحت المغالق ، وشهدت المعارك ، والنّت العرايك ، واقتدت الشوامس ، وارغمت المعاطس ، واذبت الجوامد وامعْتُ الجلامد ، سلوا عنى المشارق والمغارب ، والمناسب والغوارب ، والمحافل والجحافل ، والقبايل والقنابل ، واستوضحونى من نقلة الاخبار ، ورُواة الاسمار ، وحُداة الركبان ، وحُذّاق الكُهّان ، لتعلموا كم فجٍّ سلكت ، وجحابٍ هتكت ، ومهلكةٍ اقتحمت ، وملحمةٍ الحمت ، وكم البابٍ خدعت وبِدَع ابتدعت ، وفُرص اختلست ، واُسدٍ افترست ، وكم محلّق غادرته لقَى ، وكامنٍ استخرجته بالرُّقَى ، وحجر سحرته حتى انصدع ، واستنبطتُ زلالَه بالخُدَع ، ولكن فرط ما فرط والغصن رطيب ، والغود غريب ، وبُرد الشباب قشيب ، فاما الان وقد استشنّ الاديمُ ، وتأوّد القويم ، واستنار الليل البهيم ، فليس الاّ الندم ان نفع ، وترقيعُ الخرق الذى قد اتّسع ، وكنت رُويت فى الاثار المُسنَدة ، والاخبار المعتمدة ، ان لكم من الله فى كل يوم نظرة ، وان سلاح الناس كلهم الحديد ، وسلاحكم الادعية والتوحيد ، فقصدتكم انضى الرواحل ، واطوي المراحل ، حتى قمت هذا المقام فيكم ، ولا منّ لى عليكم ، اذ ما سعيت الاّ فى حاجتى ، ولا تعبتُ الاّ لراحتى ، ولست ابغى اعطيتكم ، بل استدعى ادعيتكم ، ولا اسألكم اموالكم ، بل استنزل سوالكم ، فادعوا الله تعالى بتوفيقى للمتاب ، واعداد للمآب ، فانه رفيع الدرجات ، مجيب الدعوات ، وهو الذي يقبل التوبة من عباده ، ويعفو عن السيأت ، ثم انشد *

استغفر

وانـدُب زمانـا سلفا سوّدتَ فيه الصحفـا ولـم تـزل معتكفـا
على القبيح الشنعِ

كم ليلةٍ اودعتهـا مأثمـا ابدعتهـا لشـهوةٍ اطعتهـا
فى مرقدٍ ومضجع

وكم خُطى حثثتَها فى خِزيةٍ احدثتهـا وتوبـةٍ نكثتهـا
لملعبٍ ومرتع

وكـم تجـرّأت على ربّ السمـوات العُلى ولـم تـراقبـه ولا
صدقتَ فيما تدّعى

وكم غمطـت برّه وكم امنـت مكـره وكم نبـذت امـرة
نبذَ الحذاء المرقّع

وكم ركضت فى اللعب وفُهت عمدًا بالكذب ولم تُراعِ ما يجـب
من عهده المتّبع

فالبس شعار النـدم واسكب شآبيب الدم قبل زوال القـدم
وقبل سوء المصرع

واخضع خضوع المعترف ولُذ ملاذ المقـترف واعصِ هواك وانحرف
عنه انحراف المُقلع

الامَ تسهـو وتنـى ومُعظم العمـر فنـى فيما يضرّ المقتنـى
ولست بالمرتـدع

اما تري الشيب وخـط وخطّ فى الراسِ خطط ومن يلح وخُط الشمط
بفوده فقد نعى

ويحك يا نفس احرصى على ارتياد المَخلـص وطاوعى واخلصـى
واستمعى

47439

Digitized by Google

واستهى النصح وعى

واعتبري بهن مضى من القرون وانقضى واخشى مفاجاة القضا

وحاذري ان تُخدعى

وانتهجي سبل الهدي واذكري وشك الردي فان مثواك غدا

فى قعر لحدٍ بلقع

اهًا له بيتَ البلى والمنزل القفر الخلا ومْوردَ السفر الاولى

واللاحق المتّبع

بيتٌ يُرَى من اودعه قد ضمّه واستودعه بعد الفضآء والسعه

قيدُ ثلث اذْرع

لا فرقَ ان يحلّهُ داهيةٌ او ابلهُ ومُعسرٌ او من لهُ

ملكٌ كملك تُبَّع

وبعده العرضُ الذي يحوي الحيى والبذي والمبتدي والمحتذي

ومن رعى ومن رُعى

فيا مفازَ المُتّقى وربح عبدٍ قد وقى سوءَ الحساب الموبق

وهولَ يوم الفزع

ويا خسار من بغى ومن تعدّي وطغى وشب نيران الوغى

لمَطعم او مطمع

يا من عليه المتّكل قد زاد ما بى من وجل لما اجترحت من زلل

فى عمري المضيّع

فاغفر لعبدٍ مجترم وارحم بكاه المنسجم فانت اولى من رحم

وخير مدعوّ دُعى

قال

قال فلم يزل يردّدها بصوتٍ رقيق ، ويصلها بزفير وشهيق ، حتى بكيت لبكاء عينيه ، كما كنت من قبل ابكى عليه ، ثم برز الى مسجده ، بوضوء تهجّده ، فانطلقت ردفهُ ، وصلّيت مع من صلّى خلفه ، ولما انفضّ من حضر ، وتفرّقوا شغر بغر ، اخذ يهينم بدرسه ، ويسبك يومه فى قالب امسه ، وفى ضمن ذلك يرنّ ارنان الرَقوب ، ويبكى ولا بكاء يعقوب ، حتى استبنت انه قد التحق بالافراد ، واشرب قلبه هوى الانفراد ، فاخطرتُ بقلبى عزمةَ الارتحال ، وتخليته بتلك الحال ، فكانه تفرَّس ما نويت ، او كوشف بما اخفيت ، فزفر زفرة الاوّاه ، ثم قرأ فاذا عزمتَ فتوكّل على الله ، فاسجلتُ عند ذلك بصدق المحدّثين ، وايقنت ان فى الأُمة محدَّثين ، ثم دنوت اليه كما يدنو المصافح ، وقلت له اوصنى ايها العبد الصالح ، فقال اجعل الموتَ نصب عينك ، وهذا فراق بينى وبينك ، فودّعته وعبراتى يتحدّرن من المآقى ، وزفراتى يتصعدن من التراقى ، وكانت هذه خاتمة التلاقى *

قال القسم بن على الحريري

هذا اخر المقامات التى انشاتها بالاغترار ، واملیتها بلسان الاضطرار ، وقد الجيت الى ان ارصدتها للاستعراض ، وناديت عليها فى سوق الاعتراض ، هذا مع معرفتى بانها من سقط المتاع ، ومما يستوجب ان يُباع ولا يُبتاع ، ولو غشيَنى نورُ التوفيق ، ونظرت لنفسى نظرَ الشفيق ، لسترت

Digitized by Google

لسترت عواري الذي لم يزل مستورا ، ولكن كان ذلك في الكتاب مسطورا ، وانا استغفر الله تعالى مما اودعتها من اباطيل اللغو ، واضاليل اللهو ، واسترشده الى ما يعصم من السهو ، ويُحظى بالعفو ، انه اهل التقوي والمغفرة ، وولى الخيرات في الدنيا والاخرة *

تم

Digitized by Google